سلسلة «الحقيقة الصعبة» (٤)

Series "The Truth Hard" (4)



بَحثٌ في عُروبَةِ الإسْلام

WAS HE AN ARAB!?

STUDY ON ARABIC CHARACTER OF ISLAM

أبو موسى الحريري

ABÛ MÛSÂ AL-HARÎRÎ

www.muhammadanism.org
September 1, 2010
Arabic
Fonts — Arabic: Simplified Arabic, Arabic Transparent; Syriac: Serto Batnan; Hebrew: Times New Roman

أَعَرَبِيٌّ هُوَ؟!

سلسلة «الحقيقة الصعبة» (٤)

أبو موسى الحريري

أَعَرَبِيٌّ هُوَ؟!

بَحثٌ في عُروبَة الإسْلام

بيروت ١٩٨٤

المقدمة

في مسلّمات المسلمين: إن الإسلام هو خير دين ارتضاه الله لعباده الصالحين[١] وهو تمام الأديان وكمالها, و« من يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » [٢]. بل « إن الدين عند الله الإسلام » [٣]. و« من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » [٤]. و« هو على نور من ربه » [٥]. ومحمد هو « رسول الله وخاتم النبيين » [٦] وسيد المرسلين, أرسله الله « رحمة للعالمين » [٧]. وقد بعثه « بالحق شاهداً ومبشراً ونذيراً » [٨]. والمسلمون هم « خير أمة أخرجت للناس » [٩], يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. هم « أمة مقتصدة » [١٠]. « أمة وسط » [١١]. « أمة واحدة » [١٢], و« أمة مسلمة » [١٣]. والقرآن هو كتاب الله المجيد [١٤]

---

(١) القرآن سورة ٥ آية ٣.

(٢) ٣/٨٥.

(٣) ٣/١٩.

(٤) ٦/١٢٥.

(٥) ٣٩/٢٢.

(٦) ٣٣/٤٠.

(٧) ٢١/٧.

(٨) ٣٣/٤٥, ٤٨/٨, ٢/١١٩, ١٧/١٠٥, ٢٥/٥٦, ٣٤/٢٨.

(٩) ٣/١١٠.

(١٠) ٥/٦٦.

(١١) ٢/١٤٣.

(١٢) ٢١/٩٢, ٢٣/٥٢.

(١٣) ٢/١٢٨.

(١٤) ٥٠/ ١, ٨٥/ ٢١.

الكريم[١٥] العظيم[١٦] الحكيم[١٧] المنير[١٨] المبين[١٩], ليس فيه عوج[٢٠] ولا اختلاف[٢١] ولا ريب[٢٢], إنه« الحق اليقين » [٢٣] والقول الفصل[٢٤].

* * *

وفي مسلّمات العروبيين: إن العرب هم أنبل خلق الله وأشرفهم, قال جبريل« قطعت الأرض قاطبة, من الشرق إلى الغرب, ومن الغرب إلى الشرق, ولم أجد شيئاً أنبل وأشرف من العرب » [٢٥]. والعربي « بين غيره من البشر... هو آية في ذاته. وليس هو غيره فيه, أو غيره في صورته » [٢٦].

واللغة العربية هي لغة أهل الجنّة، ولغة آدم في الفردوس، ولغة اسماعيل بعد أن هداه الله، ولغة كتاب الله المنزل. هي به « ستبقى بمنجاة من هذا الموت. وستبقى حيّة في كل زمان، مخالفة لنواميس الطبيعة التي تسري على سائر لغات البشر »، وهو بها « معجز في نفسه من حيث هو كلام عربي ». [٢٨]. والبلاد العربيّة هي « أهم بقعة استراتيجية في العالم » [٢٩]، لأنها أغنى البلاد أرضاً وتاريخاً، وأخصب بقاع الأرض شمساً وتربةً

---

(١٥) ٧٧/٥٦, ٢٩/٢٧.
(١٦) ٨٧/١٥, ٧٦/٣٨, ٢/٧٨.
(١٧) ٢/٣٦, ٥٨/٣, ١/١٠, ٢/٣١.
(١٨) ١٨٤/٣, ٢٥/٣٥.
(١٩) ١/١٥, ١/٢٧, ٦٩/٣٦, ١٥/٥.
(٢٠) ٣٨/٣٩, ١/١٨.
(٢١) ٨٢/٤.
(٢٢) ٢/٣٢.
(٢٣) ٥١/٦٩.
(٢٤) ١٣/٨٦.
(٢٥) ورد هذا القول في « يقظة العرب » لنجيب عازوري، ص ١٩٧.
(٢٦) أحمد موسى سالم، العقل العربي, ص٤٩.
(٢٧) أنور الجندي، الإسلام والدعوات الهدّامة, ص٢٦٩.
(٢٨) الدكتور مصطفى صادق الرافعي, إعجاز القرآن, ص ١٥٧.
(٢٩) منير شفيق, في « القومية العربية والإسلام », ص ٦٢٩، انظر أيضاً ص ٦٥٠.

ومناخاً, وأقدم البلدان عمراناً وحضارةً, وأفضل منطقة في العالم لظهور الأنبياء والأديان فوقها.

* * *

فلأجل فضل الإسلام والقرآن والنبي محمّد من جهة, وفضل العرب واللغة العربية والبلاد العربية من جهة ثانية, يرى المسلمون والعربيون الفضلَين اجتمعا معاً في أمّة واحدة, « العلاقة بين الإسلام والعروبة, وبين القومية العربية والحضارة الإسلامية... إنما هي علاقة ترابط عضويّ جذري تكويني. علاقة هي بحقّ عروة وثقى » (٣٠). والعلاقة بينهما لها « دور تكامل حضاري. لأجل صياغة عالم جديد » (٣١). ولا عجب في ذلك, لأنّ العرب كانوا أوّل من اعتنقوا الإسلام. وبشّروا به, وأجرى الله على أيديهم « الفتحَ » و « النصر ».

هؤلاء العرب ليس ما لهم هو عند غيرهم, وليس ما لغيرهم لا يملكونه على أحسن وجه. ذلك لأن العروبة كانت ولا تزال « وعد الإسلام ». والعرب هم « مادة الإسلام »، واللغة العربية هي لغة القرآن المجيد. آلاف الكتب والمقالات تخرج كل عام تحيّي العرب والعروبة وتمزجهما بالإسلام. لكأنّهم واحد, من جنس واحد, وأصل واحد... وكم من الإيديولوجيات الفكرية والأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية والدعوات والثورات تدعو إلى الإسلام كما تدعو إلى العروبة, وتبشّر بالعروبة كما تبشّر بالإسلام... وإذا كان الفصل بينهما لا يزال حاصلاً حتى اليوم. فلأن يد الاستعمار, بنظر العروبيين, لا تزال تعمل له بكل نشاط. وإذا كان فرق بين العالم العربي والعالم الغربي, فإن أمل اجتياح الأوّل للثاني سيتحقّق بلا ريب.

---

(٣٠) الدكتور أنور عبد الملك, في « القومية العربية والإسلام »، ص٥٨١.
(٣١) عنوان مقال د. عبد الملك في المرجع نفسه, ص ٥٧٣ ـ ٥٩٩.

ستفتح « جامعة الدول العربية » أبوابها يوماً لتبتلع « جمعية الأمَم ». وفي أماني المسلمين أن تنضمّ إلى جامعتهم بلدان غير عربيّة, بلدان من أفريقيا ومن آسيا ومن الشرق الأقصى والأدنى ومن أوربّا وأميركا. وأمانيهم بنظرهم منطق, لأن الإسلام دين عالمي, وهو يعمل ويعمل ليعمّ أقطار المسكونة. والعرب كانوا زخمه الأوّل. بهم كانت قوّته, وبهم كان الفتح والنصر. فكما انطلق الإسلام من جزيرة العرب إلى أسلمة العالم, سينطلق العرب بزخم الإسلام إلى تعريبه. ولا بدّ لله أن يثيب العرب على ما فعلوا وما سيفعلون.

وحجّة العرب العظمى تكمن في اعتقادهم بعروبة الإسلام, وعروبة النبيّ, وعروبة قريش, وعروبة مكة والمدينة, وعروبة أرض الحجاز, وعروبة بلاد الشام والعراق وفلسطين ومصر والصومال وارتيريا وموريتانيا... هم يؤكدون عروبة الدول والممالك التي نشأت. منذ القديم, فوق تلك الأرض, كممالك المعينيين والقتبانيين والسبأيّين والأنباط والتدمريين وآل حمير وكندة والمناذرة والغساسنة... ويؤكدون عروبة لغاتها, وعروبة جميع الشعوب التي مرت فيها, أو استقرت عليها, أو رحلت عنها, أو طردت منها, أو بيدت فيها. ويؤكدون أخيراً عروبة أديانها وحضاراتها وثقافاتها وعلومها, وعربة كل شيء مسّ أرض العرب أو تبارك برمالها وجمالها..

تجاه هذه العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام, نسأل: نسأل عن حقيقة عروبة النبي محمّد, وعن عروبة قبيلة قريش, وعروبة اللغة المسماة عربية, ونسأل عن صحّة عروبة الحجاز وبلاد الشام وأرض الرافدين, وعن حدود العربية الجغرافية والتاريخية, وعن مفهوم الأمّة العربيّة, والقوميّة العربيّة, واللغة العربية, والعالم العربي.. ونسأل عن الفتح, أعربياً كان أم إسلامياً, وعن الدول العربية, ودساتيرها, وشعوبها, وأنظمتها, وقوانينها.. ونسأل عمّا إذا كان الإسلام جاء ليدعم العروبة وينشرها, أم جاء لينقضها ويحصرها !!! وعمّا إذا كان جاء لينطلق من العروبة إلى العالم, أم ليحطّم العروبة لينطلق على حطامها إلى العالم ؟؟؟

إنها أسئلة أوليّة تخطر على البال. ونطرحها للبحث, في الوقت الذي هي فيه من المسلّمات عند العروبيين الباحثين والمؤرخين والعلماء والفقهاء ورجال « العلم » والدين.. إنها أسئلة قد تكون خطيرة في البدء, وقد تصبح, في نهاية البحث, غير ذي شأن. وهي أسئلة لا تفيد, بنظر العروبيين, إلاّ استثارة الشكوك والنعرات. بل إنّها, كما تبدو للوهلة الأولى, تدعو إلى الهدم أكثر ممّا تفيد البناء. وعلى هذا, قد سيتساءلون: لماذا طرحها الآن ؟ ولماذا لا يؤخذ بالمسلّمات ؟ ولماذا الشكوك واستفزاز المشاعر ؟ وهل في معطيات التاريخ والأرض ريبة ؟ كل شيء يقرّر في نظرهم, وبما لا ريب فيه, عروبة النبي وعروبة قريش ومكة والحجاز. بل يؤكد أن لا إسلام بدون عروبة.

غير أن الأمر ليس بهذه السهولة, أو بهذا الوضوح والتأكيد. فالمصادر نفسها غير أكيدة, ونخشى, قبل إدلاء الأدلّة, القول: إن الإسلام جاء ليقضي على العروبة, وجاء ليثبّت دعائمه على أشلاء العروبة. والعروبة, هي, بنظر الإسلام, ضد الإسلام. وهذه حقيقة قد تكون في خدمة الإسلام عينه. وهي كذلك, لأنّها تفتح الإسلام على العالم, وتعطيه بُعداً عالمياً لا تستطيعه العروبة بحال. لهذا نعود إلى السؤال: هل العروبة هي عزّ للإسلام أم ذلٌّ ؟ كما نسأل: هل العروبة « جنس » لشعب معيّن, أم « وصف » لحالة عيش بدائية ؟ ونسأل أخيراً: هل حظي النبي بعروبة ما ؟ وهل يقف من العروبة موقف عداء أم موقف تسامح ؟!

على هذا السؤال العنوان الخطير: « أعربي هو؟ » يدور البحث كلّه. ونعالج فيه جملة مواضيع. نتوقّف عند بعضها طويلاً, لرفع جهلٍ تمكّن في العقول طويلاً. ونختصر في بعضها كثيراً, لكثرة ما أطنب المؤرخون فيه وأبدعوا... ولا بدّ من الوصول إلى نتيجة تقضي بنزع مجد للإسلام جاءه من العروبة, في الوقت الذي كان مجد الإسلام بأن يتخطّى العروبة ويخلع عنه ما يعود إليها. والعودة إلى ما أثبته التاريخ ويثبته يؤكد لنا بأنّ العروبة كانت ولا تزال صليب الإسلام الكبير, وعاره المشين.

غير أنّ عدداً من المسيحيين المشرقيين, منذ أواخر القرن التاسع عشر, ولأجل

الخلاص من العثمانيين والنظام الذمّي, ولأجل إنشاء رابطةٍ تُقيم المساواة بينهم وبين المسلمين, لجأوا إلى القول بـ« القومية العربية ». ولم يطل الزمن حتى قبض المسلمون على العروبة, وربطوا بينها وبين الإسلام ربطاً عضوياً, آملين بذلك, دفعاً للاستعمار والتفكك الجغرافي الذي مُنُوا به, بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية الإسلامية السنيّة. وقد أصبح الربط بين العروبة والإسلام قوياً حتى بات التمييز بينهما في أيامنا متعذّراً إلى حدّ بعيد.

من أجل هذا نبحث في فصل كامل مدى ارتباط العروبة بالإسلام, ويدور الكلام فيه على العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام, وعلى « الوحدة العربيّة » التي تُعتبر طريقاً للوحدة الإسلامية التي هي هدف « نهائي » للعالم... ثمّ نبحث في فصل ثاني عن المعاني التاريخية للعروبة, وفي ثالث عن مواطن العروبة وحدودها, وفي رابع عن أنواع العرب وفصائلهم, وفي خامس عن اللغة العربيّة وقلمها, وفي هذه الفصول معطياتٌ تاريخية وجغرافية واجتماعية وحضارية ليست هي في صالح الإسلام بشيء. بل إن الذين لا يزالون يعيشون حياة العروبة, والذين يتمسّكون بالعروبة, والذين يحنّون إلى العروبة, والذين يدعون إلى العروبة.. هم أخطر الأخطار على الإسلام والمسلمين.

ثمّ ننهي البحث في الجواب على السؤال ـ العنوان, عنوان هذا الكتاب, الذي كلفنا الجهد في البحث عن صحة عروبة الإسلام وهويّة نبيه الكريم. وعلى كل مخلص للإسلام أن يحكم, ولو مرّة, بغر هوس وردّات فعل, وبعقل مستنير, عمّا إذا كانت العروبة خيراً على الإسلام أم شراً.

* * *

نحاول في بحثنا هذا أن نقدّم للتاريخ نظرة صادقة أمينة تعتمد على استقراء حوادث التاريخ ومدوّناته، ويحكم على صدقها وأمانتها التاريخ نفسه، والإسلام

نفسه. ومع هذا لسنا ندّعي الحقيقة, ولسنا نقول كأحد العروبيين المسلمين المعاصرين: « أتّي أدعو العلماء في مختلف العالم الإسلامي إلى قراءة هذا البحث خاصة بإمعان شديد » (٣٢), أو نقول معه: « وأجدى ما في هذا الكتاب أنّه يغني, في كل بحث طرقه, عن عشرات الكتب في بابه, ولكنّها مجتمعة لن تغني عنه أبداً » (٣٣). معاذ الله من أن ندعو أحدا للكفّ عن البحث, أو للاكتفاء بما يقرأ.. بل نؤثر القول, مع الدكتور الياس القطّار في ختام مقدّمة كتابه, حيث يدعو القارئْ بقوله: « أيها القارئْ العزيز, هذا الكتاب لا يغني إطلاقاً عن جوع المعرفة. فإذا كنت من هواة البحث فمرّ به دون أن تتوقّف نهائياً عنده, لأن بحر العلم ينتظرك في كتب أخرى أعمق وأغنى وأكثر تجدداً...» (٣٤).

في يقيننا إن الاعتراف بالنقص في مجالات المعرفة هو الوسيلة الوحيدة إليها. ولا بدّ لنا من هذا الاعتراف في موضوع دقيق يثير المشاعر والأحاسيس, كمثل موضوع العروبة والإسلام. إن كثرة ما كتب في هذا الموضوع جعل الناس كأنّهم في عمليّة غسل دماغ. فكلهم, أو معظمهم يرون بين العروبة والإسلام ارتباطاً, ويخلطون بين قيم العروبة وقيم الإسلام. والذي يتعرّض لهذه الأوهام قد يعرّض نفسه لتيّار قد يجرفه. لا همّ. يكفينا من الحقيقة فضيلة البحث عنها.

* * *

(٣٢) الدكتور الشيخ صبحي الصالح, مباحث في علوم القرآن, دار العلم للملايين, بيروت ١٩٧٩, ط ١١، صفحة ٧. انظر أيضا: ص ٣٤٤.

(٣٣) المرجع نفسه, على الصفحة الأخيرة من الغلاف.

(٣٤) الدكتور الياس القطّار, مدخل إلى علم التاريخ, بيروت ١٩٨٢, ص ٨ ـ ٩.

الفَصل الأولُ

العروبَة والإسلامُ

أولاً : واقع الارتباط بَين العروبَة والإسْلام

ثانياً : البعدُ العَالمي للعروبَة والإسْلام

ثالثاً : اللغَة هيَ العروبَة في الإسْلام

رابعاً : العروبَة وَطن الإسْلام

خامساً : الوحْدةَ العربَّية مرتجى المسْلمين

سادساً : دَسَاتير الدوَل العَربيَّة

خَاتمة الفَصل الأوّل

أولاً: واقع الارتباط بَين العروبَة والإسْلام

واقع الارتباط بين العروبة والإسلام حدّد هويّة كل منهما. إنّه ارتباط « عضوي جذري تكويني » [١]. منذ البدء أشار النبيّ إلى هذه العلاقة الوثقى وأشاد. قال: « إذا عزّ العرب عزّ الإسلام، وإذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام » [٢]. وقال: « أحبّ العرب لثلاث: لأني عربيّ، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنّة في الجنّة عربيّ » [٣]. وقال: « من أحبّ الله ورسوله أحبّ العرب ولغتهم العربيّة » [٤]. ثم أشاد بالعرب وقال: « من أحبّ العرب فقد أحبّني, ومن أبغض العرب فقد أبغضني » [٥]. وقال: « حبّ العرب إيمان وبغضهم نفاق » [٦]. وقال: « لا يكره العرب إلاّ منافق » [٧]. وقال: « من سبّ العرب فأولئك هم المشركون » [٨]. وقال: « أنا سيّد ولد آدم, ولدت من خيار من خيار » [٩]، أي من أبناء اسماعيل, من العرب, من قريش. وقال: « إن من اقتراب الساعة هلاك العرب » [١٠]. أي: إن نهاية العرب هي من دلائل نهاية العالم.

---

(١) د. أنور عبد الملك, في « القومية العربية والإسلام »، ص٥٨١, والدوري, ٧٤٢.
(٢) حديث أورده الطبراني وسائر المحدثين عنه.
(٣) انظر أصحاب السنن.
(٤) من الأحاديث الصحيحة, انظر د. زبادية في « القومية العربية والإسلام », ١١٤.
(٥) الخطيب البغدادي, ٣٦٦/١٤.
(٦) أصحاب السنن.
(٧) سنن ابن حنبل ٨١/١.
(٨) الخطيب البغدادي, ٢٩٥/١٠.
(٩) انظر أصحاب السنن.
(١٠) كتاب المشتبه للذهبي, ص ١٥١.

الجمع بين العرب والإسلام إذن هو من مسلّمات الأحاديث النبويّة [١١]. وحذا المسلمون حذو النبيّ, وعملوا على الربط بين العروبة والإسلام ربطاً متيناً, ربطاً حسبوه « عروة وثقى ». ولن نوفّر قولاً لعربيّ أو لمسلم إلاّ ونجهد في نقله لكي يكون الجميع على بيّنة ممّا نحن في صدده. فالدكتور عبد العزيز الدوري اعتبر « الترابط بين الإسلام والعروبة, تاريخاً وواقعاً, أرضيّة عامّة للأمة العربية، وأساساً في تحديد الهوية » [١٢]. ومنير شفيق رأى « أن كلمة المسلمين أو الشعوب الإسلامية تتضمّن فوراً العرب أو الأمة العربيّة » [١٣]. وقال إنّ « وحدة عضوية بين الإسلام والأمة العربيّة من حيث تكوينها الأساسي » [١٤]، وكرّر القول: « إن الرابطة بين الإسلام والعروبة هي رابطة عضوية » [١٥]. وعلّق الدكتور الطاهر لبيب على هذا القول بقوله: « هذا طبعاً قول لا يناقش » [١٦].

أمّا عادل حسين فلن يملّ من ترداد هذا الأمر وتوضيحه والتذكير به، فهو يقول: « أودّ أن أضيف هنا تذكيراً لا أملُّ من ترداده، وهو أنّ مفهوم العروبة والقوميّة العربيّة.. لا ينفصل عن الإسلام. وأكاد أقول: « إن الإسلام هو الوجه الآخر للعروبة » [١٧]. ويعتبر الدكتور الحبيب الجنحاني « أن الانصهار بين مفهومي العروبة والإسلام هو انصهار كلي » [١٨]، و« كلُّ محاولة للفصل بين الثقافة العربية

(١١) ليس لهذه الأحاديث أي ذكر أو وجود في كتب الأحاديث التسعة المأخوذ بها عند المسلمين: صحيح مسلم, صحيح البخارى، سنن أبي داود، والدارمي، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد بن حنبل، والموطأ. انظر مادة « عرب » في هذه المراجع، وفي المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، للدكتور ونسنك، ليدن ١٩٤٣.

(١٢) د. عبد العزيز الدوري، المرجع نفسه، ص ٧٤٥.

(١٣) منير شفيق، المرجع نفسه، ص ٦٢٩.

(١٤) منير شفيق، المرجع نفسه، ص ١٠٤.

(١٥) منير شفيق، المرجع نفسه، ص ١٠٥.

(١٦) الدكتور طاهر لبيب، المرجع نفسه، ص ٤٧.

(١٧) عادل حسين، المرجع نفسه، ص ٤٣٨.

(١٨) الدكتور الحبيب الجنحاني، المرجع نفسه، ص ٩٥.

والإسلام هي محاولة تعسّفية » [١٩]. ومثل ذلك رأي الدكتور عبد القادر زبادية الـذي يعتبر « العروبة والإسلام شيئاً واحداً في شكله التكاملي » [٢٠], بل « إنّ القومية العربيّة إنّما تشمل الإسلام والعروبة معاً » [٢١], ويقول ليس هناك تناقضٌ بين القومية العربيّة والإسلام » [٢٢], ويعتبر « الدين الإسلامي قاعدةً متينـةً للقوميّـة العربيّـة الصحيحة, ذلك أنّه يزوّدها بركيزة حضارية قوية جداً » [٢٢], لأنّ « واقعية القوميّة العربيّة تنبعث من حضارة الإسلام » [٢٣]. وفي رأي الدكتور حسن حنفي « إنّ العروبة هي الوعاء الحضاري والثقافي للإسلام » [٢٤]. وبلغ به القول إلى أن « الإسلام دين العرب, وليس دين غيرهم, في حين أنّ المسيحية دينُ العرب ودينُ الغرب » [٢٥].

أما منح الصلح فواضح جداً وجريء جداً في التعبير عن الترابط بين العروبة والإسلام. فهو يدعو إلى « احترام التلازم الفعلي القائم بين العروبة والإسلام » [٢٦], وعنده « حيثما تكون العروبة الصادقة يكون التعلّق بالإسلام, وحيث يكون الإسلام يكون الحرص على العروبة » [٢٧]. وفي رأيه: « الإسلام.. إنه اسم آخر للقوميّة العربيّة ليس الاّ...» [٢٨]. بل « إن الإسلام هو التوأم التاريخي لحركة التحرّر العربي » [٢٩]. لهذا « لا إمكانية للفصل المفتعل والمتعسّف والكاذب بين حياة

---

(١٩) د. الحبيب الجنحاني، المرجع نفسه، ص ٩٥.
(٢٠) د. عبد القادر زبادية، المرجع نفسه، ص ١٤٢.
(٢١) د. عبد القادر زبادية، المرجع نفسه، ص١١٢.
(٢٢) د. عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص١١٣.
(٢٢) د. عبد القادر زبادية، المرجع نفسه، ص ١١٤.
(٢٣) المرجع نفسه.
(٢٤) د. حسن حنفي، المرجع نفسه، ص ٢٣٠.
(٢٥) د. حسن حنفي، المرجع نفسه، ص ٤٢٤.
(٢٦) منح الصلح، المرجع نفسه، ص ٢١٤.
(٢٧) المرجع نفسه.
(٢٨) منح الصلح، المرجع نفسه، ص ٢٢٢.
(٢٩) المرجع نفسه، ص ٢٢٦.

الإسلام وحياة الأمة العربية، لا ماضياً ولا حاضراً ولا مستقبلاً. إن الإسلام بتراثه وقيمه ومفاهيمه يشكّل الجزء الأكبر من الثقافة القوميّة لأيّ عربي مسلماً كان أم غير مسلم » [٣٠]. هذا يعني إنّه « لا يوجد عربيّ غيرُ مسلم. هذا إذا كان العربيّ صادق العروبة.. العروبةُ تعني الإسلامَ بهذا المعنى الرفيع الذي لا تعصّبَ ولا تمييز » [٣١]. وليس لنا ـ برأيه ـ أن نصعد في التاريخ إلى ما قبل الإسلام، لأن « الأمة العربيّة تكوّنت ودخلت التاريخَ وهي تصنع الإسلام، كما أن الإسلامَ وُلد وبلغ شأوه وهو يصنعُ الأمة العربيّة » [٣٢] وعنده أخيراً قوله: « لا حبّ للعرب ومعه نفرة من الإسلام، كما لا إخلاص في الإسلام مع التآمر على العرب » [٣٣].

وأمّا عند الدكتور محمّد عمارة فالعلاقة بين الإسلام والعروبة أوثق، والرابطة بينهما تاريخية، والرباط متين. فهو يصرّح بأنّ « الذين افتعلوا بين الإسلام والعروبة تناقضاً أرادوا من ورائه هزيمة العروبة والإسلام جميعاً » [٣٤]، و « الذين يعون افتعاله (أي افتعال التناقض) هم صانعوه ومروّجو فكره من أعداء العروبة والإسلام » [٣٥]، وحجّته « إن الإسلام الحقّ والعروبة الحقّة يكوّنان مزيجاً واحداً » [٣٦]، لأن هناك « علاقة عضوية بين الإسلام والعروبة » [٣٧]. والنتيجة، « إذا كان لهذه الأمة (العربية) رسالة خالدة، فإن الإسلام الحضاري هو الرسالة الخالدة لأمتنا العربية الواحدة » [٣٨]. ولا يقلّ ناصر الدين حماسة عمّن سبقه وهو يقرّر أنّ « الدين

---

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٢٢٣.
(٣١) المرجع نفسه، ص ٢٥٩.
(٣٢) المرجع نفسه، ص ٢٢٣.
(٣٣) منح الصلح، الإسلام وحركة التحرر العربي، ص ٤٣.
(٣٤) د. محمد عمارة في « القومية العربية والإسلام »، ص ١٤٨.
(٣٥) د. محمد عمارة، المرجع نفسه، ص ١٤٥.
(٣٦) د. محمد عمارة، المرجع نفسه، ص ١٧٥.
(٣٧) المرجع نفسه.
(٣٨)المرجع نفسه، ص ٢٠٤.

الإسلامي دين عربي. وفي رأينا أنّه يصعب جدّاً أن يكون مسلم غير عربي مسلماً، كما أراد الإسلام ورسوله أن يكون، لمجرّد أنّه ولد من أبوين مسلمين. بل ينبغي له ليكون كذلك مع ما ينبغي أن يصير عربياً بلسانه وثقافته وميوله » (٣٩).

وعند محمد الغزالي « إن الإسلام لا ينفكّ عن العروبة » (٤٠) و « أيّة عروبة تبقى بعد انتزاع الإسلام منها ؟ » (٤١). فـ« الربط بين العروبة و الإسلام قضيّة بديهية » (٤٢). أو هي« رابطة طبيعية كالرابطة بين الأجرام السماوية وقوّة الجاذبيّة » (٤٣). وعنده « إن الإسلام هو الذي صنع الأمة العربيّة جسماً وروحاً » (٤٤). لذلك « ينبغي لكل مسلم أن يكون في دخيلة نفسه عربيّاً. روحاً وعقلاً، مثله الأعلى آداب العرب وآداب الإسلام، سياسته الدنيوية سياسة العرب وسياسة الإسلام » (٤٥). ولذلك أيضاً إنّ « قيادة المسلمين لا يصلح لها إلاّ العرب.. وما ينبغي أن ينازعهم عليها أحد » (٤٦).

ولم يقتصر الاعتراف بالترابط العضوي بين العروبة والإسلام على المسلمين، بل اضطّر إليه أيضاً عروبيون غير مسلمين، أمثال كمال جنبلاط وميشال عفلق وأدمون ربّاط وغيرهم. يقول كمال جنبلاط: « ... وكم من الشعوب.. وقد ركّزت صراعها التحرّري على مرتكز الدين والتراث الإسلامي.. ويجب أن لا ننسى في حال أنّ نبيّ الإسلام محمد، كان، في آن واحد، باعث العروبة ورائدها الأوّل ونبيّها. وقد

(٣٩) علي ناصر الدين، قضية العرب، ص ١٣٩ حاشية ١.
(٤٠) محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية، ص ٢٠.
(٤١) المرجع نفسه، ص ٨.
(٤٢) المرجع نفسه، ص ٣٣.
(٤٣) المرجع نفسه، ص ٣٤.
(٤٤) المرجع نفسه، ص ٩.
(٤٥) المرجع نفسه، ص ٣٣ ينقل عن إسماعيل مظهر.
(٤٦) المرجع نفسه، ص ٢٥.

تلاحمت الصفتان والرسالتان فيه بحيث يصعب فصلهما فصلاً كاملاً نسبيّاً كما يتصوّر البعض » [٤٧].

ويقول ميشال عفلق مؤسس حزب البعث العربي: « إن حركة الإسلام المتمثّلة في حياة الرسول الكريم ليست بالنسبة إلى العرب حادثاً تاريخياً فحسب.. بل إنّها لعمقها وعنفها واتّساعها، ترتبط ارتباطاً مباشراً بحياة العرب المطلقة، أي إنّها صورة صادقة ورمز كامل خالد لطبيعة النفس العربية.. » [٤٨]. وفي نظرته إلى المستقبل يتنبأ ويقول: « سوف يعرف المسيحيون العرب، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامّة ويسترجعون طبعهم الأصيل، أن الإسلام لهم ثقافة قوميّة يجب أن يتشبّعوا بها حتى يفهموها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم » [٤٩].

ولا يقلّ الدكتور أدمون ربّاط حماساً عن الاثنين: فهو يعتبر الإسلام عاملاً أساسياً في خلق العروبة وشدّ أزرها. يقول: « إن التضامن الديني هو مقدمة للتضامن القومي الذي يمهّد السبيل للترابط السياسي ويوّحد الصفوف ضد المعتدين الأجانب. وممّا لا شك فيه أن الدين الذي لعب هذا الدور في تاريخ العرب هو الإسلام الذي هو « دين ذو روح قوميّة » [٥٠]. ويقول أيضاً: « الإسلام في الواقع الدين القومي العربي.. القومية تعني الولاء لمجمل الأمة العربية » [٥١]. ويؤمن قسطنطين زريق بـ« تشابك الإسلام والقومية العربية » [٥٢]. وكتب خليل اسكندر القبرصي نداءً إلى العرب

---

(٤٧) وقائع الملتقى الفكري العربي في الخرطوم، ١٥ ـ ٢٣ آذار ١٩٧٠، نشرت في العدد ١٠٠ من مجلة « المعرفة » التي تصدرها وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية، ص ٨٤.

(٤٨) ميشال عفلق، في سبيل البعث، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٣، ٢٧، ص ٥٥.

(٤٩) المرجع نفسه، ص ٥٨.

(٥٠) لبنان الآخر، مؤتمر حول العلمنة والهوية العربية، مؤسسة الدراسات والأبحاث اللبنانية، بيروت ١٩٧٦، ص ١٦.

(٥١) انظر بولس الخوري، التراث والحداثة، ص ١٢٨.

(٥٢) المرجع نفسه، ص ١٢٩.

المسيحيين دعاهم فيه إلى اعتناق الإسلام لأسباب أهمها « إن الإسلام دين العرب » [٥٣]. واعتبر نبيه فارس « بأن مولد النبي هو مولد العروبة » [٥٤].

في هذا السرد من أقوال المسلمين وغير المسلمين العروبيين دليل واضح وأكيد على مدى علاقة الإسلام بالعروبة: إنها علاقة عضوية جذرية تكوينية. ويبدو من ذلك كله: إن الإسلام هو جوهر العروبة ونسغها وضميرها وروحها. والعروبة هي أشرف ما يعبّر عن الإسلام. والمسلمون الذين يرفضون انتماءهم إلى العروبة يشكّ في إسلامهم، والعرب الذين لم يدخلوا الإسلام لا بدّ أنّهم معدّون يوماً للدخول فيه. لكأنّ « العروبة للمسلم هي بمثابة لقب شرف. وهذا ما يفسّر إرادة كل مسلم في أن يعلن نفسه عربياً، وإن لم يمضِ عليه زمان في استعرابه. وكذلك سعى الكثيرون لأن يكتشفوا لأنفسهم أجداداً عرباً ولأن يرجعوا إلى أصل عربي، وإلى ربط هذا الأصل بقدر الإمكان بالنبي محمّد، أو، على الأقل، بقبيلة قريش.. » [٥٥].

والحقّ يقال: إن حماس المتحمسين فاق كل برهان على ما تحمّسوا له.

---

(٥٣) المرجع نفسه.
(٥٤) المرجع نفسه.
(٥٥) أنظر أقوال عروبيين آخرين في « لن نعيش ذميّين... » لأمين ناجي, في سلسلة « آفاق مشرقية ١ »، بيروت سنة ١٩٧٩، ص ٧٥ ـ ٩٤.

ثانياً: البعدُ العَالمي للعروبَة والإسْلام

إذا كـان الإسـلام ديناً عالمياً، و العروبـة مرتبطـة بالإسلام بارتبـاط « عضـوي جذري تكويني »، فهو يعني أن العروبة هي الأخرى عالمية، أي إن لها بعداً عالمياً يشمل التـاريخ من البداية حتى النهاية، كما يشمل البشر على اختلافهم. وهذا ليس أمراً عجباً. لأنّ الإسلام، عندما جاء، لفت نظرنا إلى آلاف السنين من التاريخ الذي عبر، وصعدَ بنا إلى بدء الخليقة حيث تقرّر مع المسلمين أن جنة عدن غرسها الله في بلاد العرب، وأن الملائكة كانت تتكلم بلسان عربي، وأنّ آدم حاور الله والملائكة بالعربية [١]، وأنّ إسماعيل أتقنها بإلهام من الله [٢]، وأنّ النبيّ محمّداً استحفظها من جبريل [٣]، وأن الإسلام يطلب من أتباعه إن هم أرادوا فقه معجزته أن يتعربوا[٤].

من هذا المنطق يبدو أن شعوب الأرض قاطبة، منذ البدء، وقبل أن تتبلبل ألسنتها، كانت تتكلم العربية، وتنعم بـ« الوحدة العربية »، وتنتمي إلى الجنس العربي. ويبدو أيضـاً أن العربيـة كجنس ولغة، كانت هي الرابط الجامع الموحّد بين شعوب الأرض وقبائلها. ومنذ ذلك التـاريخ، أي من البدء، كان لها ذاك الزخم

---

(١) عن ابن عباس قال: « إن آدم عليه السلام كانت لغته في الجنّة العربية. فلمّا عصى، سلبه الله العربّية فتكلم بالسريانية. فلمّا تاب ردّ الله عليه العربية » (السيوطي، المزهر ٣٠/١، تاج العروس، المعري، رسالة الغفران، ص٣٦١).

(٢) قال النبي: « ألهم إسماعيل هذا اللسان إلهاماً » (السيوطي، المزهر ٣٣/١، تاج العروس، مادة: عرب. ٣٧٦/١).

(٣) السيوطي، المزهر ٣٥/١.

(٤) الدكتور محمّد عمارة، الإسلام والعروبة، ص ١٠.

العالمي, وتلك القدرة الإلهية التي استطاعت أن تستوعب الإسلام وجميع تعاليمه وشرائعه الأزلية الأبدية.

وفي منطق المسلمين إن الإسلام، لو لم يعتمد على العرب لتأخر في صيرورته العالمية, أو لتأقلم مثل سائر الأديان. أو أيضاً, لما أنجز مساره العالمي. فالعرب من حيث هم « طليعة » الدين الإسلامي, أصبحوا, بالوقت ذاته, وبفضل الإسلام, « طليعة عالمية » لهذا الدين العالمي. ومن هذا المنطلق جاء قول الدكتور حسن حنفي بأنّ « الإسلام دين العرب, وليس دين غيرهم » [٥]. ومنه أيضاً قول منح الصلح: إن « المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميّتهم سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبّعوا بها ويحبّوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم » [٦]. فإذا لم تكن عروبة خارج الإسلام, فليس أيضاً إسلام خارج العروبة. لهذا « من دخل الإسلام صار عربياً » [٧].

ولهذا أيضاً, لا نكون مبالغين إذا كنا « نجد الإسلام الدين, رغم عالميّته التي تتعدّى وتتخطّى حدود القوميات والحضارات والأجناس, نجده يطلب من أتباعه, إن هم أرادوا فقه معجزته ووعي آيته الكبرى, أن يتعرّبوا » [٨]. والحق يقال: إذا كان النبيّ عربياً, والقرآن عربياً, فعلى كل مسلم في أي مصر كان أن يكون عربياً. ونقول أيضاً: يجب على كل عربي أن يكون مسلماً. ومن هنا جاء قول العقيد معمر القذافي صادقاً بالغ الصدق عندما أعلن: « إذا كان يحق لمسيحيي لبنان اعتبار أنفسهم أقليّة مهددة فيجب أن يفهموا أنّ الحلّ, ليس عند الأميركيين, ولا عند

---

(٥) الدكتور حسن حنفي, في « القومية العربية والإسلام »، ص ٤٢٤.
(٦) منح الصلح, في المرجع نفسه, ص ٢٥٩, شبيه بقول ميشال عفلق. حاشية ٤٢.
(٧) الطبري, تاريخ الطبري, سنة ١٥, ص ١٥٠٥ ـ ١٥٠٦, ذكره الدكتور عبد العزيز الدوري. في « القومية العربية والإسلام »، ص ٦٧.
(٨) د. محمد عمارة عمارة, الإسلام والعروبة, ص ١٠.

الإسرائيليين, ولا في تشكيل ميليشيات, أو في الحرب الطائفية, الحلّ هو باعتناق الإسلام » [٩].

ولكي تمتدّ شجرة الإسلام, وتتعمّق جذورها في الأرض, كان عليها أن تنبت نبتاً عربياً, في أرض عربية, ولسان عربي, لأجل ما في الأرض العربية من طاقة وقوة. ولولا العرب, لما استطاع الإسلام أن يمتدّ بتلك السرعة الفائقة التي تحقّقت في زمن الفتح. فالعرب هم جيوش الطلائع, وكتائب الصفوف الأمامية, والتقدميّون المثابرون على الثغور, والمجاهدون المرابطون الذين أعطوا من دمائهم وأرواحهم لأجل أن يمتدّ الإسلام, ويسلم من يحظى بنعمته, وتترنّح نفوس الشهداء في جنان الله.

فضل العرب على الإسلام كفضل الإسلام على العرب. لقد بذلوا كل شيء في سبيل أن ينتصر, وهو ميّزهم عن جميع العالمين, وخصّصهم على كل خلق الله. وهو ما سمّي عند محمّد عمارة بـ« خصوصية العرب واختصاصهم » [١٠]. وعندما دفع العرب بالإسلام نحو العالم, ذهب عمارة نفسه إلى القول: « وفي ذلك, ولا شك, خصوصية العرب, تميّزهم, وتمتاز بهم على الأمم الأخرى, حتى في إطار الدين » [١١]. وليس من ينكر بأنّ المعجزة الإلهية الكبرى والوحيدة قد نزلت على العالم « بلسان عربيّ مبين, بل وعلى نحو من البلاغة والإعجاز, جعل محاكاتها مستعصية على بلغاء العرب, على مرّ التاريخ, كما جعل فهمها ووعيها وفقهها مستعصياً بأية لغة أخرى غير اللغة العربيّة » [١٢].

فالإسلام, بهذا المعنى, يضمن من الكمالات اللامتناهية اثنتين: الإلوهيّة

---

(٩) من حديث للقذافي منشور في صحف بيروت في ١٩٨٣/١/١٥.
(١٠) د. محمّد عمار, الإسلام والعروبة والعلمانيّة, ص ١٠.
(١١) المرجع نفسه.
(١٢) المرجع نفسه, ص ٩.

والعروبة. فهو, بكونه إلهياً, منزّل من عند الله, وبكونه أرضياً, ملتحف بالعروبة. والعرب في كل حال, كالمسلمين, هم « خير أمة أخرجت للناس » (١٣). فهل من مجال بعد, لفصل الإسلام عن العروبة! أو لفصل العروبة عن الإسلام!

لقد حاول الفرس ذلك ففشلوا, وحاول المماليك أيضاً فانقرضوا, وحاول بنو عثمان فلم ينجحوا, وحاول المستعمرون فلم يفلحوا.. ولئن حدثت تلك المحاولات في التاريخ فلأنّ عصر انحطاط قد حصل. ولكن لم يلبث أن انتهى. وقامت العروبة, بعده, بمجد. وعادت عالمية العروبة تلحق بعالمية الإسلام. وأصبح الناس جميعاً بدخولهم في الإسلام عرباً أو مستعربين. وامتدّت العروبة إلى أنحاء العالم بامتداد الإسلام نفسه. وأصبح كل مسلم بالإيمان عربياً بالانتماء والولاء. ألم يقل النبي يوماً: إن « الولاء لحمة كلحمة النسب » (١٤), و« مولى لقوم منهم » (١٥)! فالإسلام العالمي جعل العروبة عالمية, أو قل: العروبة هي العالمية.

لهذا فإنّه « حقّ على من يدين بالإسلام, ويهتدي بهدي القرآن, أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيّتهم.. وذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام, ولعناية القرآن بهم, ولاختيار الله لهم, لتبليغ دين الإسلام.. وما كان الله ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمّة عظيمة, إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلاّ الجليل من الأمم والرجال » (١٦). ذلك يعني: إن العرب أمّة عظيمة جليلة قامت بعبء دين عظيم جليل. ولو لم تكن العروبة كذلك لرزحت تحته, وما أدّت واجبها نحوه. غير أمّة

---

(١٣) سورة آل عمران ٣/١١٠.
(١٤) سنن الدارمي, باب الفرائض٥٣, أحمد بن حنبل١/٢٤٦.
(١٥) صحيح البخاري, ١٤, صحيح مسلم, ١٥, سنن الدارمي, ١٥.
(١٦) ابن باديس, كتاب آثار ابن باديس٤/٥٩, إعداد وتصنيف الدكتور عمّار الطالبي, طبعة الجزائر, سنة ١٩٦٨.

العرب لا يستطيع أن يحمل ثقل دين عظيم كدين الإسلام, ولا يتمكّن من الوصول بالإسلام إلى ما وصل إليه.

* * *

خلاصة القول: إن الإسلام أعطى العروبة بعداً إلهياً شاملاً, والعروبة أعطت الإسلام زخماً وقوّة أرضية في مستوى العالم. ذلك لأن « الثقل في الإسلام للدين قبل الأرض »، والثقل في العروبة في الانتماء إليها مهما كانت جنسيته. لأنّ الجنسيّة حق لكل من اعتنق الإسلام, أياً كانت أرضه في المشرق أو في المغرب.. « ونحن العرب نهتمّ بكل مسلم على ظهر الأرض, فهو ثمرة رسالتنا, وجزء من كياننا الروحي.. ولو وُجد بالمريخ مسلم لقامت للفور أواصر الودّ تصل حبالنا بحبله » (١٧).

* * *

إنّ كل ما في العروبة وما للعروبة هو في الإسلام وللإسلام. وكلّ ما في الإسلام هو في العروبة على أكمل وجه, بحيث أنّه لا يتقدّم واحد دون الآخر, ولا يتأخر واحد عن واحد. وما قاله منح الصلح, المسلم العروبي الغيور, في كتابه « الإسلام وحركة التحرر العربي »، يضاهي بحماسه العصر النبويّ. فالتقدّم, برأيه, والتطور والتحرر والثورة والرقيّ, مفاهيم إسلامية في العروبة, مثلما هي أساليب عربية في الإسلام, بنوع أنّه « لا عروبة ولا تقدميّة أصيلة بدون نظرة إيجابية إلى الإسلام, كدين وحضارة. ولا ثورة ولا نصر حقيقي على الذات وعلى الآخرين بدون التفاعل التام الخيّر مع الإسلام وطاقاته الغنيّة الزاهرة » (١٨).

معنى ذلك أنه لا ثورة ولا تحرّر ولا تقدّم ولا حركة ولا حياة.. إلاّ بعملية تقريب الإسلام من العروبة, والعروبة من الإسلام. وكل تقدمي في العالم, لابدّ أنه

---

(١٧) محمد الغزالي, حقيقة القومية العربية, ص ٩٣- ٩٤.
(١٨) منح الصلح, الإسلام وحركة التحرّر العربي, ط ٤, ص ٢٧.

تقدمي بسبب انتمائه إلى الإسلام والعروبة معاً. بل كل مدافع عن كل حركة فكرية أو سياسية أو ثورية هو مدافع بذات فعله عن العروبة والإسلام معاً. يقول منح الصلح نفسه: « لقد بدأت نبوءة الثوريّين العرب تتحقّق. وها إن التقدّميين عندنا والتقدّميين في كل مكان يقتربون من أن يصبحوا المدافعين الوحيدين عن الإسلام وثورية الإسلام » [١٩]. وبالوضوح والتأكيد نفسيهما يضيف: إن الإسلام « سيكون دعامة للدعوات التقدّمية الصادقة, ولحركات التحرّر. فهو لها بكل طاقاته » [٢٠].

ليس من تقدمية في العالم, بنظر المسلمين العروبيين, إلاّ ويشدّها إلى تقدمية الإسلام والعروبة مشدّ. « لقد استطاعت العروبة, العروبة الحية الجديدة, التي هي من أهم حركات التحرر في العالم, أن تشد إليها قلوب التقدميين الأحرار أينما كانوا, وتجعلهم يحبونها ويحبّون الإسلام الذي هو منها. إذ لا حبّ للعرب ومعه نفرة من الإسلام, كما لا إخلاص في الإسلام مع التآمر على العرب » [٢١], بل « ليس مضمون الإسلامية الجماهيرية من حيث الجوهر إلاّ نفس مضمون حركة التحرّر العربيّ » [٢٢].

ففي نظر المسلمين إذن كل حركات التقدّم والتحرّر والثورة, في العالم, هي من بركات الإسلام. وكان للإسلام هذه البركات لكونه ينتمي إلى الله عضوياً. وكان الله « أكبر » لأنه عرف اختيار أمّة تستحقّ كل خير وبركة, وهي الأمة العربيّة. لقد استحقت العروبة أن تستوعب كل تقدمية وتحرّر, لأنها استوعبت الإسلام, ولأنها تحمل في قلبها « كبر » الله وعظمة السماء بكل ما فيها.

---

(١٩) منح الصلح, المرجع نفسه, ص ٤٢.
(٢٠) منح الصلح, المرجع نفسه, ص ٤٣.
(٢١) منح الصلح, المرجع السابق, ص ٤٣.
(٢٢) منح الصلح, المرجع نفسه, ص ٦٥.

إنّ الشعوب المتخلفة تسعى إلى التطوّر والتحرّر كما تسعى إلى الحياة, لأنّها تشعر بحاجة ملحة إليهما, وتحسّ بالنقص في كيانها, لذلك هي تسعى, وتناضل, وتكافح, وتثور, وتغيّر دساتير وأنظمة, وتطلب « العلم ولو في الصين »، وتجاهد جهادا ًمراً مستميتاً... هذا شأن كل شعب متخلف يريد النمو والرقيّ. غير أن الأمة العربيّة ليس هو شأنها. إنّها تناضل لأجل الكمال, لا لأجل التخلص من التخلف. تجاهد لأجل الإسلام, لا لأجل أية قيمة كانت. تثور من أجل الكرامة, لا من أجل توسّع جغرافي أو إنماء اقتصادي, أو غير ذلك... بهذا « تبدو أمّتنا (العربية) شعب الإسلام المتميّز بين كل الشعوب التي شرّفت بالتديّن بهذا الدين » [٢٣].

يبدو من العلاقة العضوية الحاصلة فيما بين العروبة والإسلام أنّ التقدمية شأن الاثنين معاً. كلاهما يدعو إليها. وكلاهما بها ملتزم. يرقى الإسلام فترقى به العروبة, وترقى العروبة فيرقى بها الإسلام. هذا موقف المسلمين والعروبيين سواء. وهم على خطى الرسول سائرون, وبقوله يأخذون, وهو القائل: « إذا عزّ العرب عزّ الإسلام. وإذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام ». هذا دليل على ضرورة وجود العروبة وأهمّيتها القصوى لأجل خير العالم الحرّ وصلاحه. لكأنّ العرب هم ضمير العالم ومنارته. فهم « خير أمّة أخرجت للناس ». هم « أمة واحدة » « أمة مسلمة ».

---

(٢٣) د. محمد عمارة, الإسلام والعروبة والعلمانية, ص ٩.

ثالثاً: اللغَة هيَ العروبَة في الإسْلام

« إن العروبة في الإسلام تعني اللغة » [١]. لذلك « إنّ الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته, ستتكلم بلسان الإسلام, وهو لسان العرب, فينمو عدد الأمّة العربيّة بنمو عدد من يتكلمون لغتها, ويهتدون مثلها بهدي الإسلام » [٢]. معنى ذلك إنّ اللغة العربيّة مرشحة هي الأخرى لأن تكون لغة أبناء الأرض. ولا مندوحة في الأمر, فالنبيّ تحدث بذلك وقال: « ليست العربيّة بأحدكم من أب ولا أم, وإنّما هي اللسان. فمن تكلّم العربيّة فهو عربيّ » [٣]. وفي رواية لابن كثير عن معاذ بن جبل عن الرسول قال: « إلاّ أنّ العربية اللسان. إلاّ أنّ العربية اللسان ».

إنّ اللغة العربيّة هي « إحدى المقوّمات الأساسيّة للقوميّة العربية » [٤], أي أنّها « صارت أسّاً للهويّة العربية. فالناس عرب أو عجم بلغتهم » [٥]. واستفاض الباحثون في هذه النقطة للقول بوحدة القوميّة العربيّة بسبب وحدة اللغة. وقد عبّر ساطع الحصري, المناضل العروبي الكبير, وصاحب المؤلفات العديدة في القوميّة العربيّة, بقوله: « لقد أثبتت الأبحاث العلمية والأحداث السياسية أنّ أهم عناصر القوميّة ودوافعها هي: اللغة والتاريخ.. فقد آن الأوان ليدرك الناطقون بالضاد أنهم

---

(١) حسن حنفي, في « القوميّة العربيّة والإسلام »، ص ٤٢٥.
(٢) ابن باديس, آثاره, تصنيف وإعداد عمّار الطالبي, ١٩/٤.
(٣) تهذيب ابن عساكر, طبعة دمشق ١٩٨/٢.
(٤) د. زبادية, في « القوميّة العربيّة والإسلام »، ص ١١٥.
(٥) د. عبد العزيز الدوري, الإسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب في « القوميّة العربيّة والإسلام »، ص ٦٥.

أبناء أمة واحدة » [٦].وفي مكان آخر يقول: « أنّ أسَّ الأساس في تكوين الأمّة وبناء القومية هو وحدة اللغة ووحدة التاريخ.. ولكن لا وحدة الدين ولا وحدة الدولة ولا وحدة الحياة الاقتصادية تدخل بين مقوّمات الأمّة الأساسية » [٧]. وعبّر جمال الدين الأفغاني (١٨٩٧) مؤسس تيّار الجامعة الإسلاميّة عن أهميّة اللغة في نشوء الأمّة وقال: « إنّه لا سبيل إلى تمييز أمّة عن أخرى إلا بلغتها. والأمة العربيّة هي «عرب » قبل كل دين ومذهب. وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان » [٨].

فاللغة العربية هي وعاء الحضارة, ومظهر الوحدة النفسيّة, وقبلة الفخر والولاء, ثم هي الرباط الذي يشدّ الوحدة القومية ويدعمها, وييسّر هذه الوحدة في حال التمزّق والتجزئة.. ويكفي أنّه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات » [٩]. ويردّ الأفغاني على من يقول بأنّ القومية عرق ونسب, « إنّ كل الذين تعرّبوا وأصبحت العربية لغتهم, والولاء لحضارتها موقفهم, هم عرب, بصرف النظر عن الأصول العرقيّة لأسلافهم والمواريث الحضاريّة لأجدادهم » [١٠].

وبسبب الرباط المتين بين اللغة والقومية من جهة, وبين اللغة والإسلام من جهة ثانية, قامت قيامة المسلمين على كل من يمسّ قدسيّة اللغة العربيّة. فهو لا يطعن بالعروبة ولغتها وحسب, بل يطعن مباشرة بالقرآن والإسلام نفسيهما. ذلك لأنّ اللغة العربيّة هي لغة الإسلام, بها كانت معجزته الإلهيّة, وبها تكلّم خاتم النبيين, بل

---

(٦) ساطع الحصري, دفاع عن العروبة, دار العلم للملايين, بيروت.
(٧) ساطع الحصري, أبحاث مختارة في القوميّة العربيّة ١٩٢٣ ــ ١٩٦٣, القاهرة، دار المعارف بمصر, ١٩٦٤, ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
(٨) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني, دراسة وتحقيق محمّد عمارة, القاهرة, طبعة أولى, سنة ١٩٦٨, ص ٢٣٧.
(٩) المرجع نفسه, ص ٢٢١.
(١٠) المرجع نفسه, ص ٢٠٩.

إنّ كلام العرب لا يحيط به إلاّ نبيّ » (١١). ومتى انحطّت اللغة العربية عن مستواها, نال الإسلام والقرآن من هذا الانحطاط. ولا يستطيع القيّمون على العروبة جهل هذا الرباط. جاء في بيان الأزهر في ١٩٧٤/٥/١٦ ما يلي: «.. وبذلك نجد أنّنا, وجهاً لوجه, أمام مشروع إحلال العاميّة محلّ الفصحى, وهو مشروع قديم, روّج له أعداء العروبة والعرب, وخصوم الإسلام, منذ أمد طويل.. » (١٢).

وهكذا, وبكل وضوح, يوازي المسلمون, في اللغة, بين أمرين: بين واجب الحفاظ على قدسيّتها, وواجب تطوّرها. والأمران لا يكونان معاً. لذلك يعتبرون أولئك القائمين بمشروع إحلال العاميّة محلّ الفصحى « أعداء العروبة والعرب وخصوم الإسلام ». وهذا شأن منطقي بالنسبة إلى المسلمين, لا يمكن المساس به. بل القول بـ« تطوّر اللغة » هو قول مهووسين لا يعرفون أن اللغة « قد قامت عند العرب مقام الولادة والأرحام الماسّة » (١٣), تماماً كما الإسلام حلّ محلّ النسب والعرق, وأولد الناس ولادة جديدة, وأصبح الناس جميعاً, بدخولهم في الإسلام, عرباً. هكذا تبدو العروبة غير مؤسّسة على النسب والعرق, بل على « جعل اللغة والتعرّب والولاء للجماعة الجديدة, أي الإسلام, رباطاً هو والرباط العرقي والنسبي سواء بسواء » (١٤).

فإذا كانت اللغة حاملة لواء الإسلام فهي إذن عنوان الولاء للإسلام. ولا ولاء للإسلام إلاّ بحمل لواء اللغة العربيّة, وبالتالي حمل لواء العروبة. فمن كان مسلماً كان عربياً لا محالة, ومن كان عربياً وجب أن يكون مسلماً, لأنه, بمعرفته العربيّة,

---

(١١) السيوطي, المزهر, ٦٤/١, الصاحبي ٤٧.
(١٢) انظر بيان الأزهر في: زكي النقاش, دور العروبة في تراثنا اللبناني, ص ١٥٧. وانظر أيضاً في الكتاب نفسه, قيامة الدكتور زكي على الرئيس شارل حلو لأنه يتكلم الفرنسية, ويمثّل الناطقين جزئياً بالفرنسية, ص ١٤٥.
(١٣) رسائل الجاحظ, تحقيق عبد السلام هارون, القاهرة ١٩٦٤, ٢٩/١.
(١٤) د. محمد عمّارة, الإسلام والعروبة والعلمانية, ص ١٥.

حصل على أقدس ما في الإسلام, أي حصل على « كلام الله »، وعلى لسان الإسلام, وعلى لغة أهل الجنّة.. ففي كل عربيّ ينام مسلم, وتحت كل لسان عربي يسيل لعاب مسلم. وإذا كان كل لسان بإنسان, واللسان العربي هو لسان الإسلام, فكل عربي هو إنسان مسلم, لا محالة.

إنّ قدسية اللغة العربية تفوق كل تطوّر مزعوم. وهل من غاية لكل تطوّر غير بلوغ الكمال ؟! وهل هناك أكمل من كلام الله ! « فالإسلام أضفى على اللغة العربية قداسةً جعلت الحفاظ عليها ديناً, وضَبطَ قواعدها عبادةً » [١٥]. أضف إلى ذلك أن كلّ تطوّر يعني افتراضَ نقصٍ حاصلٍ في الشيء المطلوب تطويره, ولكنّ نقصاً واحداً لا يمكن أن يكون في كلام الله.. وكم هي غنية عن التطوّر تلك التي تحمل كمالَ الله وكلاَمه. ولو كان المسلمون أكثرَ أمانة للإسلام ولكلام الله لاستغنوا, ليس فقط, عن النظر في تطويرِ اللغة العربية, بل وأيضاً, عن أية لغة غير لغتهم. وهذا منطق.

فنظرية تعريب العلوم هي نظرية إسلاميّة منطقية للغاية. ومن المفروض أن يقف المسلم ضدّ كل تيار يحاول إفساد قدسيّة اللغة. لذلك « فأي قرآنٍ يترجم إلى لسانٍ آخر فهو قرآنٌ على المجاز, لا على الحقيقة, إذ هو تفسير أجنبيٌّ للوحي العربي, أو نقلٌ لما تيسر من معاني القرآن إلى اللغات الأخرى.. أمّا القرآن نفسه.. فإن الأسلوب العربي بخصائصه الثابتة جزءٌ لا ينفصم عن جوهره » [١٦]. وكلما اقترب العربي من لغة القرآن في فصاحتها وبلاغتها ومعانيها وصيغتها وإيجازها واعجازها, كان عالماً عارفاً بكل أمر. والمسلم الحقيقي هو من يتقنُ لغة العرب. وكلّما اقترب منها اقتربَ من كمال الإسلام.

---

(١٥) محمّد الغزالي, حقيقة القوميّة العربيّة, ص ٨٨.
(١٦) المرجع نفسه, ص ٢٠.

اللغة العربية هي إذن لغة دينية. وهي أسمى من اللغة التـي يُقصد منها التفاهم فحسب. ليس المهمّ أن تفهم ما يقوله المسلم بلغته, بل الأهم أن تشعر شعوره من خلال ما يقول. والأهم أن تعتبر نفسك مصلياً وأنت تجيد لغة الإسلام. فالعربيّة تحمل تاريخاً إلهياً ومعاني قدسية, قد لا يدركها غيرُ المسلم. فيها زخم من الله لا يحوطه عقلُ إنسانٍ غيرِ مسلم. إنّها لغةُ الإسلام, وسندُ الإسلام, والولاءُ لها كما للإسلام. إنّها تقرّر هويّةَ الانتماء إلَى العروبة والإسلام معاً. بل هي في أساسِ العروبة, ومن مقوّماتِ القوميّة العربيّة. إنّها الرباط المتين بين الإسلام والعروبة. فـ« الإسلام بغير العربيّة يستعجم ويضمحل. والعربيّة بغير الإسلام تنكمشُ وتزول » [١٧]. و« القرآن لا يسمّى قرآناً إلاّ فيها, والصلاةُ لا تكون صلاةً إلاّ بها » [١٨]. لهذا فهي « أجدر بالحضارة وأحق بالخلود من غيرها » [١٩].

---

(١٧) المرجع نفسه, ص ٢٢.
(١٨) المرجع نفسه, ص ٢١, نقلاً عن الزيّات.
(١٩) المرجع نفسه, ص ٨٧.

رابعاً: العروبَة وَطن الإسْلام

« الأمّة العربيّة. إنّها المدينة الإسلامية » [١]. بهذا يُفهم أن الإسلام أمّة واحدة لا تحدّها حدودٌ عنصرية أو جغرافية. و« الدولة الإسلاميّة لم تكن, أساساً, إقليماً وإرادةً, وإنما هي جماعة وترابط بين عناصر تلك الجماعة من خلال وعي معيّن, الأمر الذي يخلق استمراريّة الالتزام الديني. مفهوم الأمّة, بهذا المعنى, كمفهوم إسلامي, إنّما يقوم على أساس.. أنّ العلاقة المتعلقة باستمرارية الولاء والترابط تقوم على العنصر الديني, وليس على الأساس الدموي أو الإقليمي.. الارتباط الحقيقي ينبع من العلاقة الدينية.. أنّ غير المسلم لا موضع له في التعامل السياسي أو في الوجود السياسي كحقيقة كليّة. إن العالم الإسلاميّ يقبلُ الأقلياتِ ويحترمها ويقدّس حقوقها, ولكن كجماعاتٍ طائفيةٍ اجتماعيةٍ وكأفرادٍ, وليس ككياناتٍ سياسيّة » [٢].

من هذا المفهوم الحقيقي للإسلام يتّضح لنا أنّ وطن المسلم هو الأمّة المسلمة أينما كانت وإلى أيّ عصر أو عرقٍ أو أرضٍ انتمت, ووطن العربي هو الإسلام, بمعنى أنّه لا يمكن أن يكون عربيّ خارج الإسلام. وبعض المسيحيين الناطقين بالعربية أدركوا ذلك, وناضلوا في سبيل الإسلام, لاقتناعهم بانتمائهم الوطني إليه. قال سلامة موسى المفكّر المصري المسيحي: « إنّني أدافعُ عن الإسلام لأنّه دينُ وطني » [٣], وقال مكرم عُبيد, أمين السرّ العام لحزبِ الوفد بين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩, والوزيرُ المصري المسيحي: « أنّني مسيحيّ ديناً, مسلمٌ

---

(١) د. حامد عبد الله ربيع, في « شؤون عربيّة »، عدد ٣ أيار ١٩٨١, ص ٤٥.
(٢) المرجع نفسه, ص ٤٦.
(٣) انظر قوله في: « الإسلام والعروبة » لمحمد عمارة, ص ١٣٣ مع الحاشية.

وطناً » [٤], وقال أيضاً: إنّ جماعة الأقباط هي « قبطية بالمولد, إسلاميّة بالحضارة » [٥]. وقد كان « أوّل من دعا إلى عروبة مصر » [٦].

إذا كان بعض المسيحيين أدركوا مدى ارتباط الوطن العربي بالإسلام, فالمسلمون كانوا أشد إدراكاً وأكثر وضوحاً وصراحة. فعبد الرحمن عزّام أكدّ: بأنّ « الإسلام وطن المسلم. ووطن المسلم ليست له حدود جغرافيّة, فهو يمتدّ إلى حيث تمتدّ عقيدته الدينيّة » [٧]. هذا يعني أنّ الوطن يقوم على أساس الدين, لأنّ « العالم الإسلامي عالم فكرةٍ, لا عالمُ حدود » [٨], و « المسلم أينما كان هو مواطن. جنسيته عقيدته. والأرض في نظره قسمان: قسم هو دار للإسلام, وهي داره ولو كان خارجاً عنها بعيداً منها؛ وقسم هو دارٌ للكفرِ وهو ليس منها ولو كان مقيماً في ربوعها » [٩].

الإسلام إذن, مرة أخرى, هو « الأمّة ». والأمّة في الإسلام لا تقوم على حدود فَرَضَتْها تضاريسُ البحار أو أنهارٌ في ودايا أو جبالٌ وسطَ السهوب... بل تقوم على العقيدة الدينية. « الأمّة جماعة من الناس تعيش بعقيدة واحدة, وتتبنّى نظاماً ينبع من تلك العقيدة, وذلك مهما اختلفت أجناس أتباعها وألوانهم.. لأن العقيدة هي العامل الأول في تكوين الأمّة » [١٠]. والمسلمون « أمّة واحدة, أينما كانت

---

(٤) استشهد بقوله « كولومب » المؤرخ الفرنسي. انظر محمود كامل, « الإسلام والعروبة ». ص ١٣٣ مع الحاشية.
(٥) انظر: د. أنور عبد الملك. في « القوميّة العربيّة والإسلام », ص ٥٧٤.
(٦) المرجع نفسه, ص ٥٧٤.
(٧) عبد الرحمن عزام. الرسالة الخالدة. القاهرة ١٩٤٦, استشهد به زين زين في كتابه « العلاقات التركية العربية..» بالإنكليزية, انظر م. كامل, ص ٤٢.
(٨) محمود شاكر. سكان العالم الإسلامي, ص ٧.
(٩) المرجع نفسه, ص ٨.
(١٠) المرجع نفسه, ص ٩.

أرضهم, ومهما نأتْ ديارهم, وابتعدت أمصارهم, لأنهم يشتركون بعقيدةٍ واحدة » [١١] هي الإسلام.

و« أصل الأمّة, عند الطبري, الجماعة تجتمع على دين واحد » [١٢], أو هي « الجماعة المتفقة على دين واحد » [١٣]. ويعلّق الدكتور ناصيف نصّار على الطبري بقوله: إنّ الطبري « يكتفي بالخبر عن الأمّة من الخبر عن الدين لدلالتها عليه » [١٤]. وفي رأيه, هذا المعنى هو المقصود بكلمة « أمّة » في بعض آيات القرآن[١٥]. بل قد تكون معظم آيات القرآن بهذا المعنى. ولكن, لئلا يضيع المسلمون بين الأمم, اشترطوا للأمّة الإسلامية مفهوماً يتعدّى مفاهيمنا المألوفة. فهي لا تعني وطناً, أو دولةً, أو مملكة, أو أرضاً, أو عنصريّة, أو عرقاً, أو نسباً, أو عرفاً, أو تقليداً, أو حدوداً جغرافية فرضتها الطبيعة أو السياسة الدولية. أنّها تعني أولاً وآخراً: الإسلام. ولكنّ الإسلام اعتمد على العروبة, وكان العربُ مادته, واللغةُ العربية لسانَه, والبلادُ العربية منطلقه. وبالعرب كان له « الفتح » و« النصر » و« الجهاد ». فليس من المستبعد قط أن تكون الأمّة الإسلاميّة على مثال الأمّة العربية. بل الوطن الإسلامي هو نفسه الوطن العربي. والوطن العربي هو قاعدة الوطن الإسلامي. بل هو إيّاه.

ولحجة أكبر نستمع إلى جهابذة الفكر في الإسلام ليؤكدوا لنا بأنّه « أصبح عربياً كل من اعتنق الإسلام, وتحدّث بالعربيّة, دون نظر إلى انتمائه العرقي » [١٦]. وعلى

---

(١١) المرجع نفسه, وأعاد تأكيده بقوله: « الأمّة هي جماعة من البشر تعيش بعقيدة واحدة ». انظر: صفحة ٦٧. وهو قول سائر عند جميع المسلمين..
(١٢) الطبري, جامع البيان, تفسير سورة ٢١٣/٢.
(١٣) ورد قوله في « مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ » للدكتور ن. نصار, ص ١٨.
(١٤) المرجع نفسه, وتفسير الطبري لسورة ٢١٣/٢.
(١٥) انظر سورة الأعراف ٣٤/٧, الأنعام ١٠٨/٦, الحج ٣٤/٢٢.
(١٦) الدكتور محمد كامل, الإسلام والعروبة, ص ١٠٧.

اللبنـانيين المسيحيين أن يدركوا في النهاية بوجود « دور فعال يلعبه الإسلام في الدفاع عن عروبة لبنان ووحدته الوطنية ومكانته » (١٧). وأعظم من ذلك قول الدكتور ناجي معروف: إنّ « العربي, إذا تطرّف في عروبته, كان أقرب إلى الإسلام. والمسلم, إذا تطرّف في إسلامه, كان أقرب إلى العروبة, بل كان عربيّاً » (١٨). وعنده أيضاً: « إنّ كل من يسعى لرفع راية الإسلام يُسمّى عربيّاً. وإنّ كل من يعتزّ برسالة محمّد والدين الإسلامي الحنيف ويسعى لنشر الإسلام يسمّى عربيّاً » (١٩).

إنّ العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام تجرّ حتماً إلى القول بأن العروبة هي وطن المسلم. وإنّ الإسلام هو وطن العربي, سواء بسواء. ويوم لم يكن التطرّف فضيلة من الفضائل, فإنّه هنا أعظم الفضائل. أي لا يكون مسلم حقيقي إن لم يكن مبالغاً في حبه للعرب, ولا يكون عربيّ حقيقي إن لم يغل في حبّه للإسلام. ومعطيات نشوء الدول تقف عند حدّها عندما تواجه حقيقة العلاقة التكوينية بين العروبة والإسلام. ولئن نعم المسيحيون, مثلاً, بالاحتفاظ بدينهم في دولة الإسلام ومدنيتَه، فإنهم بالانعام نفسه يفتخرون بانتمائهم إلى العروبة. بهذا, هم يعيشون في « ذمّة الإسلام, ولكنّهم يدركون أنّه « ما كان يمكن (للمسيحي) أن يكتمل ويشتدّ عوده لو لم يرتبط ويتفاعل بالتقاليد العربيّة الإسلاميّة. وأحد عناصر هذه التقاليد هو مفهوم الحماية السياسية للأقليات » (٢٠). فعيش المسيحيين في « ذمة المسلمين » نعمةٌ لهم يفتخرون بها.

* * *

---

(١٧) منح الصلح, الإسلام وحركة التحرر العربي, ص ٥٩.
(١٨) د. ناجي معروف, أصالة الحضارة العربية, ص ٨.
(١٩) المرجع نفسه, ص ٢٣.
(٢٠) د. حامد عبد الله ربيع, الظاهرة الإنمائية والتطور الوحدوي: حول بناء نظام إسلامي عربي جديد, شؤون عربية, عدد ٣ أيار ١٩٨١, ص ٤٤.

نستنتج بحقّ أن المدى الذي يعمل فيه كلّ من العروبة والإسلام هو العالم كلّه. ولن يهدأ للإسلام روع إلاّ عندما يغزو العالمَ بأسره. ولن تؤدي العروبةُ رسالتها التي أنيطت بها إلاّ يومَ يتوحّدُ العالمُ كلّه تحت أكنافها. وما « الوحدة العربيّة » المنشودة أبداً إلاّ بواكير « وحدة العالم في ظلّ العروبة ». وما « الجامعة العربيّة » و « الجامعة الإسلاميّة » اللتان تسعيان لضم دولة بعد دولة من دول العالم إلاّ ابتغاء ابتلاع « الأمم المتحدة » وجمعيتها في تجمّع عالم عربي إسلامي واحد.

خامساً: الوحْدَة العربيَّة مرتجى المسْلمين

سعي « العرب »، وهمهم الأكبر, وهدفهم الأخير, وحلمهم المدغدغ, ومثالهم الأعلى, أينما كانوا, وكيفما كانوا, وحيثما كانوا, هو الوحدة, « الوحدة العربيّة تحت شكل دولة عربيّة واحدة هي المثل الأعلى للأمّة العربيّة » [١].

هذه الوحدة, إن لم تكن اليوم, فستكون بنظرهم غداً أو بعد غد. لأنّ مقوّماتها وعناصرها موجودة وما تزال. ولقد « اتفق كثير من العلماء على أهميّتها كمقوّمات للقوميّة. وهي: اللغة, الوحدة التاريخية, وحدة الجنس, الوحدة الجغرافية, التكامل الاقتصادي » [٢].

وهناك أيضاً مقوّمات أخرى يجب ألاّ تغيب عن البال, اختصرها علي ناصر الدين بقوله: « للعروبة تقاليد وعادات واحدة, مثل قضيّة الضيافة, وقضيّة العرض, الذي يقدّسونه جميعاً, وقضيّة تفاخرهم بالشجاعة والعفّة والكرم والنجدة وحماية الجار والوفاء.. وقضيّة أخذهم بمشيئة كبرائهم.. والإحساس الوجداني الأصيل » [٣].

هذه كلها بالنسبة إليهم تؤلف عادات واحدة في مصر والسودان والجزيرة العربية والمشرق والمغرب في موريتانيا واريتريا والصومال, وفي كل مكان من « العالم

---

(١) محمود كامل, الإسلام والعروبة, ص ٣٣.
(٢) د. محمد مصطفى زيدان, القومية العربية بين التحدي والاستجابة, ص ٢٦.
(٣) علي ناصر الدين, قضية العرب, ص ٣٨.

العربي ». وبسببها أعلن المفتي حسن خالد للموفد الأميركي دين براون في ١٩٧٦/٤/٣: « إنّنا « ننظر إلى البلاد العربيّة من المحيط إلى الخليج على أنّها بلد واحد » (٤).

والحقيقة, كما يقول سلّوم سركيس, « إذا كان للوحدة أن تقوم فلن تقوم وتبقى وتعمل إلاّ لأنّ الشعوب العربيّة ما زالت أصيلة. أعني: ما زالت تنظر إلى نفسها وإلى الوجود نظرة خاصّة تميّزها عن عالم الانعزاليين » (٥). وهذه « النظرة الخاصّة » تقضي بـ« أن لا صمود, ولا إنجاز للعروبة, ما لم تهتدي إلى ذاتها, وأن لا هداية إلى الذات العربيّة إلاّ بالوحدة العربيّة » (٦).

أمّا « الانعزالية, (فهي) لدى القريب أو الغريب, كل موقف حذر, أو مشكك, أو معاد, تجاه العمل على انصهار المجتمع العربي في وحدة وثيقة, وامكان مثل هذا الانصهار وضرورته » (٧). والانعزالي هو كل عربي مسلم لا يحقّق في نفسه حلم الوحدة. ومن لا يسعى إلى تحقيق ذلك فهو عدوّ الأمّة العربيّة لا محالة. وقد يكون الانعزالي أخطر على الوحدة من الغريب, لأنّه عدوّ داخلي.

والوحدة العربيّة ليست « تجمعاً » سياسياً أو اقتصادياً, أو سوقاً مشتركة, أو مجموعة دول تبقى كل واحدة منها على سيادتها واستقلالها, أو دولاً لا يربط بعضها ببعض إلاّ الرغبة في ذلك.. بل الوحدة هي في جميع مقوّماتها تربط العرب رباط مصير, وهدفها انشاء « وطن عربي كبير ». فـ« هذه الأقطار من المحيط الأطلسي إلى

---

(٤) انظر: المسلمون في لبنان والحرب الأهلية, قمّة عرمون, ص ٢٤٦.
(٥) سلوم سركيس, العروبة بين الانعزالية والوحدة, ص ١١١.
(٦) المرجع نفسه, ص ١٣.
(٧) المرجع نفسه, ص ٨.

الخليج العربي إنّما تدعى بحقّ الوطن العربي وليس العالم العربي » [٨]. و في الوطن الواحد, كما هو معروف, وحدة أرض, ومصير, ودين, وتقاليد, ولغة, وجنسيّة, وهويّة, ومصالح مشتركة » [٩].

هذا الحلم حقّق, في أواخر القرن الحالي, مراراً, وانفرط مراراً. وما يزال يتحقّق وينفرط. ولن يهدأ روع العرب إلاّ عندما ينصهرون في وحدة متكاملة في وطن واحد. والداعي إلى هذا الانصهار هو ما جمّل الله به الأمّة العربيّة من مكان فريد وحيد بين أمم الأرض. لهذا « يحتل الجنس العربي مكاناً فريداً بين الأجناس البشرية القائدة الهادية ذات الحيوية العظيمة. ولقد اختصّه الله برسالته الداعية إليه المرشدة إلى الحق والخير وصلاح الإنسانية... ولقد ازدهرت حضارته وثقافته فشعّت على الكون, وأمدّت البشرية بنورها الوهّاج. وما تزال » [١٠].

منذ أن اشتدّت علّة « الرجل المريض » شهدت المنطقة العربية « نشاطاً جماهيرياً ملحوظاً يدعو للوحدة العربية » [١١]. وكلما ازداد مرض الدولة العثمانية كان شعور العرب بالوحدة يشتد. فنشأت, منذ أوائل القرن العشرين, جمعيّات ورابطات وأحزاب, وعقدت مؤتمرات ونواد, تدعو إلى توحيد الصفوف العربية وتعمل لوحدتهم.

ففي سنة ١٩٠٤ أسس نجيب عازوري « عصبة الوطن العربي ». ووضع سنة ١٩٠٥ كتاباً بعنوان « يقظة الأمّة العربية ». وفي سنة ١٩٠٦ أسس مجلة لم تعمّر طويلاً

---

(٨) علي ناصر الدين, قضية العرب, ص ٩٩, حاشية ١.
(٩) من القائلين بأن اللغة وحدها تكفي لأن تصنع الوحدة بين العرب. أو هي تكون « أول المعالم على طريق الوحدة الكبرى »، ع. دمشقية, شؤون عربية, عدد ٧.
(١٠) محمد عزة دروزة, تاريخ الجنس العربي, ٥/١.
(١١) ساطع الحصري, أبحاث مختارة في القومية العربية, ص ١٣٦.

باسم « الاستقلال العربي ». وفي سنة ١٩٠٨ تأسست « جمعية الإخاء العربي العثماني » ورمت إلى المساواة بين العرب والأتراك. وفي سنة ١٩٠٩ نشأت « جمعية المنتدى العربي ». وفي السنة نفسها ظهرت « الجمعية القحطانية ». وسنة ١٩١١ تأسست « الجمعية العربية الفتاة » بباريس, ثم نقلت مركزها إلى بيروت ثم دمشق. وسنة ١٩١٢ نشأ « حزب اللامركزية الإدارية العثمانية » الذي رعى « المؤتمر العربي الأول » بباريس بين ١٨ و٢٣ حزيران من سنة ١٩١٣. وفي هذه السنة أيضاً قامت « جمعيّة الإصلاح ». وفي السنة التالية نشأت « جمعية العهد »، ثم « الجمعيّة الثورية ». وفي سنة ١٩٢١ تأسست « الرابطة الشرقية ». وفي ٢٥ آذار سنة ١٩٢٥, عقد اجتماع ضمّ عدداً من العلماء برئاسة شيخ الجامع الأزهر, وتقرّر فيه ضم دعوة مؤتمر إسلامي للنظر فيمن يتولّى الخلافة.

وارتاح الوحدويون فترة ليعودوا « مع تطور القضية الفلسطينية منذ عام ١٩٣٦» إلى المؤتمرات ونوادي الكلمة. فكان « المؤتمر الطلابي العربي الأول عام ١٩٣٦, ثمّ المؤتمر البرلماني الأوّل عام ١٩٣٧ في سوريا, ثم المؤتمر النسائي الأول في ٣٨ في القاهرة, كما تكوّن في القاهرة في ٢٥ مايو ١٩٤٢ نادي الاتحاد العربي الذي دعا إليه فؤاد أباظه باشا[١٢] ويقوم على ايجاد اتحاد شعبي بين الأقطار التي تتكلم العربية, وهي مصر والسودان والجزيرة العربية والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق والإردن وشمال أفريقيا, مع ترك البحث في الخلافة الإسلاميّة التي كانت سبباً في توتّر العلاقات بين الأسر الحاكمة في السعودية ومصر.. » [١٣]. وفي ٢٥ مايو من عام ١٩٤٢ قامت « جمعية الاتحاد العربي »، وفي العام ١٩٤٥ تأسست « جامعة الدول العربية ».

---

(١٢) فؤاد أباظة, الاتحاد العربي, الكتاب الثاني, شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده, القاهرة, سنة ١٩٥٠, ص ٦ ـ ٨.

(١٣) د. عبد الحميد الموافي, تأسيس جامعة الدول العربية, في شؤون عربية عدد ١.

إلاّ أنّ « جامعة الدول العربيّة » لم تفِ بالمراد, إذ اعتمدت, لأجل الوحدة, أساليب ديمقراطية تمثيلية. ولم تستطع القيام بأي عمل يهدف إلى توحيد الصفوف العربية. فلا السوق العربية المشتركة, ولا البنك العربي, ولا خطّة الدفاع المشترك.. تخطّت ملفات خزائن أمانة سرّ الجامعة.. فدفعاً للوحدة إلى الأمام, قامت أحزاب سياسية عقائدية تبشّر بالضرورة الماسّة للوحدة العربية. فكان مثلاً حزب البعث العربي « الذي جعل السلطة أداة في خدمة النضال لتحقيق بناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحّد » [١٤], ثم حزب « القوميّة العربيّة »، ثم « الديمقراطيون العرب »، و « العلمانيون العرب »، و « الناصريون ».. وغيرهم.

ثم قامت أحزاب لا تؤمن بوحدة الشعوب العربيّة برمّتها, فاقتطعت لها من « الوطن العربي الكبير » جزءاً لها, وهي تؤمن بوجود « قوميّات » متعددة ضمن العروبة الشاملة. فكان من هذه الأحزاب مثلاً « الحزب السوري القومي » الذي دعا إلى وحدة الهلال الخصيب. و « الوحدة الأفرو أسيوية » التي أسست في مؤتمر باندونبج بين ١٨ و ٢٤ أيلول سنة ١٩٥٥. وغيرهما...

إنّ « فكرة الوحدة العربية تجسّمت في الجامعة العربية... كما تجسّمت في محاولات إقامة وحدات عربيّة مثل الجمهورية العربية المتحدة التي وحدّت بين مصر وسوريا في عام ١٩٥٨, والاتحاد الفيدرالي بين مصر وسوريا والعراق في عام ١٩٦٣, والاتحاد الفيدرالي بين مصر وسوريا وليبيا والسودان في عام ١٩٧٠. وفشل هذه المحاولات لا يغيّر من تطلّع الشعوب العربية نحو الوحدة » [١٥].

وبالفعل تطلع علينا الأمّة العربية في كل عام بمشاريع وحدوية لا حصر لها. فكم

---

(١٤) الأحكام الدستورية للبلاد العربية, مقدمة الدستور السوري, ص ١٤٠.
(١٥) د. محمود كامل, الإسلام والعروبة, ص ٣٢.

حاولت سوريا أن تؤلف بينها وبين ليبيا وبينها وبين العراق طوراً, وبينها وبين الأردن أخرى, ثم مع مصر, والسودان.. وكم حاولت ليبيا بدورها الاتحاد مع تونس تارة, ومع الجزائر طوراً, ومع مصر والسودان.. وكم حاول الجميع اغتصاب لبنان ليقيم الوحدة مع مصر تارة ومع سوريا طوراً, ومع الاثنين معاً.. وكذلك قل عن اليمن ودول المغرب والخليج وغيرها... واليوم تعمل جامعة الدول العربية « بجدية مسألة تعديل الميثاق لكي ينصّ فيه على أنّ الوحدة هدف عمل الجامعة. مثل هذا النص الذي لم يقرّ نهائياً مع غيره من النصوص الجديدة » [١٦].

إنّ دوافع الوحدة مجذّرة في تاريخ العرب. لكأنّهم يبغون التعويض عن تاريخ اشتهروا فيه بتفسّخهم وتشتّتهم, يوم كانوا قبائل وعشائر وبطوناً وفخوذاً وعصبيّات. وكأنّهم يبحثون عن هويّتهم الضائعة أبداً ليثبّتوها بوحدتهم. ورغم عاملي اللغة والدين, نرى الوحدة تنفر من العرب نفورها من تحكّم العرب بها. لكنّهم يتّهمون الاستعمار بهدم وحدتهم, إلاّ أنّها تهمة من قبيل رفع المسؤولية عن الضمير.

---

(١٦) د. جورج جبّور, خواطر محددة حول مستقبل الوحدة العربية, مجلة « شؤون عربية »، عدد ٥ تموز سنة ١٩٨١, ص ٤١ ـ ٤٢.

سادساً: دَسَاتير الدوَل العَربيَّة

لم تبق فكرة الوحدة العربيّة وقفاً على دعاة ومؤتمرات ومنظّرين, بل دخلت في صلب النصوص الدستورية للبلاد العربية. لقد دخلت العروبة على أسماء هذه الدول, وأصبحت كل دولة تعرّف بها, وتتّصف. واعتلت على البيارق والأعلام, وبتنا لا نعرف إلاّ جمهورية مصر العربية, والجمهورية العربية السورية, والمملكة العربية السعودية, والجمهورية العربية اليمنية, والإمارات العربية.. وغيرها. وبات الاقتصاد اقتصاداً عربياً, والنفط نفطاً عربياً, والجيوش جيوشاً عربية, والأرض أرضاً عربية, والإذاعات إذاعات عربية.. وهكذا.

والذين تتبّعوا أسباب الحروب اللبنانية منذ الاستقلال حتى اليوم, وبخاصّة حرب سنة ١٩٧٥ المستمرّة, يعرفون جيّداً الصراع الحاصل بين المسلمين والمسيحيين على هوية لبنان العربية. فالمفتي حسن خالد يطاب بتعديل الدستور « بحيث يحرص على ذكر أن لبنان جزء من الأمّة العربية » [١]. ويعني بذلك لا إلغاء الاستقلال والسيادة, بل نصّر على سيادة لبنان العربي.. فأنا وغبطة البطريرك الماروني نتكلّم العربيّة, ولنا تاريخنا العربي, ولنا تطلعاتنا العربية المشتركة, ولنا آلامنا وآمالنا, ولنا وحدة مصيرنا. فهذا واقع لا بدّ من ذكره في الدستور. فلماذا تجاهله؟ » [٢].

ويذهب المفتي نفسه ليفسّر لموفد أميركا دين براون معنى ما جاء في الميثاق بأنّ

---

(١) جاء ذلك في لقاء المفتي خالد مع دين براون الموفد الأميركي في ١٩٧٦/٤/٣.
(٢) اللقاء نفسه تراه في كتاب « المسلمون في لبنان والحرب الأهلية »، ص ٢٤٩ و٢٥٠.

« لبنـان ذو وجـه عربـي » ويقـول: « كيـف يمكـن لبنـان أن يكـون ذا وجـه عربـي وروح غيـر عربيّة؟.. هذا غير مقبول عربياً, عندما تطلق الصفة الجزء يعني بها الكل » [٣]. ومع الموفد الفرنسي جورج غورس قال الشيء نفسه[٤]. وبأكثر وضوح قال للموفد البابوي بريني وهو يأخذ على القائلين بـ« أنّ لبنان لبناني يعني غير عربي. فهذا قول مردود لأنّ لبنان بلد عربي » [٥].

ويؤكد سماحته بمناسبات عديدة على عروبة لبنان, بل يؤمن بها ويطالب الذين ما زالوا يشككون بذلك, ويقول: « نؤمن بأنّ لبنان يمثل جزءاً من الأمّة العربيّة.. إنّي كنت ولا أزال مع الذين يؤمنون بالوحدة العربيّة » [٦]. ويقول أيضاً: « إن لبنان الحديث هو لبنان العربي الوجه والدم واللسان الذي عرفناه مع الاستقلال, وما زلنا نعرفه هكذا حتى الآن, ولا نريد أن نعرفه إلاّ هكذا على مدى الأزمان » [٧]. ويحذّر بقوله: « إذا فقد لبنان هويته العربية فقدَ دوره بين العرب. وفقدَ دوره في العالم, وفقدَ دوره في صعيد الإنسان في كل مكان... » [٨].

توقّفنا على كلام المفتي وحده في عروبة لبنان لأنّه يمثل مواقف جميع المسلمين اللبنانيين. وليس أدلّ على ذلك من اعتماد صفة « العروبة » تطلق على جميع مؤسسات الدولة اللبنانية. فسمعنا ونسمع: بـ« جيش لبنان العربي »، وبـ« صوت لبنان العربي »، و « لبنان العربي »، و « أرض لبنان العربية »... لكأنّ الجميع

---

(٣) انظر كتاب « المسلمون في لبنان والحرب الأهلية ». ص ٢٥٠.
(٤) مع الموفد الفرنسي في ١٩٧٦/٤/١٠. المرجع نفسه. ص ٢٥٣.
(٥) مع الموفد البابوي في ١٩٧٦/٤/٢, المرجع نفسه. ص ٢٦١.
(٦) حديث المفتي إلى جريدة البعث السورية في ١٩٧٧/٣/٢. المرجع نفسه ٣٧٣.
(٧) حديث المفتي إلى الصياد في ٧٣/٥/٣١. المرجع نفسه. ص ٢٠.
(٨) خطبة المفتي في عيد الأضحى في ١٩٧٤/١٢/٢٤. المرجع نفسه. ص ٧٩...
(٩) حديث المفتي لمجلة بيروت المساء في ١٩٧٥/٣/٣١. ص ١٣٠.

يعلنون إيمانهم مع مفتي الجمهورية ويقولون معه ووراءه: « نحن نؤمن بلبنان بلداً عربياً » [٩], أو أيضاً: « لبنان جزء من الأمة العربية » [١٠].. وهكذا.

وحده الدستور اللبناني, بين دساتير دول الجامعة العربية, لا ينصّ على عروبة لبنان. ولذلك يطالبون بـ« تعديل الدستور » [١١]...

وإذا ولجنا داخل الدساتير العربيّة جميعها نراها تقرّر أمرين هامّين لا ينفصلان: أمر اعتبار كل دولة جزءاً من الأمة العربية, وأمر دين الدولة والإسلام. هذا بالإضافة إلى الهدف الأخير وهو الدعوة إلى الوحدة العربية الكاملة الشاملة. ذلك لأنّ «الوحدة العربية قاعدة قانون عام عربي » [١٢], ولأنّ «الوحدة العربية... تتكامل مع الاتجاه نحو التضامن الإسلامي » [١٣].. ونريد إثبات ذلك اعتماداً على نصوص الدساتير العربيّة جميعها, ولو تكلف القارىء صبراً.

جاء في مقدمة الدستور **السوري** الصادر في ٥ أيلول عام ١٩٥٠: « إنّ الشعب السوري الذي هو جزء من الأمّة العربيّة بتاريخه وحاضره ومستقبله, يتطلّع إلى اليوم الذي تجتمع فيه أمّتنا العربية في دولة واحدة, وسيعمل جاهداً على تحقيق هذه الأمنية المقدّسة » [١٤].

وفي ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٧٠ « جاءت الحركة التصحيحية.. استجابة لنداء

---

(١٠) المرجع نفسه, ص ١٣٢.
(١١) انظر حديث المفتي لمجلة « مونداي مورننغ » البيرونية في ١٩٧٥/٦/١٨. في كتاب « المسلمون في لبنان... »، ص ١٥١, وحديثه مع كوف دومرفيل في ١٩٧٥/١١/٢٢, المرجع نفسه, ص ١٩٤.. وجملة أحاديث في الكتاب نفسه..
(١٢) د. محمود كامل, الإسلام والعروبة, ص ٢٣.
(١٣) د. عبد العزيز الدوري, في «القوميّة العربيّة والإسلام »، ص ٧٤٥.
(١٤) د. محمود كامل, المرجع السابق, ص ٢٣.

الوحدة التي تحتلّ مكان الصدارة في الوجدان العربي » [١٥]. واستند الدستور السوري الجديد « إلى المنطلقات الرئيسية التالية: ١ ـ إن الثورة العربية الشاملة ضرورة قائمة ومستمرة لتحقيق أهداف الأمة العربية في الوحدة والحريّة والاشتراكية. ٢ ـ إن جميع الإنجازات التي حقّقها أو يمكن أن يحققها أي قطر عربي في ظل واقع التجزئة تظلّ مقصّرة عن بلوغ كامل أبعادها.. مالم تعزّزها وتصنها الوحدة العربية » [١٦].

ومن مبادىء هذا الدستور الأساسية كما جاء في المادة الأولى, أنّ: « ٢ ـ القطر العربي السوري جزء من الوطن العربي. ٣ ـ الشعب في القطر العربي السوري جزء من الأمّة العربية, يعمل ويناضل لتحقيق وحدتها الشاملة ». وفي مادّة ٧ يكون القسم الدستوري على الشكل التالي: « أقسم بالله العظيم أن.. أعمل وأناضل لتحقيق أهداف الأمّة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية » [١٧].

وجاء في دستور دولة **البحرين** في مادّته الأولى ما يلي: « البحرين دولة عربية إسلامية.. شعبها جزء من الأمّة العربية, وإقليمها جزء من الوطن العربي الكبير » [١٨].

وفي دستور الجمهورية **الجزائرية** « تلتزم الجزائر, كلّما تهيّأت الظروف الملائمة لقيام وحدة مبنية على تحرير الجماهير الشعبية, باعتماد صيغ للوحدة, أو للإتّحاد, أو للاندماج, كفيلة بالتلبية الكاملة للمطامح المشروعة والعميقة للشعوب العربية » [١٩].

---

(١٥) الأحكام الدستورية للبلاد العربية, ص ١٤٠ ـ ١٤١.
(١٦) الأحكام الدستورية للبلاد العربية, ص ١٤١.
(١٧) المرجع نفسه, ص ١٤٢.
(١٨) المرجع نفسه, ص ٥٨.
(١٩) المرجع نفسه, ص ٩٩.

وجاء في المادة الأولى من دستور الجمهورية **العراقية** المعلن في ١٦ تموز سنة ١٩٧٠: « العراق جمهورية ديموقراطية شعبية ذات سيادة, هدفه الأساسي تحقيق الدولة العربية الواحدة ». وفي مادة ٥: « العراق جزء من الأمة العربية » [٢٠].

وفي دستور دولة **قطر** مادة أولى: « وشعب قطر جزء من الأمّة العربية » [٢١]. وفي دستور الكويت مادة أولى: « وشعب الكويت جزء من الأمة العربية » [٢٢].

وجاء في دستور **الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية** الذي أعلن في مؤتمر الشعب العام في ١٩٧٧/٣/٢: « إن الشعب يعلن التزامه بتحقيق الوحدة العربية الشاملة » [٢٣].

ونصّ الدستور **الأردني** الثالث في ١٩٥٣/١/١ على أنّ « المملكة الأردنية الهاشمية دولة عربيّة.. والشعب الإردني جزء من الأمة العربية » [٢٤].

وفي الدستور **المصري** الذي صدر في ١٩٥٦/١/١٦ والذي نصّت مقدمته على ما يلي: « نحن الشعب المصري الذي يشعر بوجوده متفاعلاً في الكيان العربي الكبير ويقدر مسؤولياته والتزاماته حيال النضال العربي المشترك لعزّة الأمّة العربية ومجدها ». وقد استهلَّ رئيس الجمهورية الخطابَ الذي قدّم به مشروع الدستور: « إنّ الكيان العربي يمتدّ من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي, كلّنا شعب واحد.. نكافح جميعاً متّحدين متكاتفين.. من أجل حقّنا في الحرية, ومن أجل حقنا في الحياة.

---

(٢٠) المرجع نفسه, ص ١٥٨.
(٢١) المرجع نفسه, ص ١٧١.
(٢٢) المرجع نفسه, ص ١٨٤.
(٢٣) المرجع السابق, ص ٢١٩.
(٢٤) المرجع نفسه, ص ٨.

نكافح جميعاً ضد الاستعمار, وضد أعوان الاستعمار. نحن نعلن عروبتنا الحقيقيّة, ونعلن تماسكنا مع العرب جميعاً » [٢٥].

وفي إعلان وثيقة دستور ١٩٧١/٩/١١ جاء: « أن أمل أمّتنا العربية عن يقين بأنّ الوحدة العربية نداء تاريخ, ودعوة مستقبل, وضرورة مصير ». وفي مادة ١ منه جاء: « والشعب المصري جزء من الأمّة العربية يعمل على تحقيق وحدتها الشاملة » [٢٦].

وفي المادة الأولى من دستور **جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبيّة** أنّ « الشعب اليمني شعب واحد. وهو جزء من الأمّة العربية والجنسيّة اليمنية واحدة » [٢٧].

وفي الدستور الدائم **للجمهورية العربيّة اليمنيّة** المعلن في ١٩٧٠/١٢/٢٨, جاء ما يلي: « نحن اليمنيين شعب عربي مسلم. لا بقاء لنا ولا لوطننا إلاّ بالتمسّك بجنسيّتنا العربية الأصيلة, التي لا يستطيع شعب ينتمي إلى العروبة أن يدّعيها قبلنا, أو يقدّم لنا دروساً فيها ». وجاء في مادة ١ منه: « اليمن دولة عربيّة إسلاميّة.. والشعب اليمني جزء من الأمّة العربيّة » [٢٨].

« أما دستور **سلطنة عمان** فمستمدّ مباشرة من القرآن, وقائم على التقاليد والعرف المستمدّة من الشريعة الإسلاميّة. وقد أخذت هذه التقاليد والأعراف شكل دستور » [٢٩].

---

(٢٥) د. محمود كامل, الإسلام والعروبة, ص ٢٣.
(٢٦) الأحكام الدستورية للبلاد العربية, ص ٢٢٣ و٢٢٤.
(٢٧) المرجع نفسه, ص ٢٦٢.
(٢٨) المرجع السابق, ص ٢٨٦ و٢٨٨.
(٢٩) المرجع نفسه, ص ١٦٨.

وكذلك دستور **المملكة العربيّة السعوديّة** الذي جاء على الشكل التالي: « اتخذَت المملكة العربية السعودية الأحكام الواردة في الشريعة الإسلامية دستوراً لها. فكل أنواع المعاملات تطبّق فيها أحكام الشريعة الإسلامية, حتى الأنظمة التي وضعت في المملكة لتنظيم الإدارة روعي في نصوص موادّها أن لا تخرج عن دائرة الشريعة الإسلامية. وكلمات « قانون » و « تشريع » و « شريعة » لا تطلق في السعوديّة إلاّ على الأحكام الواردة في الشريعة الإسلامية » (٣٠).

وجاء في مقدّمة دستور **تونس** بأنّ الشعب التونسي مصمّم « على تعلّقه بتعاليم الإسلام.. وبانتمائه للأسرة العربية.. « كما جاء في الفصل ٣٧ منه: « إنّ رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة, ودينه الإسلام » (٣١).

ونصّ دستور **الإمارات العربيّة المتحدة**, الصادر في ١٩٧١/٦/١٨: أنّ الإمارات « متعاونة مع الدول العربية الشقيقة »، وتعمل للسير بشعوبها « قدماً.. في مجتمع عربي إسلامي..» وجاء في مادة ٦: ان « الاتحاد جزء من الوطن العربي الكبير, تربطه به روابط الدين واللغة والتاريخ والمصير المشترك. وشعب الاتحاد شعب واحد, وهو جزء من الأمّة العربيّة. وفي مادّة ١٢ جاء: « تستهدف سياسة الاتّحاد الخارجية نصرة القضايا والمصالح العربيّة والإسلامية » (٣٢).

أما **جمهورية السودان الديمقراطيّة** فهي « جزء من الكيانين العربي والأفريقي. وفي مادة ٩: « الشريعة الإسلاميّة والعرف مصدران رئيسيان للتشريع والأحوال الشخصية لغير المسلمين ». وفي مادة ١٦: « جمهورية السودان الديمقراطيّة الدين

(٣٠) المرجع نفسه, ص ١١٢. هذا كلّ الدستور السعودي.
(٣١) المرجع نفسه, ص ٧٨ و٨١.
(٣٢) المرجع السابق, ص ٣١ و٣٢.

(فيها) الإسلام, ويهتدي المجتمع بهدي الإسلام دين الغالبية, وتسعى الدولة للتعبير عن قِيَمه » [٣٣].

و « **المملكة المغربيّة** دولة إسلامية.. وهي جزء من المغرب الكبير. وبصفتها دولة إفريقية فإنّها تجعل من بين أهدافها تحقيق الوحدة الإفريقية ». ثمّ « الإسلام دين الدولة » [٣٤].

* * *

يستنتج من دساتير هذه البلاد ثلاثة أمور:

أولاً: إن شعوب هذه الدول هي أجزاء من أمّة واحدة هي الأمة العربية.

ثانياً: إن الدين الرسمي لهذه الدول الإسلام.

ثالثاً: جميع هذه الدول تهدف في غايتها الأخيرة إلى الوحدة العربية الكاملة.

وقد عبّر ناصر الدين عن واقع الوحدة العربيّة بما يتخطى أمنيات الدساتير جميعها, فقال: إذا قلنا مثلاً: « مصري، إنّما هو تعريف جغرافي موضعي ضيّق خاصّ. أي أنّه عربي يقطن مصر. كما نقول: مغربي أو يمني أو عراقي, أو.. الخ » [٣٥]. فـ« هؤلاء كلّهم عرب. نسبوا نسبة موضعية ضيّقة إلى البقاع التي يقطنونها. فالقومية العربيّة تجمعهم, والوطن العربي كلّه وطنهم » [٣٦].

---

(٣٣) المرجع نفسه, ص ١١٤ و١١٥ و١١٦.
(٣٤) المرجع نفسه, ص ٢٤٦ و٢٤٧.
(٣٥) علي ناصر الدين, قضية العرب, ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٣٦) المرجع نفسه, ص ٣١.

ودليله على ذلك: « يخطب ابن المغرب, أو ابن الجزائر, أو ابن تونس. أو ابن السودان.. فتموج لخطابه ملايين العرب في المشرق وفي المغرب. ويرسل بشاره عبد الله الخوري, الأخطل الصغير, في لبنان, وعمر أبو ريشة في الشام, ورضا الشبيبي.. أو أحمد الصافي في العراق, قصيدة. فتمشي لها القلوب في صدور ملايين العرب في المشرق وفي المغرب » (٣٧).

والذين يشككون بأصالة عروبة إحدى البلاد العربية الإسلامية هم, بنظر محمّد عزّة دروزة, مكابرون مغرضون أعداءٌ رافضون. لهذا يجب أن نحيط مكرَ المستعمرين والمبشرين والمستشرقين المغرضين وأعداء العروبة الذين تتجاوز مكابرتهم كل حدٍ ومنطق، فيتجاهلون السيل العربي الصريح الذي أخذ يتدفّق على بلاد العراق والشام قبل الإسلام وعليها وعلى وادي النيل منذ الفتح الإسلامي إلى الآن دون انقطاع ويغمر مدنها وقراها وبواديها استمراراً لما كان يجري قبل دور العروبة الصريحة والذي تفوق أعداده أعداد سكان هذه البلاد أضعافاً مضاعفة.. ويحاولون فصلَ تاريخ سكانهم القدماء عن تاريخ الجنس العربي ليوقروا في أذهان سكانها الحاضرين وهن الصلة بينهم وبين العروبة الأصيلة، وليجعلوهم يعتبرون العرب الذين جاءوا إلى هذه الأقطار تحت راية الإسلام غزاةً كسائر الغزاة الذين طرأوا عليها ووطّدوا حكمهم فيها بالقوة العسكرية وحسب... » (٣٨).

---

(٣٧) المرجع نفسه، ص ٣٤ ـ ٣٥.
(٣٨) محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ٩/١.

خَاتمة الفَصْل الأوّل

انّ رسالة النبي محمّد لأهل الجزيرة العربيّة قد أكملت « المجد العربي شرفاًَ باهر النور والسناء، وكانت الطور النهائي لتلك الميزة العظمى التي امتاز بها الجنس العربي.. لأنّها احتوت من المبادئ والأسس والحلول الجذرية ما يكفل حاجة البشر ويحلّ مشاكلهم الروحية والمادية في كل زمن ومكان إذا ما رجعوا إليها » [١]. « وليس في هذا شيء من الغرابة، فالإسلام والعروبة متلازمان، تلازم المنشأ والضرورة والوجوب أيضا، بحيث لا يمكن لأي باحث أن يغفل، وهو يتحدث عن العروبة، دور الإسلام، أو وهو يتحدث عن الإسلام أن يغفل مكانة العروبة ودورها في الإسلام » [٢].

« والنتيجة التي انتهى إليها الإسلام.. هو أنّ كل من اتخذ الإسلام ديناً له والعروبة لساناً، أصبح عربياً. وهذا هو المعنى الجديد الذي جاء به الإسلام لمفهوم العروبة أو الجنسية العربية، وهو مفهوم قومي أكسبه الإسلام هذه الميزة الإنسانية التي لا ترتفع إلى مستوى انسانيّتها أيّة قوميّة أخرى. وبذلك أصبح المسلم هو العربي الجديد، لا بعقيدته الدينية فحسب، ولكن بعقيدته القوميّة أيضاً. وهذا هو السرّ في عظمة الإسلام » [٣].

---

(١) محمّد عزّة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ٢٣/٦.

(٢) حسين رشيد خريس، مدير إدارة الشؤون والعلاقات الثقافية في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، في « شؤون عربية »، عدد ٢ نيسان ١٩٨١، ص ١٣٩.

(٣) المرجع نفسه، عنوان المقال: « بين العروبة والإسلام »، ص ١٤٥.

والعرب مادّة الإسلام « جاهدوا في سبيل انتشاره، ودافعوا طويلاً عن مقدراته، فمنحهم الإسلام عروبة خالدة، وأمّة متميزة تستعصي على كل باغ وظالم أن ينال من كينونتها أو استمرار وجودها في التاريخ، وكذلك كان الشأن للإسلام الذي أعزّ العرب وجعلهم الأغلبين بعد ضعف، ووحّد شملهم حتى رفعوا أعلامه في مشارق الأرض ومغاربها.. وأصبحت كل دعوة عربية لا تستوحي روح الإسلام كأنّها صرخة في خواء »[٤].

ولكي لا يتشوّف العربُ على العالم أخرج الله الإسلام من بين أيديهم ونشره في أنحاء العالم، يحمل معه خصائص العروبة ومميزاتها. وهو مجد للعرب ومحال ضَعَةٍ في آن معاً. « لقد كان تمامُ المجدِ العربي، الذي كمل بالرسالة المحمدية، أن حملت هذه الرسالة الجنس العربي.. بنشرها في مشارق الأرض ومغاربها، وبين جميع البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم.. حتى لا يثير.. في نفس الجنس العربي غروراً ولا رغبة في الاستعلاء والاستغلال إزاء إخوانه في الدين »[٥].

قد يكون القول أعلاه استدراكاً حكيماً من رجل باحث في شؤون الإسلام والعروبة. ولكنّه جاء من قبيل المداراة والمسايرة، أكثر مما هو من قبيل الحقّ والواقع. فالعروبة، في أبحاثه، مجد، وكلّما اقترب العالم منها كان العالم في مجد. وأصدق منه قول باحث آخر يستوحي الحديث النبوي ويقول: « لا عزّة للإسلام إلاّ بالعرب.. ولا عزّة للعرب إلاّ بالإسلام والمسلمين »[٦]...

* * *

---

(٤) المرجع السابق، ص ١٤٦.
(٥) محمد عزة دروزة، الجنس العربي، ٢٣/٦.
(٦) د. ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ص ١٥.

منذ ما قبل النبيّ ابتدأتِ القبائل العربيّة تتجمّع في مكة، فألفت في تجمّعها قبيلة واحدة، هي قبيلة قريش، أي قبيلة « التجمّع » (٧). وكان هذا كـ« ردّة فعل » ضد الحياة « الفردية » التي كانت تتحكم بالعشائر. وبقيت « الوحدة العربيّة » المنشودة أبداً « ردّة فعل » لماض ممزّق، أو « حلماً » يقترب من التحقيق ثم يبتعد، أو « تعويضاً » عن هويّة ضائعة بين كثبان الرمال وأخفاف الجمال. أنّ ما يدعو العرب إلى نشدان الوحدة هو نظرتهم إلى الماضي أكثر من نظرتهم إلى المستقبل. فلأنّ ماضيهم كان غزواً وسلباً ونهباً وتفرداً. فهم يأملون بمستقبل يكون الجميع فيه « أمّة عربيّة » واحدة في « وطن عربي » واحد..

ومهما اشتدت على العروبة عداوة الأعداء تبقى الدساتير العربية جميعها خير معبّر عن الوحدة المرتجاة. فكل دولة عربية، في اسمها وشعبها ونظمها وقوانينها ترجو الانتماء إلى العروبة وتفتخر بما ترجو. وكل شعب من شعوبها هو، بحسب هذه الدساتير، « جزء من الأمة العربية »، ويرجو في هدفه الأخير، وفي مثاله الأعلى، الالتحاق بـ« الوطن العربي الكبير »، وبالانضمام إلى « الوحدة العربية » المبتغاة. هذه الأمنيّة لا بد لها، بنظر العروبيين، من أن تتحقّق لأنّ كل عناصرها قائمة: فالدين واحد، واللغة واحدة، والتاريخ واحد، والمصير واحد.. وكلّها أسس صالحة.

« الوحدة العربيّة » حلم كل مسلم، وأمل كل عربيّ. الكل يعمل لها، والكلّ يرجو دنوها. وليس من مسلم عربيّ واحد لا يخصّها بصلاته، ولا يفرد لها أحسن أوقاته، ولا يدخلها صلب اهتماماته، ولا يطلب لها في دعائه... منذ البدء، بدأت « الوحدة » تلوح، وعبر التاريخ وفي مساره كانت تتحقق ثم تفلت. كانت تظهر ثم

---

(٧) قال ابن كثير في معنى قريش: « وأما اشتقاق قريش فقيل من التقرّش، وهو التجمّع بعد التفرّق.. فإنهم كانوا متفرّقين. فجمعهم قصي بالحرم (السيرة النبوية، ٨٧/١). وقيل في قصي شعراً:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً　　　به جمع الله القبائل من فِهرِ.

تختفي. كانت الدعوة إليها تنشط ثمّ تخبو, وفي لاوعي كل مسلم عربي تعشعش فروخ الوحدة: تارةً تنطلق، وطوراً ترقد وتنام. تارةً كان يعتريها خمول، وطوراً كانت تحطّم كل الصعاب. تارةً كان لها في العالم « فتح » و « نصر »، وطوراً كانت هي للعالم مسرحاً وممراً.

كلّ عربيّ مسلم، لدى سماعه « الوحدة العربيّة »، يغمض عينيه، يسجد على ركبتيه، يرفع باتجاه السماء يديه، ويصلي: اللهم! يا واحداً يا أحد، يا موحّد وحدات الكون، يا داعي إلى وحدة الشعوب. نؤمن بوحدتك ووحدانيّتك وأحديتك! نطلب منك الوحدة والاتحاد والتوحيد. نسألك نعمة وحدة الأرض والشعب والدين واللغة والمصير. نبتهل من توحيدك أن توحّد بيننا، وتجمع شملنا، وتضمّ إليك القبائل والعشائر والبطون والفخوذ. نرجوك، لأجل توحيدك، توحيدنا، فنحسن لوحدانيّتك، يا وحيداً في وحدات الكون.

في علم كل مسلم عربي أنّ التفرقة سبب كل ضعف، والانفصال سبب كل علّة، والخلاف علّة كل خصام، والتحزّب علّة كل تشرذم، والتشرذم سبب كل اقتتال.. ولن يزول ضعف أو وهن أو خصام أو اقتتال إلا بالوحدة والاتحاد. ولذلك يبقى الله لأنّه واحد، ويبقى القرآن لأنه واحد، ويبقى الإسلام لأنّه واحد.. والمسلمون، في كل حال، هم، بحسب تحديدهم القرآني، الذين لم يفرّقوا. قال الكتاب: « لا نفرّق بين أحد منهم. ونحن له مسلمون » (٨). وقال: « نعبد إلهك وإله آبائك... إلهاً واحداً. ونحن له مسلمون » (٩). وقال: « إلهكم إله واحد. فهل أنتم مسلمون » (١٠). وقال: « إلهنا وإلهكم واحد. ونحن له مسلمون » (١١).

---

(٨) سورة البقرة ١٣٦/٢، آل عمران ٨٤/٣.
(٩) البقرة ١٣٣/٢.
(١٠) سورة الأنبياء ١٠٨/٢١.
(١١) سورة العنكبوت ٤٦/٢٩.

فالمسلمون، إذن، هم الذين لا يفرّقون، هم الموحّدون، الداعون إلى الوحدة والتوحيد.

هذه الوحدة لازمت العروبة والإسلام منذ البدء. والأسباب الداعية إليها لا تحصر، ولكنّها كانت، في كل مرة، يعتريها اضطراب وفشل. فانطلاقا من الدين الواحد، إلى الكتاب الواحد، إلى وحدة الأرض والتاريخ، إلى اللغة الواحدة... كانت الوحدة فيما بين القبائل العربيّة تتحقّق. وقد يكون عنصر اللغة وحده بنظر العروبيين والمسلمين، كافياً لتحقيق الوحدة المنشودة، لأنّ « أوصاف التشارك اللغوي خاصّة قويّة، حتى لتكاد تسوغ وحدها دعوى وحدة الأرومة بين الموجات التي خرجت من جزيرة العرب في مختلف أدوار التاريخ القديم، وبين الذين بقوا في هذه الجزيرة من الجنس العربي » [١٢].

والقائلون بـ« الوحدة العربية » يتجنّبون القول بها على أساس وحدة الدين، ليظهروا بمظهر « علماني » سمح مقبول من الجميع. ولكنّ الإسلام، كدين، ومن حيث أنّ اللغة العربية هي لغته، يبقى هو الجامع الشامل الموحّد بين الجميع. ومهما بلغ الداعون إلى الوحدة مبلغ السماح والانفتاح تبقى الوحدة بين « الجامعة العربية والجامعة الإسلامية » [١٣] منطلقها.

---

(١٢) محمد دروزة، تاريخ الجنس العربي ١١/١.
(١٣) عنوان مقال للدكتور محمّد عمارة، في « القومية العربيّة والإسلام »، ص ١٤٥ حتى ١٧٦ مع التعقيبات...

الفَصْل الثَاني

مَعَاني العروبة

أولاً : العروبة في الحضَارات القديمَة

ثانياً : العروبَة في الآداب العبريَّة

ثالثاً : العروبَة عِند اليونَان والرومَان

رابعاً : العروبَة في العربيَّة القديمَة

خامساً : العروبَة في القرآن والحَديثْ

خاتمة الفَصْل الثَاني

أوّلاً: العروبَة في الحضَارات القديمَة

نضطر في بحثنا إلى إطلاق لفظة « العرب »، بمعناها المعروف المتداول اليوم، على مجمل سكان البلاد العربية، أو على سكان الجزيرة العربية.. إلاّ أنّ هذا المدلول لم يكن لها في الأصل، لا في أيّ معنى من معانيها، ولا في أيّة مرحلة من مراحل تاريخ نشأتها. وليست الكلمة، في كل حال، من انشاء من نسمّيهم اليوم « عرباً »، إنّها في أصلها اللغوي، من مخترعات الآراميين الساكنين شرقي الفرات، وقد أطلقوها على سكان غربي الفرات، بمعنى « الغربيين ».

فلفظة « عرب » تعني « غرب »، في أصلها الآرامي؛ ومن الآرامية انتقلت إلى العبرانيّة والبابليّة والسريانية، وغيرها من اللغات الساميّة. وأصبحت لغة هؤلاء « الغربيين » تسمّى « اللغة الغربيّة »، وفي لغتهم « اللغة العربية ». وهي مأخوذة من موقع المتكلّمين بها جغرافياً. ثمّ، لما كان هؤلاء « الغربيون » يسكنون البوادي القاحلة، أصبحت « لفظة » « عرب » تطلق على كل من قطن البادية وعاش حياة البداوة والأعرابية والجفاف والفقر » [1]. ومهما يكن من أمر « العروبة » فهي لا تعني اسم علم لشعب ذي عرق أو اثنيّة تسمى « عربية ».

والعرب أنفسهم، قبل الإسلام وبعده، لم يعتمدوا، في بحوثهم عن نشأة الكلمة، على نصوص جاهلية، أو على دراسات عميقة مقارنة. لقد استعملوها « على الحدس والتخمين ». ورأيهم في تفسيرها وفي إيجاد أصلها ومعانيها، هو

---

(١) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٨/١. انظر أيضا ١٤/١.

إسلامي، دوّن في الإسلام، وبعد الإسلام بقرون... وحيرتهم ظاهرة في الكلام عمّن كان أوّل الناطقين باللغة العربية. فمنهم من ينسبها إلى آدم في الجنّة، ومنهم من ينسبها إلى « يعرب » بن قحطان، بعد آدم بقرون عديدة، ومنهم من ينسبها إلى إسماعيل بن ابراهيم الذي ألهم الكلام بها إلهاماً. ومنهم من حاول التوفيق بين هذه الآراء المتضاربة، فقال بأنّ إسماعيل تذكرها بعد أن هداه الله إليه[٢]. ومنهم أخيراً من جعل أصلها في بلاد الشام، من الحيرة والأنبار، وقد نقلها تجّار قريش معهم إلى مكة والحجاز، أو نقلها المبشرون النصارى في سياحاتهم التبشيرية.

أمّا معنى الكلمة في النصوص الآرامية والعبرانيّة والأشورية والبابلية، وعند الفرس واليونان والرومان، وفي اللغات اليمنيّة القديمة، ثم في القرآن والحديث النبوي، فهو يختلف، أساساً، عمّا ذهب إليه « العرب » في تفاسيرهم، وفي بحثهم عن نشأة لفظة « عرب »، وعن اللغة المسمّاة « عربيّة »، وعن الشعب المعروف بـ « العرب ».

* * *

١ ـ أما الآراميون فقد أطلقوا اسم « عرب » على سكان غربي الفرات، لأنّ لفظة « عرب » في لغتهم تعني « الغرب ». ومنها « عْرُبُو »: **ܥܪܒܐ** أي « غروب »، و« مَعْرْبُو » **ܡܥܪܒܐ** أي « غرب » و « مغرب ».. وتعني أيضاً: « خلط » و « مزج »، ومنها « عْرُوْبْيُو » **ܥܪܘܒܝܐ** أي مزيج وخليط، و « عَرِبْ » **ܥܪܒ** أيضاً، ومنها « عُورْبُو » **ܥܘܪܒܐ** المزيج والخليط. ومنها أيضاً اسم « عْرُوُبْتُو » **ܥܪܘܒܬܐ** ليوم « الجمعة »، الذي كان يسمّى في المصادر

---

(٢) انظر في ذلك: تاج العروس، ولسان العرب، في مادّة « عرب »، والمزهر ٣٠/١، وتاريخ ابن خلدون ٨٦/٢، وغيرها من مصادر إسلامية، أمثال كتب السير النبوية.

الجاهلية « يوم العروبة »، وهو يوم الغروب، أي غروب الأسبوع قبل يوم الراحة، أي يوم السبت المقدس، عند اليهود والنصارى. وسمّى الجاهليّون يوم « العروبة » بيوم الجمعة من تجمّعهم فيه للتبضّع في مساء السبت. وما زالت اللغة العربيّة تحمل هذه المعاني حتى اليوم.

والذي يهمّنا من هذا كلّه أنّ الآراميين، سكّان شرقي الفرات سمّوا سكان غربي الفرات « عرباً »، أي « غربيين ». وما نزال، حتى الآن، نقول بلغتين آراميتين: غربيّة وشرقيّة، أي غربيّ الفرات وشرقيّه. وبما أنّ منطقة غربي الفرات كانت صحراويّة قاحلة، اختلط معنى العروبة بمعاني البادية والغرب سواء. ولذلك « فهم الآراميون بالعرب وببلاد العرب كل ما له علاقة بالأعرابيّة والسكن في البادية » [٣].

٢ ـ وفي الكتابات البابليّة وردت جملة « ماتوا أربي »: *matu arbaai* أي « أرض عربي »، أو « أرض العرب »، أو أيضاً « أرض عرب » [٤]. والمقصود بها: البادية الحافلة بالبدو الذين يعيشون حياة الفقر والتبدي، والذين يعيشون غربيّ الفرات. ولهذا سمّى سكان مدن بابل أهل البادية باسم « عمرو » (أو عربوا)، أي أهل الغرب، لأن بلادهم واقعة غربي الفرات. وهو اسمهم القديم في بابل.. ثمّ سمّوهم « عريبي » أو « عرب »، ومعناها أيضاً في اللغة السامية الأصلية « الغربيّون »، وكانوا يسمّون بلادهم « مات عريبي » أي بلاد الغربيين، أو بلاد العرب. وبما أنّ تلك البلاد صحراء بادية صار لفظ « عرب » في اللغات السامية يدل على البادية أيضاً، ومنها ערב في العبرانية والأعرابي في العربية » [٥].

---

(٣) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢٢/١.

(٤) MARGOLIOUTH, *The Relations between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam*, London 1924, p. 3.

(٥) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤٧.

٣ ـ وفي الكتابات الاشورية نجد أقدم نصّ وردت فيه لفظة « عرب » من أيّام الملك شلمنصّر الثالث (+ ٨٢٤ ق. م.) الذي قاد حملة على ملك دمشق الآرامي وحلفائه ملوك حماة وإسرائيل وعمّون وكيليكيا. وقد انتصر عليهم في « قرقر »، سنة ٨٥٣ ق.م. في بلاد الشام. وترك لنا نصّا شهيراًَ، يقول فيه: « قرقر عاصمته الملكية، أنا خرّبتها، أنا دمّرتها. أنا أحرقتها بالنار: ١٢٠٠ مركبة، ١٠٠٠٠ جمل لجندب العربي.. هؤلاء تآلبوا عليّ » [٦]. والمقصود بلفظة « عرب » في هذا النصّ « بداوة ومشيخة كانت تحكم في أيّامها البادية، تمييزاً لها عن قبائل أخرى كانت مستقرّة في تخوم البادية » [٧]. ويعلّق فيليب حتّي بقوله: « ومن بديع الاتّفاق إن اسم أوّل عربي يسجّله التاريخ جاء مقروناً باسم الجمل » [٨].

٤ ـ وفي النص الفارسي المكتوب للملك داريوس (+ ٤٨٦ ق. م.) جاءت لفظة « عرباية » Arpaya بمعنى البلاد الصحراوية المتاخمة لأرض فارس[٩]. ووجدت هذه الكتابة في قرية « بهستون » Bahistun في همذان وحلوان[١٠].

* * *

ومراد الآراميين و « البابليين أو الاشّوريين أو الفرس من « العربيّة » أو « بلاد العرب » البادية التي غرب نهر الفرات الممتدّة إلى تخوم بلاد الشام » [١١]. « وبهذا

---

(٦) حتي، تاريخ العرب، ص ٦٦. انظر
LUCKENBILL, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, Chicago 1927, Vol., I, p. 61

(٧) د. جواد علي، المفصّل..، ١٦/١. MARGOLIOUTH, *op. cit.*, p 41
The Jewish Encyclopedia, N.Y. 1902, p. 41-MONTGOMRY, *Arabia and the Bible*. p. 27.-CHENE, *Encycl. Biblica*, I/273.-*Encycl. Islam.*, I/908…

(٨) حتي، تاريخ العرب، ص ٦٦.

(٩) *The Sculptures and Inscriptions of Darius the Great on the Rock of Behistun in Persia*, London, 1907, XIVIII, 161.- *Encycl. Bibl.*, p. 273.- *Dict. Of the Bible*, p. 46…

(١٠) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣١٥/٢.

(١١) جواد علي، المفصّل، ١٨/١.

المعنى ذهب بعض العلماء إلى ادخال طور سيناء في جملة هذه الارضين البوادي » [١٢]، حتى أنّ كل أرض صحراء قاحلة، في أيّة بقعة، دعيت « عربيّة »، وكل شعب يعيش على البداوة سمّي « عربيّاً ».

(١٢) *Encycl. Bib*. 1/267, 273; *Dict. of the Bible*, 1/46, 131.

ثانياً: العروبَة في الآداب العبريَّة

« إنّ أقدم نصّ في العهد القديم يتكلم على « العرب » نجده في أرميا (+ ٥٨٠ ق. م.) يتكلم عنهم كشعوب في الصحراء، تائهين بدون مقرّ » [١]. يقول أرميا في وصف المرأة الزانية: « لقد قعدت لهم كالأعرابيّ في البادية، ودنَّست الأرضَ بِزناكِ وفُجوركِ » [٢] وهو يقصد بذلك أنّ هناك صلة وثيقة بين الأعرابي والبادية، بين العربي وحياة الفقر والبداوة، وأيضاً بين البدوي وحياة الزنى والفجور والأرض المدنّسة.

وعند أرميا أيضاً تعداد للشعوب « المختونين مع الغلف، مصر ويهوذا وأدوم وبني عمّون وموآب وكل مقصوصي الزوايا الساكنين في البريّة » [٣] وهو يقصد بـ« مقصوصي الزوايا » [٤]: « القبائل البدوية » [٥] الذين يحافظون، بقصّ شعورهم ولحاهم، على بعض التقاليد الممنوعة في إسرائيل[٦]. ويجدر بالذكر أن اسم « عرب » غير موجود في النص مع سائر الشعوب. لذلك، فهم، أي « العرب »، يعرفون بصفتهم، لا باسمهم العَلَمي.

---

(١) *Dict. Des Noms propres de la Bible*, art. *Arabes*. 36-37; cf. Is 13/20, dans *TOB*. n. S.
(٢) ارميا ٢/٣.
(٣) ارميا ٢٥/٩.
(٤) ترد ثلاث مرات في العهد القديم. انظر: *BJ*. sur *Jér*. 9/25
(٥) انظر ارميا ٢٣/٢٥، ٣٢/٤٩.
(٦) أحبار ٢٧/١٩، انظر: *TOB*. sur *Jér*. 9/25; n. o.

وفي ارميا أيضاً قوله: « على قيدار[٧] وممالك حاصور[٨] التي ضربها نبوكد نصّر ملك بابل. هكذا قال الرب: قوموا اصعدوا إلى قيدار، ودمّروا أبناء المشرق[٩]، إنهم يأخذون أخبيتهم وغنمهم ويستولون على شققهم وجميع أدواتهم وإبلهم، وينادون عليهم بالهول من كل جهة: اهربوا سريعاً واشردوا، اسكنوا في الأعماق يا سكان حاصور، يقول الرب. إن نبوكد نصّر ملك بابل قد ائتمر عليكم بمشورة، وفكّر عليكم فكراً. قوموا اصعدوا إلى أمّة مطمئنّة[١٠]، ساكنة في الدعة، يقول الرب، لا أبواب لها، ولا مزاليج، سكناهم في العزلة، فتصير إبلهم نهباً ومواشيهم الكثيرة سلباً. وأذرّي لكل ريح أولئك المقصوصي الزوايا، ومن كل حدودهم أجلب عطبهم، يقول الرب. فتصير حاصور مأوى لبنات آوى، مستوحشة إلى الأبد، لا يسكن هناك إنسان، ولا يتغرّب[١١] فيها ابن بشر » [١٢].

وصفُ ارميا هذا « كان أيّام نبوكد نصّر سنة ٥٩٩ ق. م. الذي غزا قبائل العرب » [١٣]. وقد عبّر عنه بعد حدوثه بحوالي عشر سنين. وفيه إشارات واضحة عن القبائل البدوية الموصوفة في النصّ بتبدّيهم، ولكن دون ذكرهم باسم « عرب ». فهم مثلاً أبناء المشرق، وأصحاب الأخبية والغنم والابل، وسكان العزلة والقفر، وأهل النهب والسلب، مشهورون بالاستوحاش والتغرّب... « فالمفهوم اذن من لفظة عرب في اصحاحات ارميا إنما هو البداوة والبادية والأعرابية ليس غير » [١٤].

---

(٧) قبيلة في الناحية الشمالية من الجزيرة المسماة فيما بعد « عربية ». ترد ١٢ مرّة. انظر ارميا ١٠/٢ *TOB*. n. r.

(٨) اسم بعض قبائل عربية متحضرة، عكس « قيدار » بدو الصحراء. وهي ترد في العهد القديم ١٩ مرة. انظر: *TOB*. n. s. *BJ*. n. h. sur *Jér*.

(٩) « قدم » تعني بالعبرانية « المشرق ». انظر حاشية (٢١).

(١٠) أي « التي لا تشك بشيء البتة ». انظر ترجمة: *TOB*.

(١١) أي يسكن ويقطن.

(١٢) ارميا ٢٨/٤٩ ـ ٣٣.

(١٣) *TOB*. sur *Jér*. 49/28, n. p.

(١٤) د. جواد علي، المفصّل..، ١٩/١.

أما في سفر اشعيا فترى لفظة « عرب » إنّما « استعملت بمعنى بداوة وأعرابية، كالذي جاء فيه « ولا يخيم هناك أعرابي » [١٥]، « وحي من جهة بلاد العرب في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين » [١٦]. فقصد بلفظة عرب في هذه الآية الأخيرة البادية موطن العزلة والوحشة والخطر، ولم يقصد بها قوميّة وعلمية لمجلس معيّن بالمعنى المعروف اليوم » [١٧]. وبلاد العرب عند اشعيا تعني « البادية التي بين الشام والعراق وهي موطن الأعراب » [١٨].

وفي حزقيال إشارة إلى تجارة العبرانيين مع الأعراب، فيتكلّم على القيداريين الذين تاجروا مع العبرانيين بشتى أنواع المواشي. قال: « العرب ـ أي البدو ـ وجميع رؤساء قيدار هم تجّار يدك بالحملان والكباش والتيوس. فإنّهم بهذه اتّجروا معك. تجّار شبأ ورعمة[١٩]، متجرون معك، وبأفضل كل طيب وبكل حجر كريم وبالذهب.. » [٢٠]. الاّ أنّ هذه التجارة المتبادلة بين العرب والعبرانيين كانت في زمن السبي، إذ تخلّف بعض اليهود المسبيين عن العودة إلى أورشليم وفلسطين، فطاب لهم العيش في البادية، أو اجبروا على البقاء فيها، لمراقبة الأعراب أو للانتفاع منهم.

* * *

أمّا أسماء « العرب » التي وردت في التوراة، على لسان العبرانيين، فهي لهم أوصاف أكثر منها أسماء علمية. وكان أوّل ما وصفوا به أنّهم « أبناء المشرق »،

(١٥) اشعيا ٢٠/١٣.
(١٦) اشعيا ١٣/١١.
(١٧) جواد علي، المفصّل، ١٨/١.
(١٨) المرجع نفسه، ١٩/١.
(١٩) موضع في جنوبي الجزيرة العربية.
(٢٠) حزقيال ٢١/٢٧ ـ ٢٤.

وبالعبـرية « بيـن قـدم »: Bene Qedem [٢١] و « قـدمونيت » Qadmonites [٢٢]، و « قـدموت » Qédémot [٢٣].. وهـي صـفات أطلقـت علـيهم نسـبة إلـى مسـاكنهم شـرقي بـلاد العبرانيين[٢٤]. و « كانت عادة القدماء في تسمية الأمم بمساكنهم بالنظر إلى غروب الشمس أو شروقها. ولذلك كان العبرانيّون يسمّون « العرب » أهل المشرق בניקרם لأن مقامهم في تلك البادية يقع شرقي فلسطين » [٢٥].

« أبناء المشرق هؤلاء، وصفتهم التوراة بأنهم عشائر بدويّة، يعيشون في الصحراء يربّون الجمال، ويرعون الأغنام، ويمارسون الغزو، ويسكنون الخيام، حياتهم حياة نهب وسلب، لا يعرفون السلام ولا الاستقرار. قال فيهم سفر القضاة: « وبنو المشرق يخرجون عليهم (على الاسرائيليين)، ويجيشون عليهم، ويفسدون غلّة الأرض، إلى مدخل غزة، ولا يبقون ميرة في إسرائيل ولا غنماً، ولا بقراً ولا حميراً، لأنهم كانوا يصعدون بماشيتهم وخيامهم، ويأتون في مثل كثرة الجراد، بحيث لا يعدّون هم ولا جمالهم، ويأتون الأرض ويفسدونها » [٢٦].

ثم أصبحوا فيما بعد يعرفون بـ« الاسماعيليين » [٢٧]، وقد نظر إليهم العبرانيون نظرة عداء، لأنّهم كانوا يتحرشون بهم، ويغيرون عليهم، ويتعرضّون لتجارتهم. وهم على شكل قوافل تجارية، كانت تؤمّ مصر للبيع والشراء. ووصفوا بساكني

---

(٢١) انظر هذا التعبير في: تكوين ١/٢٩، قضاة ٣/٦، ٣٣، ١٢/٧، ١٠/٨، ٣ ملوك ١٠/٥، أيوب ٣/١، أشعيا ١٤/١١، ارميا ٢٨/٤٩، حزقيال ٤/٢٥ و١٠.

(٢٢) تكوين ١٩/١٥.

(٢٣) تثنيه الاشتراع ٢٦/٢، يشوع بن نون ٨/١٣، ٣٧/٢١، ١ أخبار ٦٤/٦.

(٢٤) J. SIMON, *The Geographical and Topographical Texts of the Old Testament*, p. 13.

(٢٥) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤٨.

(٢٦) قضاة ٣/٦، انظر: تكوين ١/٢٩، عدد ٧/٢٣، حزقيال ٤/٢٥ و١٠.

(٢٧) نسبة إلى اسماعيل بن ابراهيم الذي عاش في الصحراء واستوحش.

الخيام، وبرعاة الإبل. وقصّتهم مع يوسف بن يعقوب شهيرة. وقد ذُكر اسمهم في التوراة تسع مرات[٢٨].

وعرفوا أيضاً بـ« الهاجريين »، ووصفوا بساكني الخيام، والغزاة، وأصحاب النهب والسلب، ويملكون سرحا كثيرا ومراع عديدة[٢٩]. أمّا اسم « أنباط » فقد أطلق عليهم في جيل متأخر جداً، في سفر المكابيين[٣٠]، وذلك بعد أن أصبحوا أسياد الأردن وبلاد الشام[٣١]. إلاّ أنه قبل ذلك لم يعرفوا بأنّهم كذلك. ويتبرّأ الانباط من انتمائهم إلى العروبة التي لم يعرفوها.

* * *

أما التلمود والمشنا فيقصدان بلفظتي « عربيم » و « عربئيم » الأعراب، الذين يعيشون حياة البدو والفقر، بمقابل حياة الحضارة والترف. والمعروف أيضا أنّ العبرانيين، عندما كانوا يتحدّثون عن أهل الحضر كانوا يذكرونهم بأسمائهم وأسماء قبائلهم وممالكهم، وانتسابهم وأرضهم التي يقطنون فيها؛ وكانوا يحتفظون بلفظة « عربئيم » للبدو فقط.

وعند يوسيفوس المؤرخ اليهودي أنّ العرب « قوم لا يعرف أصلهم، جاءوا من الشرق (إلى مصر)، وتجاسروا على محاربتنا، وغلبونا على بلادنا، وأذلّوا ملوكنا، وأحرقوا مدننا، وهدموا هياكلنا وآلهتنا، وساموا الناس ذلاً وخسفاً، وقتلوا الرجال، وسبوا النساء، والأولاد.. ولم يكفّوا عن محاربة المصريين، لأنّهم كانوا يلتمسون

---

(٢٨) انظر: تكوين ٢٥/٣٧ و٢٧ و٢٨، ١/٣٩، قضاة ٢٤/٨، ٢ ملوك ٢٥/١٧، ١ أخبار ١٧/٢. ٣٠/٢٧، مزمور ٧/٨٣...

(٢٩) سبع مرات: ١ أخبار ١٠/٥ و١٩ و٢٠، ٣١/٢٧، مزمور ٧/٨٣، ١ مكاب ٢٥/٥.

(٣٠) انظر ١ مكابيين ٢٥/٥، ٣٥/٩، و٢ مكابيين ٨/٥، ١٠/١٢.

(٣١) *TOB*. sur 1 *Mac*. 5/25...

إبادتهم. وكانت هذه الأمّة تسمى هيكسوس Huksos أي ملوك الرعاة... ولكنّ البعض يقولون إنهم عرب » (٣٢).

* * *

فسكان « غربي الفرات » إياهم يُسمّون عند العبرانيين « أبناء المشرق »، وذلك لوقوعهم شرقي بلاد فلسطين وأرض كنعان. وحتى « اليوم، إذا سمعت بدويّاً يقول إنّه مشرّق فهمت منه أنّه ضارب في البادية مهما كان اتجاهه فيها. وكان أيّوب « أعظم أبناء المشرق جميعاً » (٣٣)، أي أبناء البادية. ولعلّ المجوس الذين أقبلوا من المشرق إلى أورشليم(٣٤) كانوا بدواً من البادية في الشمال، لا مجوساً من فارس » (٣٥).

---

(٣٢) FLAVIUS JOSEPHE, *La Guerre Juive contre les Romains*, I, 19.
(٣٣) سفر أيوب ٣/١.
(٣٤) انجيل متى ١/٢.
(٣٥) فيلب حتي، تاريخ العرب، ص ٧٤.

ثالثاً: العروبة عِند اليونَان والرومَان

في الأدب اليوناني، يطلق هيرودوتس أب التاريخ (+ ٤٢٤ ق. م.)، وهو أوّل من تعرّف على بلاد العرب، اسم « عرب » على البادية والبلاد التي تقع إلى الشرق من نهر النيل حتى ضفاف الفرات. ولكنّه يقول بأنّ البلاد التي تقع ما بين دجلة والفرات هي بلاد حضارة وأرض خصب، لم تلزمها العروبة بشيء، إلاّ إذا حدث غزو من الصحراء بدافع ما[١]. وأمّا عن مصر فيقول « إن مصر لا تشبه بشيء بلاد العرب الملتصقة بها » [٢]. لكنّ جبل سيناء، مع كونه في صحراء سيناء شمالي نهر النيل، فهو يحسبه من بلاد العرب، أي من الصحراء القاحلة.

ويبدو أن القسم الأهم من الجزيرة العربية، وهو القسم الجنوبي، لم يكن، أيّام اليونان، يلتحق بالجزيرة. « أما جنوبي جزيرة العرب، بين خليج فارس والبحر الأحمر، فكان اليونان القدماء يعدّونه من أثيوبيا (الحبشة)، فيجعلون الحبشة واليمن وضفاف خليج فارس اقليماً واحداً يسمونه « أثيوبيا آسيا » [٣] وسكانه أمم وقبائل تعرف بأسماء خاصّة بها، كالسبأيين والحميرين والمعينيين وغيرهم.. » [٤]... وهكذا تضطرب حدود « العرب » مع اليونان الأقدمين، باضطراب الحضارة وتوسّعها.

وكذلك فهم الرومان بالعروبة على أنّها البداوة والحياة الصحراوية. وبلاد العرب

---

(١) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢٢/١.
(٢) انظر تاريخ هيرودوتس، الكتاب ٢، فقرة ٨ و١١.
(٣) المرجع نفسه، كتاب ٢، فقرة ١٢.
(٤) RAWLINSON, *Five great Monarchies*, in 4 vol. London, 1867; I, p. 61.

هي بلاد البدو، و « سكانها هم عرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم، على سبيل التغليب، لاعتقادهم أن البداوة كانت هي الغالبة على هذه الأرضين. فأطلقوها من ثمّ على الارضين المذكورة » [٥]، أي على بلاد الحجاز وبريّة الشام وسيناء.. بل على كل بريّة وبادية في أي مكان كان. ويسمّي سترابون جملة دول وممالك عرّف عنها بأسمائها فقط دون أن يعتبرها أو أن يصفها « عربية » [٦].

* * *

ويبدو من مجمل الآداب اليونانية واللاتينية أن « العرب » هم الشعوب الذين عناهم الآراميون والبابليون باسم « الغربيين »، أو الذين عناهم العبرانيون بـ« الشرقيين ». ونحن نرى اللفظتين معاً يستعملهما اليونان والرومان: لفظة « عرب » Arabae و Arabia، ولفظة « شرقيون » Sarakenoi وهي تحريف للفظة « Sharky » « بمعنى شرقي » [٧]؛ وقد عرف المسعودي هذه اللفظة اليونانية « ساراقينوس » التي تطلق على العرب[٨]. ثم استعمل اليونان والرومان أيضاً، وعلى السواء، لفظة Scenitae أو Skénitai من لفظة Skene أو Skynai وهي « الخيمة ». وجاءت عند Strabon بهذه الجملة: Arabae Skénitai et

(٥) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤٢.
(٦) STRABON, Géographie, III, 355.
(٧) « Dans le lointain passé, les Arabes ont été connue des Grecs d'après Ammien Marcellin, sous le nom de *Sarakenoi* (GERARD WALTER, *La Montée Sassanides*, 1964, p. 174). Le mot pourrait dériver de l'appellation de *Sharquioûn* (Orientaux), qu a dû leur être appliquée » (Ed. RABBAT, *L'Orient chrétien à la veille l'Islam*, p. 202). Voir aussi MUSIL, *Arabia Deserta* p. 311;
انظر أيضاً: مجلة الهلال سنة ٦ عدد ٨ سنة ١٨٩٧، ص ٢٩٦؛ والمشرق، سنة ٧ عدد ٧، ص ٣٤٠؛ ومجلة لغة العرب، عدد ٤ سنة ١٩٢٩، ص ٢٩٣.
(٨) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ١٤٣.

Camelorum Pastores أي « العرب سكان الخيام ورعاة الجمال » [٩]. ويحدّد سترابون منازلهم على حدود سوريا الشرقية في شمالي « العربية السعيدة » [١٠]، وفي مكان آخر يعتبرهم من بدو العراق[١١]. وذكرهم أيضا Pline على أنهم من سكان البادية، أية بادية، في غربي الفرات أم في صحاري الجزيرة العربية، أم في بادية الشام، أم في صحراء سيناء...[١٢].

وبهذا المعنى جاء قول القديس بولس عن « سيناء جبل في بلاد العرب » [١٣] أو، بحسب تفسيرات أخرى للكتاب المقدس: « هاجر تمثّل سيناء في اللغة العربية » [١٤]. وفي أعمال الرسل، بعد أن يعدّد جميع الشعوب الغريبة عن أورشليم، وعددها ستة عشر، يذكر في آخرها العرب؛ وهو، بهذه اللفظة يقصد و « سائر البدو » أي الشعوب المتبدية المتخلفة[١٥].

وهكذا تشمل العروبة، في الأدب اليوناني والروماني، كل بادية، « فصارت لفظة عرب عندهم علماً على الأرضين المأهولة بالعرب، والتي تتغلب عليها الطبيعة الصحراوية، وصارت كلمة عربي عندهم علماً للشخص المقيم في تلك الأرضين من بدو ومن حضر » [١٦]. وربما يكون الأثر الآرامي في تسمية هذه الشعوب

---

(٩) STRABON, *Gégr.* XVI, 2. انظر: VAN DEN BRANDEN, *Hist. de Thamoud*, p. 11.
(١٠) المرجع نفسه I, 196, 441
(١١) المرجع نفسه .III, 166, 190, 204
(١٢) PLINY, 6, 143
(١٣) غلاطيين ٢٥/٤.
(١٤) « Car le Sinaï est en Arabie »; Variante: « Agar représente le Sinaï en Arabie » (ou: « en langue arabe » (*Bible de Jérusalem*, note sur Galates 4/25). Voir aussi *TOB* où il est dit sur le même verset: « Le mont Agar, dans certains mss, se trouve au début de ce verset qu'il faut alors traduire: Car ce nom, Agar, représente le mont Sinaï en Arabie et cette femme correspond à la Jérusalem actuelle, puisqu'elle est esclave avec ses enfants. »
(١٥) أعمال الرسل ١١/٢.
(١٦) جواد علي، المفصّل...، ٢١/١ ـ ٢٢.

بـ« العرب » في الآداب اليونانية والرومانية معاً هو الأثر النافذ في ذلك، والمتغلب على سائر الأسماء.

* * *

يتضح ممّا تقدم بأن لفظة « عرب » ومشتقاتها لا تعني، في الحضارات القديمة، عرقا أو جنساً لشعب معيّن، أو لأرض خاصّة. « العرب » صفة لشعب يسكن غربي الفرات ويعيش في البادية، أو يعيش حياة بدوية، فقيرة، بدائية... وبما أن هذا النوع من الحياة يكون في البادية الصحراوية، وبالأخص في الصحارى المسماة اليوم « عربيّة »، أصبحت العروبة وكأنها اسماً عَلماً لهؤلاء السكان. فيما الحقيقة، أن العروبة، في معناها الأولي والأصيل، هي صفة لهؤلاء الشعوب الذين يعيشون غربي الفرات، في حياة بدوية بدائية. ثم أصبح الاسم يدلّ على كل ساكن بادية.

رابعاً: العروبَة في العربيَّة القديمَة

في النصوص القليلة الباقية من مختلف أنحاء الجزيرة المسماة عربية، والتي تشير، من قريب أو بعيد، إلى « العرب »، لا نجد نصّاً واحداً يتكلم عليهم كشعب واحد، متضامن، ينتسب إلى عرق واحد، أو يتميّز بأثنيّة معينة، أو بهويّة خالصة. أكثر ما في هذه النصوص يتكلّم على قبائل بدويّة تعيش حياة رديئة، تسعى وراء الإبل والأغنام، وتسكن الخيام، وترحل باستمرار، وتترقّب المطر أنّى يتساقط، لتجد لها مرعى وماء لتتمكن من بعض العيش.

١ ـ ففي نصوص **المنطقة الجنوبيّة للجزيرة**، أعني في كتابات معين وقتبان وحضرموت وسبأ وحمير وغيرها « وردت لفظة « أعرب » بمعنى « أعراب »، ولم يقصد بها قوميّة، أي علم لهذا الجنس المعروف، الذي يشمل كل سكان بلاد العرب من بدو ومن حضر »[١]. ولفظة « عرب » جاءت بمعنى « الأعراب »، أي البدو، سكان البادية. وأما أهل المدن والممالك التي قامت في العربيّة الجنوبيّة، فكانوا يعرفون بمدنهم وبممالكهم. و « لهذا قيل: سبأ، وهمدان، وحمير.. وقبائل أخرى، بمعنى أنّها قبائل مستقرّة متحضّرة، تمتاز عن القبائل المتنقّلة المسماة « اعرب » في النصوص العربيّة الجنوبيّة، ممّا يدلّ على أنّ لفظة « عرب » و « العرب » لم تكن تؤدي معنى الجنس والقومية، وذلك في الكتابات العربيّة الجنوبية المدوّنة الواصلة إلينا إلى قبيل الإسلام بقليل سنة ٤٤٩ ـ ٥٤٢ م »[٢].

---

(١) جواد علي، المفصّل..، ٢٣/١.
(٢) المرجع نفسه.

ولهذا أيضاً كان السبأيّون، مثلاً، إلى تاريخ الميلاد، إذا ذكروا بعض قبائل الحضر وبدوها، قالوا: « القبيلة الفلانيّة وأعرابها » [٣]. وكان الحميريون يطلقون على ملوكهم لقب: « ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات (أي اليمن) وأعرابهم » [٤]... وفي هذا دليل على أنّ « أهل اليمن حضر من أقدم زمانهم، ولذلك لم يطلق عليهم اسم العرب قديماً » [٥]. ومن ذلك قول ملك من ملوك حمير لأحد البدو. قال: « ليس عندنا عربيت... » [٦]، وهو قول قديم يشير إلى أنّ أهل اليمن، في عهد مملكة بني حمير، لم يكونوا عرباً، ولم يتّصفوا بصفات العروبة. وفي قوله يعني أنّ العروبة لا تكون إلاّ في البادية، لأنّ ياقوت الحموي ينقل إلينا كتابة من على جدار سور في « ظفار » عاصمة الحميريين، وفي الكتابة نسبة أهل اليمن إلى شعوب أمّتها من كل ناح ما عدا الناح العربي. قالت: لمن ملك ظفار ؟ لحمير الأخيار. لمن ملك ظفار ؟ للحبشة الأشرار. لمن ملك ظفار ؟ لفارس الأحبار ؟ لمن ملك ظفار ؟ لحمير سيحار » [٧].

ثمّ إن لغات المنطقة الجنوبيّة لم تتّصف يوماً بالعربية، ولم تصنّف على أنّها عربيّة، بالمعنى المتداول اليوم للعربية. وكذلك قلم هذه اللغات لا يشبه بشيء قلم اللغة العربية المعروفة اليوم. ولا القلم العربي المتداول يشبه بشيء قلم لغات اليمن القديمة، المسمّى « المسند » [٨].

٢ ـ وأمّا في **المنطقة العربيّة الوسطى**، حيث نجد وتهامة والحجاز، وحيث الحياة البدويّة في حقيقتها، لم يصل إلينا أي نصّ يحمل في كلماته لفظة « عرب »

---

(٣) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤٢.
(٤) بدأ هذا اللقب يظهر في أواخر القرن الأول قبل الميلاد. انظر جواد علي، المفصّل، ٤١٦/٢ ـ ٤١٧.
(٥) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢١٥.
(٦) ياقوت، معجم البلدان، ٦٠/٤، مادة « ظفار »، و « عربيت يريد بها العربية في لغة حمير ».
(٧) معجم البلدان، ٦٠/٤.
(٨) انظر لائحة الأقلام المقارنة في فصل « اللغة العربيّة ».

ومشتقّاتها. وليس ما يشير إلى وجود اللفظة في لغاتها الثمودية والديدانية واللحيانية والصفوية إلاّ ما قيل عن يوم « العروبة »، أي يوم « الجمعة ». وحتى هذه الكلمة لا نجدها إلاّ في مصادر وضعت بعد الإسلام بقرون.

أمّا ما قيل في القرآن عن « العرب » و « الأعراب » و « اللسان العربي » الذي هو لسان القرآن، فهو من مؤثّرات العربيّة الشماليّة التي سيأتي الكلام عليها. وعلى افتراضنا أنّ اللفظة التي يستعملها القرآن، لا بدّ أن تكون متداولة ومعروفة في بيئته وعصره، ولكنّها، في كل حال، كما سنرى، لا تعني شعباً معيّناً، ولا تفيدنا عن قوم لهم عرق أو اثنية تعرف بـ« العربيّة ».

ثمّ إن لغات هذه المنطقة الوسطى لا تشبه بشيء اللغة العربيّة المعروفة لدينا وقلمها بعيد كل البعد عن قلم عربيّة القرآن، بل هو مأخوذ مباشرة من القلم المسند، ويشبهه إلى حدّ بعيد. ويعرف بالقلم « الجزم » [٩].

٣ ـ أما في **كتابات المنطقة الشمالية للجزيرة** وفي مناطق الهلال الخصيب فليس لدينا غير نصّ واحد، وهو النصّ الذي يعود إلى امرئ القيس بن عمرو سنة ٣٢٨ م. أحد ملوك اللخميين في مملكة الحيرة، وهو في الحرف النبطي واللسان العربي الشمالي، وسنذكر هذا النص بصورته وبكامله فيما بعد ـ وقد ورد فيه تعبير « **مر القس بر عمرو ملك العرب كله** »، أي « امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم ». ولكننا « لا نستطيع أن نقول: إن لفظة « العرب » هنا يراد بها العرب بدواً وحضراً، أي يراد بها العلم على قومية؛ بل يظهر من النص، بوضوح وجلاء، أنه قصد « الأعراب »، أي القبائل التي كانت تقطن البادية في تلك الأيام » [١٠]، أو

---

(٩) الملاحظة نفسها.
(١٠) د. جواد علي، المفصّل...، ٢٣/١.

أيضاً المقصود بهم « القبائل التي كانت تقطن « غربي الفرات » حيث كان المناذرة يسيطرون ويمدّون نفوذهم أيام امرئ القيس.

٤ ـ أما الممالك التي تعاقبت على القسم الشمالي من الجزيرة المسماة عربية، كالأنباط والتدمريين والغساسنة والمناذرة...، فلم يعرف على أنها كانت تتصف بـ« العروبة ».

أ ـ فدولة **الأنباط** و « هي دولة عربية لم يعرفها العرب. ولا وجدنا لها ذكراً في كتبهم » [١١]. تتكوّن « من قبائل آرامية عراقيّة جاء بهم نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد لمّا اكتسح فلسطين فأنزلهم في بطرا وما يليها[١٢].. هاجرت بسبب من أسباب الهجرة القاهرة، وتاهت في الصحاري، وابتعدت عن مواطنها الحضارية الأصليّة، ثمّ استقرّت على الطرق التجاريّة التي تربط الجزيرة ببلاد الشام. وكان أهمّ مكان استقرّت فيه واستوطنت ووجدت لقمة العيش مكاناً يسمّى « الحجر » أو « بترا ».

ولما اشتدّ أمر الأنباط، وجمعوا شتاتهم، ونالوا من القوافل التجارية أرباحاً وافية، راحوا هم، بدورهم، يتعاطون التجارة بين ميناء غزّة و « الجزيرة العربية » وبلاد الشام، واستطاعوا التغلب على الأدوميين[١٣]. وشنّوا عليهم هجمات متتالية، واستولوا على عاصمتهم « البترا »، واتخذوها قاعدة لهم، و « هي عند ملتقى جميع

---

(١١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٩١.

(١٢) ج. زيدان، المرجع نفسه، ص ١٠٤ معتمدا على كوسّان دي بورسيفال.

(١٣) « الادوميون » جماعة سكنت بين البحر الأحمر وخليج العقبة في الغرب، ثم في غرب وادي الملح، انظر: يشوع بن نون ١/١٥ و٢١، قضاة ٣٦/١. وعرفوا بأنباء سعير: ٢ أخبار ١١/٢٥ و١٤. وجبالهم سعير: ٢ أخبار ١٠/٢٠ و٢٢ ـ ٢٣، الجامعة ٢٦/٥٠. في عهد القضاة حاولوا السكن في جنوبي اليهودية: قضاة ٨/٣ ـ ١٠ فحدث بينهم وبين شاوول حروب: ١ ملوك ٤٧/١٤، وغزاهم دواد الملك: ٢ ملوك ١٣/٨ ـ ١٤، ٣ ملوك ١٥/١١ ـ ١٦، مزمور ٢/٦٠، ١ أخبار ١١/١٨، تزوّج سليمان من بناتهم: ٣ ملوك ١/١١. بعد خراب الهيكل سنة ٥٨٧ احتلّوا جنوبي فلسطين حتى حبرون. وحدث بينهم وبين الأنباط حروب خسروا فيها كيانهم.

القوافل، بين تدمر وغزّة وخليج فارس والبحر الأحمر واليمن » [١٤]. وتملكوا العربيّة الصخريّة، واستوطنوا جنوبي شرقي فلسطين، واستحكموا بجميع القوافل المارّة عبر بلادهم، وفرضوا عليهم الضرائب، حتى عظمت شوكتهم، وقويت دولتهم.

تكلّم الأنباط اللغة الآرامية التي أخذوها عن جيرانهم في الشمال. وأشار ديدورس الصقليّ إلى كتاب تسلمه النتغونس منهم « بالحروف السريانية » [١٥]. « ثمّ تطوّر الخط النبطي الذي نقل عن الآرامي، وأصبح في القرن الثالث للميلاد الخطّ المألوف في لغة عرب الشمال، أي لغة القرآن، ولغة العصر الحاضر » [١٦]. وتميّزت حضارتهم بسمة هلّنستية زاهية. واعتنقوا المسيحية منذ فجر المسيحية، وكانوا على الشيعة النصرانيّة، أي يهودية متنصّرة، لجأوا إلى « الحجر » بعد خراب هيكل أورشليم في سنة ٧٠ م. وبقوا على نصرانيتهم حتى مجيء الإسلام.

لم يكن الأنباط على صلة ودّ بالقوافل التجارية الآتية من الصحراء، لأنّهم قطعوا عليها تجارتها مع بلاد الشام. وفرضوا عليها الضرائب. لذلك « تبرأ العرب منهم، وعيّروا بهم، وأبعدوا أنفسهم عنهم، وعابوا عليهم لهجتهم، حتى جعلوا لغتهم من لغات العجم.. وسبب ذلك أنّهم كانوا قد تثقّفوا بثقافة بني رام، وكتبوا بكتابتهم، وتأثّروا بلغتهم، حتى غلبت الأرميّة عليهم، ولأنهم، فضلاً عن ذلك، خالفوا سواد العرب باشتغالهم بالزراعة وبالرعي، وباحترافهم للحرف والصناعات اليدويّة » [١٧]. التي كانت مكروهة عند العرب. ثم تثقفوا بثقافة اليونان والرومان، وتحضّروا بتأثيرهم، وحملوا تقاليدهم وعوائدهم وأنواع عباداتهم، وكانت حضارتهم تقوم على ما لم يُعرف عند « الأعراب » اطلاقاً، مثل الزراعة وتحصين القلاع،

---

(١٤) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٩٢ ـ ٩٣.
(١٥) ديودورس، الكتاب ١٩، فصل ٩٦..
(١٦) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ١٠٥. انظر فصل: في اللغة العربية.
(١٧) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣/٥.

وتحت الصخر، وحفر خزانات المياه، وتشييد القصور، وبناء الحصون، وعبادة آلهة غريبة عن آلهة العرب... وغير ذلك.

ب ـ أمّا **تدمر** فقد نشأت « بين دولتين متطاحنتين: دولة الفرثيين ودولة الرومان. فاضطرّت إلى ضمان الأمان لنفسها بتوخّي التوازن بين هاتين الأمّتين والسعي للانتفاع من حيادها » [١٨]. تدمر « مدينة قديمة مشهورة في بريّة الشام، بينها وبين حلب خمسة أيام[١٩]. تقع على ملتقى طرق القوافل التجاريّة المارّة عبر الصحراء بين آسيا وموانئ المتوسّط. و « تبوأت هذه القاعدة الصحراوية طوال القرن الثاني والثالث للميلاد أعلى مراتب الثروة والجاه بين مدائن الشرق » [٢٠]. وفي مطلع القرن الثالث صارت تدمر مستعمرة رومانيّة أيّام سبتيموس ساويروس (+ ٢١١ م.) « وقد أصبحت الوارث الحقيقي للبتراء » [٢١].

لقد كانت تدمر، خلال تاريخها المديد، حذرة جدّاً من هجوم الأعراب عليها. فهيأت جيوشاً استطاعت بها « الهيمنة على أبناء البادية الجياع إلى الغزو والسلب ونهب القوافل » [٢٢].

حضارة تدمر مزيج من العناصر اليونانية والرومانية والشرقية، أي الآرامية والفارسية، ثم العربية الإسلامية التي لم تظهر إلاّ بعد احتلال المسلمين على يد خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م. وفي آثارها « كتابات بالآرامية واليونانيّة واللاتينيّة والعبرانيّة » [٢٣]. ولكن ليس من أثر واحد في أرضها وخرائبها نراه بالقلم العربي،

---

(١٨) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ١١١.
(١٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١٧/٢. مادّة: تدمر.
(٢٠) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ١١١.
(٢١) المرجع نفسه، ص ١١٢.
(٢٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب..، ٨٢/٣.
(٢٣) المرجع نفسه، ٨٢/٣.

حتى بعد فتح المسلمين لها. وآثار تدمر آرامية[٢٤]، ولغتها آرامية، وقومها من أصل آرامي، من بلاد ما بين النهرين، جيء بهم عيوناً ورقباء على تحركات الأعراب في تخوم الدولة الرومانيّة الشرقيّة. اعتنقوا المسيحية منذ فجر مبكر، وكان عليها أساقفة علماء اشتركوا في مجامع كنسيّة مسكونيّة عديدة.

هكذا تميزت تدمر، بلغتها، وآثارها، وديانتها، وانتماءاتها، وأدوارها السياسيّة... عن كل من حولها من بدو أعراب. بل كانت في الصحراء لأجل محاربة الأعراب، ولأجل تأمين خطوط التجارة بين الشرق والغرب، وما يتبع التجارة من حضارة مميّزة لم يعرفها أبناء الجزيرة العربيّة في تاريخهم.

ج ـ وبقي علينا أن نشير هنا إلى دور **المناذرة والغساسنة** كحضارتين مهمّتين في أثرهما على العروبة... ولكنّنا، لأهميّة هاتين الحضارتين، سنترك الكلام عليهما إلى كلامنا على اللغة والقلم العربي، لظننا أنّ أعظم أثر تركته هاتان الحضارتان في « العروبة » لا يضاهيه أثر آخر، مهما بلغ شأوه. ولعلّ « العروبة » في أصلها وفصلها وتاريخها وحضارتها وعباداتها ولغتها وقلمها ومعانيها مدينة للمناذرة والغساسنة ورجالهما. ولعلّ قريشاً لم تقم الا بمعونتهما.

٥ ـ بقي علينا أن نشير أخيراً إلى لفظة « عرب » في الكتابات المعروفة بالكتابات **« الحضر »**. لقد « وردت في النص الذي وسم بـ« ٧٩ » حيث جاء في السطرين التاسع والعاشر: وَبْجِنْدُا دَعْـرِبْ »، أي « وبجنود العرب » [٢٥]. و « بْحِطْرُوُ وَعْـرِبْ »، أي: « وبالحضر والعرب » [٢٦]. ووردت في النص « ١٩٣ »: « مَلْكُا

---

(٢٤) MUSIL, *Palmyrena*, p. 334; A. CONTINEAU, *Syria*, XIV, 1933, 179; JEAN STARCKY, *Palmyre*, Paris, p. 27. جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٢٠.

(٢٥) هي صيغة سريانية حيث لفظها وحرف « د » يشيران إليها.

(٢٦) مجلة سومر، السنة ١٩٦١، انظر أيضاً: *Die Araber*, IV, p. 243

دِي عْرِبْ »، أي: « ملك العرب ». وفي النص « ١٩٤ »، وفي نصوص أخرى[٢٧]. قد وردت اللفظة في كل هذه النصوص بمعنى « أعراب ». ولم ترد علماً على قوم أو جنس، أي بالمعنى المفهوم من اللفظة في الوقت الحاضر[٢٨].

---

(٢٧) نفس المرجع، وأيضاً:.p. 261
(٢٨) انظر جواد علي، المفصل، ٢٢/١، وأيضاً:.p. 269

خامساً: العروبَة في القرآن والحَديثْ

« والنص الوحيد الذي وردت فيه لفظة العرب عَلَماً على العرب جميعاً من حضر وأعراب، ونُعِتَ فيه لسانهم باللسان العربي، هو القرآن الكريم. ولقد ذهب د. هـ. ملّلر Müller على أنّ القرآن الكريم هو الذي خصّص الكلمة وجعلها علماً لقوميّة تشمل كل العرب. وهو يشكّ في صحة ورود كلمة « عرب » عَلَماً لقوميّة في الشعر الجاهلي، كالذي ورد في نصّ لامرئ القيس، وفي الأخبار المدوّنة في كتب الأدب على ألسنة بعض الجاهليين » [١].

لكنّ الحقيقة أنّنا نشك في قومية الاثنين معاً، أي: قوميّة عرب الجاهليّة، وقوميّة عرب القرآن. ونشكّ أيضاً في صحّة قول الدكتورين معاً، أي: قول الدكتور جواد علي، وقول الدكتور « مللّر ». فكلاهما يستشهد بآيات من القرآن، وكلاهما استدل بها على « علَميّة » العرب، في الوقت الذي لا تعني هذه الآيات إلاّ « وصفاً » لحياة شعب بدائي. والقرآن، في كل حال، لا يوجد فيه إطلاقاً اسم « عرب » دلالة على شعب. فهو يستعمل لفظة « أعراب » عشر مرّات فقط. و « عربي » كدلالة على لغة القرآن إحدى عشرة مرة. وها نحن ننقل هذه الآيات كلّها ليتأكد القارئ ممّا نقصد.

يقول القرآن في وصف لغته وتمييزها عن أيّة لغة أخرى « أعجمية » ما يلي:

---

(١) جواد علي، المفصّل، ٢٤/١.

« هذا لسان عربي مبين » [٢]، « نزل به الروح الأمين بلسان عربي مبين » [٣]، و « جعلناه قرآناً عربياً » [٤]، و « أنزلناه حكماً عربياً » [٥]، و « وأنّا أنزلناه قرآناً عربياً» [٦] ، « كتاب مصدّقاً لساناً عربياً » [٧]، « أوحينا إليك قرآناً عربياً » [٨]، و « قرآناً عربياً غير ذي عوج » [٩]، « أأعجمي وعربيٌّ! قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » [١٠]. هذا كل شيء عن « عربي » و « عربيا » ممّا نراه في القرآن. ولكن ما يعني هذا الكل ؟

لم يطلق القرآن لفظة « عربي » إلاّ على « اللغة ». وهو لا يتكلّم إطلاقاً على شعب عربي، أو أمة عربية، أو أرض عربية، أو حكم عربي، أو رجال عرب، أو بلاد عربية، أو دول عربية، أو خيول عربيّة، أو جيوش عربية، أو اقتصاد عربي... القرآن لا يتكلّم على عنصرية عربيّة، أو اثنية عربية، أو عرق عربي، أو جنس عربي... إنّه لا يستعمل لفظة « عربي » إلاّ في الكلام على اللغة التي نزل بها. فهو، بهذا، يقصد بأنّه لم « ينزل » بتلك اللغات التي نزل بها الوحي القديم، كاليونانية، والعبرانية، والآرامية، أو اللغات التي نقلت هذا الوحي القديم، كاللاتينية، والسريانية... هذه اللغات، سمّاها القرآن « أعجمية »، والشعوب التي كانت تتكلم بها سمّيت « أعجمية ». وهكذا أصبح كل من لا يتكلم العربية « أعجمياً، أي أعجمي اللسان، وكل أعجمي اللسان هو كل شعب لا يتكلم

---

(٢) سورة النحل ١٠٣/١٦.
(٣) سورة الشعراء ١٩٥/٢٦.
(٤) سورة الزخرف ٣/٤٣.
(٥) سورة الرعد ٣٧/١٣.
(٦) سورة يوسف ٢/١٢، سورة طه ١١٣/٢٠.
(٧) سورة الأحقاف ٢/٤٦.
(٨) سورة الشورى ٧/٤٢.
(٩) سورة الزمر ٢٨/٣٩.
(١٠) سورة فصلت ٤٤/٤١.

العربية. فلا « الأعجمية » إذن واضحة، ولا « العربية » أيضاً. وكما « الأعجمية » [١١] لا تعني شعباً معيّناً، هكذا « العربية » أيضاً لا تعني شعباً معيناً. الأعجمية صفة كل لغة غير عربية، وبالتالي صفة كل شعب غير عربي. والعربية صفة لغة القرآن، وبالتالي لا تحدّد شعباً معيناً.

* * *

لكنّ في القرآن تعبيراً آخر، هو « الأعراب ». هؤلاء يعتبرهم القرآن جماعة موصوفين بكل ما للحياة البدوية البدائية من صفات. والآيات العشر التي ترد فيها هذه اللفظة هي التالية:

« وجاء المُعذِّرون من الأعراب لِيُؤذنَ لهم. سيَصُيبُ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم » [١٢]. « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً. وأجدرُ ألاّ يَعلَموا حدودَ ما أنزل اللهُ على رسوله » [١٣]. و « مِن الأعراب مَن يَتّخِذُ ما يُنفِقُ مَغْرَماً ويَتربّصُ بكم الدوائرَ. عليهم دائرة السَّوء » [١٤]. و « ممّن حولكم من الأعراب منافقون، مَرَدُوا على النفاق.. سنعذّبهم مرّتين » [١٥]. « ما كان لأهل المدينة ومَن حولهم من الأعراب أن يتخلّفوا عن رسول الله » [١٦]. « أن يأت الأحزاب يودّوا لو أنّهم بادون في الأعراب » [١٧]. « سيقول لك المخلَّفون من الأعراب شَغلَتْنا أموالُنا وأهلونا. يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » [١٨]. « سيقول المخلّفون: إذا انطلقتم إلى مغانِمَ لتأخذوها! ذَرُونَا نَتَّبِعْكم...

(١١) أعجمية: ٥ مرّات: النحل ١٠٣/١٦، فصلت ٤٤/٤١، مرّتان، الشعراء ١٩٨/٢٦.
(١٢) سورة التوبة ٩/ ٩٠.
(١٣) سورة التوبة ٩/ ٩٧.
(١٤) سورة التوبة ٩/ ٩٨.
(١٥) سورة التوبة ٩/ ١٠١.
(١٦) سورة التوبة ٩/ ١٢٠.
(١٧) سورة الأحزاب ٣٣/ ٢٠.
(١٨) سورة الفتح ٤٨/ ١١.

قل للمخلّفين من الأعراب...» [١٩]. « قالت الأعراب آمنا. قل: لم تؤمنوا. ولكن قولوا: أسلمنا. ولمّا يدخل الإيمانُ في قلوبهم » [٢٠]. « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الأخير » [٢١].

أوصاف هؤلاء « الأعراب » هي هذه: إنّهم منافقون، كفّار، متخلّفون، معتذرون عن الرسالة، مؤمنون في الظاهر، غارقون في البداوة؛ يجاهدون مع المسلمين في سبيل المغانم فقط لا في سبيل الله؛ تشغلهم أموالهم؛ يهتمّون بالتجارة؛ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ يتمادون في النفاق؛ لا يحقّ لهم معرفة أحكام الله وحدوده وشرائعه؛ هم جلفاء الطبع، غليظه؛ فنصيبهم، لا محالة، العذاب.

ولكن، مَن هم هؤلاء « الأعراب » الذين بهذه الأوصاف ؟ الحقيقة ليسوا هم على جنس معيّن. تراهم تارة في غزوات النبي، في بدر، وخيبر، والحديبية؛ وطوراً تراهم « مع بني حنيفة أصحاب اليمامة » [٢٢]، أعداء الإسلام، ومرة أخرى تراهم مع أهل « فارس والروم » [٢٣] الخ... هم إذن من كل جنس وعرق، ومن كل مكان وفي كل مكان. أعني هم « البدو » من كل الشعوب. هم سكان الصحاري، « أراذل »، و « أذلة »، و « أرذلون »، بحسب تعبير القرآن نفسه[٢٤]؛ وهم « خلعاء » « طرداء » « صعاليك » « مضطهدون » « عصابات السوء » و « ذؤبان البادية » بحسب تعبير كتب الأدب والتاريخ.

---

(١٩) سورة الفتح ١٦/٤٨ و١٧.
(٢٠) سورة الحجرات ١٤/٤٩.
(٢١) سورة التوبة ٩٩/٩.
(٢٢) تفسير الجلالين على ١٦/٤٨.
(٢٣) تفسير الجلالين على ١٦/٤٨.
(٢٤) انظر: ١١١/٢٦؛ ٢٧/١١؛ ١٢٣/٣؛ ٥٤/٥؛ ٣٤/٢٧ و٣٧.

ومع هذا ان « ما يقال في المعاجم العربية من أن هناك فرقاً بين كلمتي عربي وأعرابي، وتخصيص الأولى بسكن المدن والثانية بسكان البادية، فلم يحدث إلا في عصور قريبة من ظهور الإسلام. أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرق مطلقاً، بل كان كل من الكلمتين يدل على سكان البادية فحسب. أما سكان المدن والأمصار فكانوا ينسبون إلى قبائلهم، أو يعرفون بمناطقهم » [٢٥].

* * *

وفي الأحاديث النبويّة لا يقلّ شأن « العرب » أو الأعراب عمّا هم في القرآن من نفاق وكفر وجلافة طبع. لقد اشتهر عن الرسول قوله: « من بدا جفا » [٢٦]، أو « من سكن البادية جفا » [٢٧]. وفي معاملته معهم ومعرفته بهم قال: « إن جار البادية يتحوّل عنك » [٢٨]، أي إنّ البدوي يتخلّف عمّا تطلبه منه. وكل أمّة « تلحق بالبادية هلكت » [٢٩]. لهذا لا تجوز شهادة بدويّ على صاحب قرية » [٣٠]، أي على حضري. وعن عائشة قالت: « قدم ناس من الأعراب على رسول الله (ص) فقالوا: أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا: نعم. قالوا: لكنّا، والله، ما نقبل. فقال رسول الله (ص): أوأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة! أي من قلوبكم » [٣١]. وأشهر ما ورد على لسان الرسول قوله: « الكبائر ثلاث... منها التعرّب بعد الهجرة » أي العودة إلى العروبة بعد الإسلام.

هذه الأحاديث النبوية تدلّ بوضوح على اعتبار النبي للأعراب سكان البادية

---

(٢٥) أ. ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص ١٦٤.
(٢٦) أحمد بن حنبل، ٢٧١/٢ و٤٤٠، ٢٩٧/٤.
(٢٧) أبو داود، أضحى ٢٤، الترمذي، فتن ٦٩، النسائي، صيد ٢٤، حنبل ١٤/١.
(٢٨) سنن النسائي، باب الاستعاذة ٤٤.
(٢٩) ابن حنبل ٤٥/٥.
(٣٠) ابن ماجة، باب الأحكام ٣٠، أبو داود، أقضية ١٧.
(٣١) انظر في ذلك: أبو داود، ٦٧، ابن ماجة ٢٢، تفسير ابن عباس على ١٩٧/٢...

بأنّهم أصحاب جفاوة وغباوة وتخلّف. وهم أيضاً، بحسب تفسير ابن عباس لكلام القرآن: « فلا رفث ولا فسوق »، وهي « العرابة »، و « العرابة في كلام العرب هو ما قبح من الكلام. ومنها قوله: عرّب عليه، أي: قبَح قوله وفعله، وغيّر عليه، وردّه.

لكنّ في الأحاديث كلاماً على « قرى عربية »، و « قوس عربيّة »، و « كبش عربي »، و « فرس عربي »، و « كتاب عربي » [٣٢]... وهذه أيضاً إن صحّ اسنادها ـ لا تفيد قوميّة أو جنسية عربية. بل هي صفات تدل على أصلها البدوي البدائي.

---

(٣٢) انظر: النسائي، باب الفيء، أحمد بن حنبل ٢٢٨/٥ و٢٤٤، ٧٨/٥، ٨٨/١، ٢١٩/٣، ابن ماجه، باب الجهاد، النسائي أيضاً باب الخيل ٩، صحيح البخاري، تفسير سورة ١/٩٦، باب تعبير الرؤيا، ١، صحيح مسلم؛ باب الإيمان ٢٥٢.

خَاتمة الفَصْل الثَّاني

معاني « العروبة »، قبل الإسلام، مضطربة جداً. وهي في كل حال، لا تعني جنساً معيّناً، أو عرقاً محدّداً، أو اثنية لها قوامها الخاص. ويغلب على معانيها العديدة التي لها في اللغة العربية[١]، مدلولان: البداوة، والغروب[٢] (من الغرب، غربي الفرات)، أي سكنى البادية، وسكنى غربي الفرات.

في معناها الأول نجدها في الكتابات الأشورية والبابلية والعربية القديمة في جنوبي الجزيرة كما في وسطها وشماليها، ونجدها أيضاً في القرآن، وقد لا نجد في القرآن إلاّ هذا المعنى، كما رأينا.

وفي المعنى الثاني نجدها عند الآراميين والبابليين، سكان شرقي الفرات. وقد يكون هؤلاء، هم الذين أطلقوا الاسم والصفة والمعاني الجمة للعروبة التي لم توجد إلا غربيّ الفرات، بين العراق وبلاد الشام، أو في « بادية الشام ».

وربما نشأت كلمة « عرب » عند الآراميين، وفي لغتهم. وعنهم أخذ العبرانيون واستعملوها في لغتهم، ولكنّ هؤلاء أطلقوا على « أهل غربي الفرات » وسواهم ممن تقع مساكنه شرقي فلسطين، اسم « بني المشرق ». وعن الاثنين، أي عن الآراميين والعبرانيين أخذ اليونان والرومان، واستعملوا في لغتهم « عرب » و « سَرَاقين » على

---

(١) انظر لسان العرب، مادّة « عرب » وما لها من معاني مختلفة ومتناقضة أحياناً.
(٢) لم يبقَ هذا المعنى للعروبة في معاجم اللغة العربية.

السواء. والاسمان معاً يتصفان بالبداوة، فعممّا على كل من يعيش هذه الحالة، وفي كل مكان.. ولمّا كتب المسلمون فيما بعد الإسلام عن العرب والعروبة كانت المعاني اليونانية والرومانية قد انتشرت وعيّنت مواقع العرب الجغرافية. فتناول المؤرخون العرب كل معانيهم عمّا كتبه اليونان والرومان. فأصبحت العروبة الخالصة، بدل أن تكون من بادية الشام وغربي الفرات، أصبحت في اليمن في بني قحطان وابنه يعرب، وأصبحت لغة القرآن، بدل أن تكون عربية المناذرة والغساسنة، أصبحت عربية يعرب الذي، بنظر العرب، أول من أعرب بلسانه.. وهكذا انتقلت العروبة، على الظنّ والتخمين، من الشمال إلى الجنوب. وبدل أن تكون نشأتها شمالية أصبحت جنوبية بسحر ساحر، أو بجهل جاهل. لا فرق.

وفي الحقيقة إن ما يقوله المؤرخون المسلمون عن معنى العروبة وأقسامها وأنواعها إنما هو قول متأخر جداً، لا نجده في أي مصدر سابق للإسلام. والصحيح ان ممالك عديدة نشأت في اليمن، ولكن لم يطلق على واحدة منها اسم « عرب ». بل إن هذه الممالك سميت بأسماء مؤسسيها، أو أحد أبطالها، أو أقوى قبيلة كانت في نشأتها.

« وخلاصة ما تقدّم إن لفظة (ع ر ب) هي بمعنى التبدي والأعرابية في كل اللغات الساميّة، ولم تكن تُفهم إلاّ بهذا المعنى في أقدم النصوص التاريخية التي وصلت إلينا... وقد عنت بها البدو عامة... وبهذا المعنى استعملت... ولما توسعت مدارك الأعاجم، وزاد اتصالهم واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب، توسّعوا في استعمال اللفظة، حتى صارت تشمل أكثر العرب على اعتبار أنهم أهل بادية، وأن حياتهم حياة أعراب. ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم، فصارت علميّة عند أولئك الأعاجم على بلاد العرب وعلى سكانها. وأطلق لذلك كتبة اللاتين واليونان على بلاد العرب لفظة Arabae و Arabia أي العربية بمعنى بلاد العرب »[٣].

---

(٣) جواد علي، المفصّل...، ١/٢٥ ـ ٢٦.

والحقيقة إن لفظة « عرب » في أصلها وفصلها، ولغتها ومعناها، وتاريخها، لا تعني إلاّ « الغرب ». وقد أطلقت، أوّل ما أطلقت على سكان « غربي الفرات ». ولمّا تعرّف هؤلاء على مكة والحجاز ومختلف أنحاء الجزيرة العربية، دخلوا إليها بتجارتهم ولغتهم « العربية » أيّ « الغربية ». والذين تكلّموا هذه اللغة من بدو الجزيرة، أصبحوا، فيما بعد، يسمّون، بالنسبة إلى لغتهم، « عَرَباً ». فتكون اللغة هي التي أعطت اسمها للناطقين بها. وبذلك يكون القرآن، في إطلاقه اسم العروبة على اللغة وحدها، أصدق مرجع للبحث عن حقيقة العروبة... وما كتبه المسلمون، بعد الإسلام، عن مراحل ما قبل الإسلام، خرافات وتخمينات، لا تفيدنا الاّ تعقيداً.

الفَصل الثَالث

مَواطن العروبة

أولاً : هُوِيَّة الوَطنْ العَرَبي

ثانياً : حُدودُ العروبَة

ثالثاً : طبيعَة العروبَة

رابعاً : أقسَام العَرب

خَاتمة الفَصْل الثَالثْ

أولاً: هُوِيَّةُ الوَطنْ العَرَبيّ

في هذا الفصل دليل آخر على اضطراب « العروبة »، في معانيها، وحدودها، وتاريخها، وجغرافيتها، وطبيعتها، وأقسامها... مما يثبت، مرّة أخرى، اضطراباً واضحاً في مفهومها الحقيقي. ونحن، إذ نرمي نظرة سريعة مع المنقّبين في الجزيرة العربية والباحثين الأقدمين والمستشرقين وأهل الأخبار من المسلمين، يتأكّد لنا صعوبة معرفة حدود ما يسمّى بشبه الجزيرة العربية، وحدود العروبة نفسها، وبالتالي هويّة الوطن العربي.

ولن نعرف بالسهولة المطلوبة، لا من المؤرخين ولا من الجغرافيين، حدود الوطن العربي، ولا هويّته. كما لن نعرف بالتأكيد كيفيّة امتداد « العروبة » وانتشارها، لا قبل الإسلام، ولا بعده. وهل العروبة، كما يؤكّد سلوم سركيس: بأنّها « كما صارت إليه اليوم، حصيلة تفاعل بين تراث معلوم (التراث اليوناني والروماني) والذهنية العربيّة » ؟[1] أم هي انصهار بين الإسلام والعشائر البدوية ؟ أم هي شتات قبائل جمعها النبيّ في الإسلام، وقضى عليها به!!

الحقيقة إن كل شيء، فيما يخصّ مفهوم العروبة، على الأرض وفي التاريخ، مضطرب. وهذا الاضطراب يجعلنا لا نقدر على القرار. إن « العربيّة الصريحة »، أو « العربيّة العاربة »، هي، بحسب أهل السير والأخبار، « عربيّة اليمن ومخالفيها » ؛ وبحسب المؤرخين اليونان والرومان، هي « العربيّة السعيدة » ؛ وبحسب

---

(١) سلّوم سركيس، العربية بين الانعزالية والوحدة، ص ٣٤.

المسلمين، هي « القحطانية ». هذه العروبة، على ما يبدو، هي الأصل. وربما كان دستور الجمهورية العربية اليمنية الصادر في ١٩٧٠/١٢/٢٨ على حقّ عندما تحدّى بقوله: « لا يستطيع شعب ينتمي إلى العروبة أن يدعيها قبلنا، أو يقدّم لنا دروسا فيها » [٢]... فالشعب اليمني يعي تمام الوعي بأنّه أصل العروبة، لأنه هو الشعب العربي الأصيل الصريح، بمفهوم المسلمين طبعاً.

أمّا سكان العربية الشمالية، أي سكان البتراء من الأنباط، والغساسنة، والمناذرة، وبادية الشام، وصحراء سيناء، وتدمر... أي الأردن وبلاد الشام وغزّة وفلسطين وما بين النهرين وبلاد الرافدين... اليوم، فهؤلاء، بحسب المؤرخين المسلمين، من أصل يمني، نزحوا، بسبب من الأسباب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، من اليمن إلى شمالي شبه الجزيرة العربيّة. وكان لهم، كما كان لسكان العربية الجنوبيّة، دول وممالك وحضارات وآثار في الأرض تدل عليهم. لقد أطلق عليهم المؤرخون اليونان والرومان اسم « العربيّة الصخريّة »، أو « الحجريّة ». وهم بالتالي « عرب خلّص » بمفهوم المسلمين أيضاً.

وأما سكان العربيّة الوسطى، أي « العربيّة الصحراوية »، بحسب المؤرخين، فلم يكن لهم دول ولا إمارات ولا ممالك، ولا حضارات ولا آثار... لقد كانوا أعراباً وبدواً، سكان خيام، رحّلاً تائهين، يتتبّعون الإبل والسرح حيث تجد لها مرعى. هؤلاء هم « العدنانيون »، أو « المعديون »، أو « النزاريون »، أو « العرب المستعربة »، أي المنتمون إلى العروبة انتماءً، وهم قبائل وعشائر من « أخلاط » العرب والعجم. عاشوا على تخوم « الربع الخالي »، وفي « صحراء النفوذ »، ونجد، والحجاز، وتهامة، والعروض... فهم بالنتيجة مستعربون، بمفهوم المسلمين أيضاً وأيضاً.

(٢) الأحكام الدستورية للبلاد العربية، ص ٢٨٦.

في الأصل، أي منذ تكوين الممالك العربيّة الجنوبيّة، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لم يكن في العربيّة الصحراويّة موطن لإنسان. لقد كانت هذه البقعة من الأرض خاوية خـالية، لا يتمكـن إنسان من العيش فيهـا... بسبب شدّة الحرّ وانعدام الميـاه وقحط التربـة... والـذين توطّنـوا هـذه الصحراء كان معظمهم من « الخلعـاء »، و « المطروديـن »، و « المهجّرين »، و « المعارضين »، بحسب أوصـافهم فـي التـاريخ. هؤلاء طـردوا أو خلعوا مـن أوطـانهم ودولـهم، وطردوا بسبب شرورهم ومفاسدهم، أو بسبب معارضـتهم لسياسـة حكومـاتهم، أو بسبب جريمـة اجتماعية اقترفوها، أو أيضاً بسبب عوامل طبيعية اجبرتهم علـى النـزوح... هؤلاء عاشـوا فـي الصـحراء وكوّنـوا « عصـابات سوء » ؛ وسمّوا، فـي التـاريخ، « صعـاليك »، و « ذؤبـان العرب »، و « لصوص البـادية »، وفي القـرآن، « أذلـّة » و « مرذولين » و « أراذل »...

هؤلاء التجأوا إلى البوادي أفراداً مشتتين، لا مأكل لهم فيها ولا مشرب. بل كـان الغزو والسلب والنهب والسطو مـورد رزقهم الوحيد.. وأحيانـاً، انتظمـوا بشـكل « عصـابات » علـى طرق القوافل التجارية العابرة الصحراء، وربحوا منها الأموال الطائلة. وكان لكل عصابة منهـا « سيّد » أو « شيخ » نظّم شؤونهم، وأسكنهم في بقاع يسهل فيها الاعتداء على القوافل، وألقّـوا « قبائل و « عشائر »، ومارسوا الغزو كسبيل للعيش وحيد. واعتنـوا بالجمل والخيل كوسـائل ناجعة للعدو والاعتداء... وكوّنوا في الصحراء مواطن لهم عرفت باسمهم.

وكانـت « مكـة » و« يثـرب » و« الطـائف » و « خيبـر » و« تيمـاء » و« وادي القرى ».. أحسن موطن لهؤلاء « الخلعاء »، بسبب توفّر لقمة العيش فيها، وبسبب تلك القوافل التجاريّة المارّة بها. على طرق التجارة عاش الناس، وغزوا، ونهبوا، وكـان لهـم بعض العيش الهني... ولكثرتهم وشدّة بطشهم، كانت القوافل التجاريـة، لتمنـع عن بضـائعها سطوة الجـائعين البائسين، تتمتّع بخفارة كبيرة.

هؤلاء الجائعون كانوا من أجناس متعددة ومتنوعة. منهم من كان من الحبشة، ومنهم من دولتي الفرس والروم، ومنهم من اليونانيين والمصريين، وآخرون من غزّة وفلسطين، وآخرون من اليمن ودولها، ومن مختلف أنحاء العربية الجنوبيّة السعيدة، الذين ظلمهم الدهر وطردهم من « اليُمْن » إلى البؤس، ومن الاضطهاد إلى الجوع... وهكذا تجمّع الناس قبائل وعشائر وبطوناً وفخوذاً، وجياعاً ومحرومين.... وانتظموا أحياناً وفرضوا على التجّار مكوساً وضرائب. وكان أعظم تجمّع لهم في مكة وفي قبيلة « قريش ».

وبسبب هذا التنوّع الكوسموبوليتي في « مكة » « أم القرى »، يصعب علينا معرفة هويّة سكان « العربيّة الصحراويّة » بالعموم، وبخاصّة هويّة سكان نجد وتهامة والحجاز، وبالأخص أيضاً هويّة سكان « مكّة » و « يثرب » وسائر المحطّات الشهيرة التي كانت تمرّ بها القوافل التجارية وترتاح من عناء السفر... وبسبب ذلك أيضاً يصعب علينا التقرير، في من يحمل الصفة العربية من أصل يمني، وفي من يحملها من أصل رومي أو فارسي أو يوناني أو يهودي أو فلسطيني...

هذا، علماً، بأن سكان اليمن أنفسهم، الذين كانوا أوّل « العرب » وأصلهم، بحسب المسلمين، والذين بعد تحضّرهم وتأسيس مجتمعات متحضّرة، أضاعوا عروبتهم، فأصبحوا يسمّون، بأسماء دولهم وحكامهم. ولم تتّصف دولة واحدة من دولهم بالعروبة، رغم أنّها في صلب « العروبة العاربة ». بل يبدو أنّ العروبة انتقلت مع المطرودين منهم إلى الصحراء، حيث اختلطوا مع مطرودين آخرين من دول مجاورة. وبذلك أصبحت العروبة صفة كل من سكن الصحراء وعاش عيشة البدو وعصابات السوء.

* * *

لهذه الأسباب جميعها لا نستطيع تحديد هويّة العروبة الآن. كما لا نستطيع

التعريف بالوطن العربي، الذي تضطرب حدوده ومناخه، وطبيعته، وحضاراته، كما أنّنا لا نعرف أقسامه، أو مجتمعاته. وتبدو الصعوبة أشدّ تعقيداً، عندما نرى اليوم كل قطر يسمّى عربياً، مربوطاً بجغرافية معيّنة وبطبيعة مميّزة: فمصر مرتبطة بنيلها، والعراق بدجلة والفرات، وسوريا بسهولها، ولبنان بجباله ومناخاته، والسعودية ببواديها وقبائلها، واليوم بنفطها، والإمارات بعشائر تدور في فلك السعودية، واليمن، قديماً، بتجارتها، واليوم، بعصبيّتها.. وهكذا.

أمّا الوطن العربي في تحديده اليوم، من المحيط إلى الخليج، فهو يتعيّن بالنسبة إلى الدين الواحد واللغة الرسمية الواحدة، أي الدين الإسلامي واللغة العربيّة. وليس من ميزة أخرى تحدّد هويّة الأوطان يمكن أن نجدها في هذا « الوطن العربي الكبير ».

ثانياً: حُدود العروبَة

سمّيت بالجزيرة العربيّة، أو بشبه الجزيرة العربيّة، لأنّ المياه تحيط بها من جهات ثلاث: الشرق والجنوب والغرب. وهي أكبر شبه جزر العالم مساحةً(١)، وأكثر أراضيها صحراوية، وأغنى جوف نفطاً وكنوزاً، وأقدم مواطن الإنسان مسكناً، وأكثر شعوب الدنيا بداوة، وأعظمهم استمرارية في البداوة.. ورغم إحاطتها بالمياه، يبقى مناخها أشدّ مناخات الأرض قساوة، وتربتها تتّصف بالقحط والجفاف وشظف العيش عليها، وكثرة البؤس والجوع في سكانها.

لا اختلاف بين الجغرافيين على تحديد شبه الجزيرة العربيّة من جهة الشرق، حيث تنتهي عند الخليج العربي، المعروف عند اليونان، بالخليج الفارسي، وعند قدماء العراق، بـ« بحر الشروق »، أي البحر الذي تشرق منه الشمس(٢)، وعند الأشوريين بـ« البحر المرّ »، أي المالح(٣).. وكذلك لا اختلاف من جهة حدودها الجنوبيّة حيث المحيط الهندي الذي، عند اتّصاله بين افريقيا وسواحل الجزيرة، يسمّى بـ« البحر الارتيري »... ولا اختلاف أيضا من جهة الغرب حيث يحدّها البحر الأحمر، وشكله كثعبان منتصب القرنين، رأسه في خليج العقبة، وقاعدته عند مضيق باب المندب.

---

(١) يصعب اعطاء رقم دقيق عن مساحتها لعدم التأكد من حدودها الشمالية.. والذين يمسحونها بـ ١٠ ملايين كم٢ يدخلون عليها الهلال الخصيب وما يشمله من بلاد الشام والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين، ومن بعض آسيا الصغرى وإيران ومصر... ومنهم من يمسحها بـ ٣ ملايين كلم٢، مقتصراً بذلك على حدودها الصحراوية الشمالية المعروفة قديماً عند العرب. انظر: لوبون، حضارة العرب، صفحة ٥٦ وما بعدها.

(٢) GEORGES ROUX, *Ancient Iraq*, London, 1949, p. 29 …

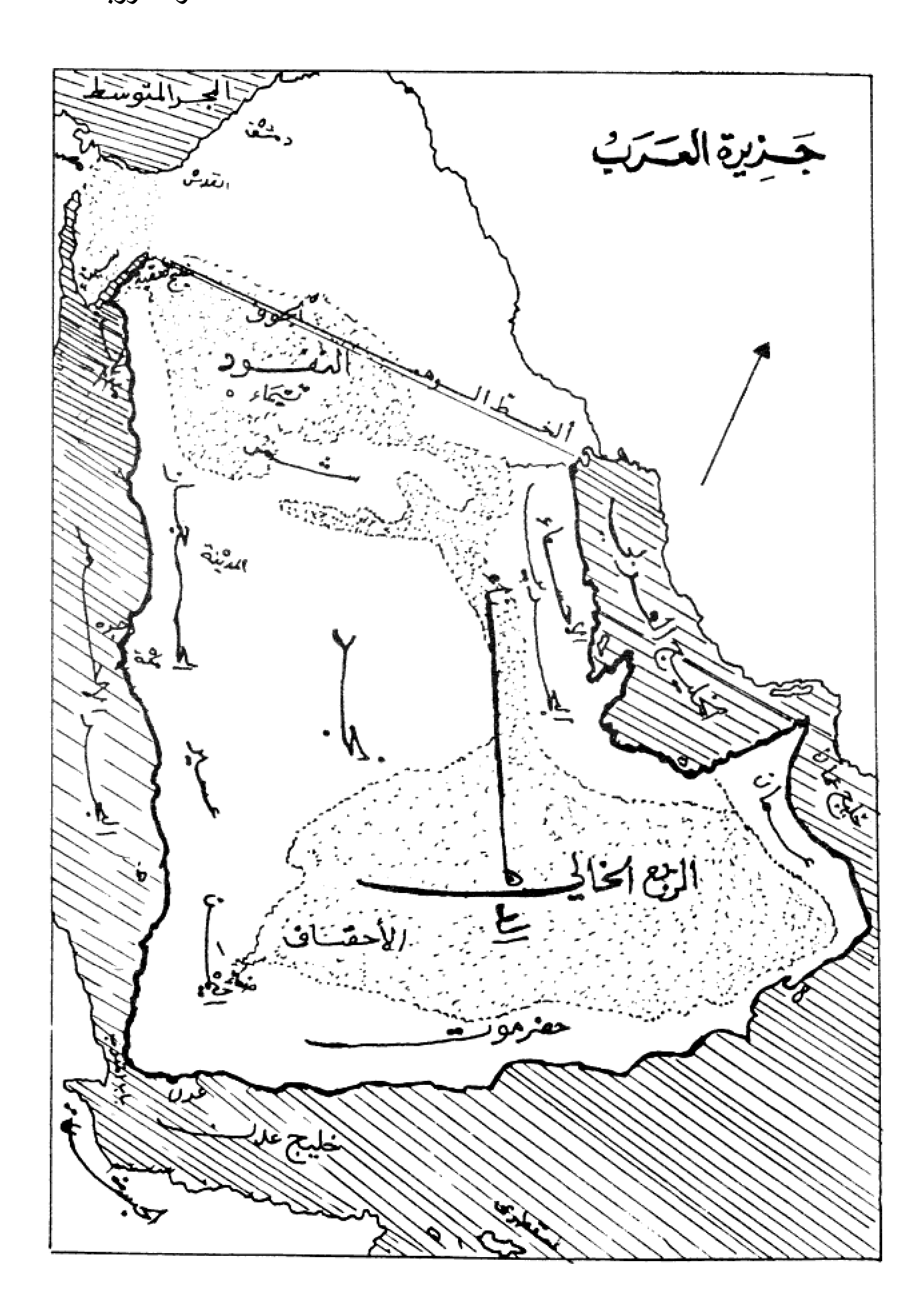
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٧.

هذه الحدود الشرقية والجنوبيّة والغربيّة فرضتها البحار، فلا اختلاف فيها. لكنّ الاختلاف كان، منذ البدء، على كيفيّة شكل الأرض، والآراء في ذلك مختلفة ومتنوعة. فمن الجغرافيين من كان يقول بأنّ أرض العربيّة كانت متّصلة قديماً بإفريقيا؛ ومنهم من قال بأنّها كانت، قبل ذلك، مغمورة بمياه البحار، لملوحة في تربتها لا تزال بادية؛ ومنهم من ظنّ بأن البحر الأحمر كان بحيرة تحيط بها الأرضون من كل جهة، فتكون بذلك إفريقيا والجزيرة العربية متّصلة بعضها ببعض... غير أنّ كل هذه الافتراضات ليست من شأننا في هذا البحث، لأنّها ترجع إلى ما قبل التاريخ.

أمّا الاختلاف الكبير، وعليه تتوقف نتائج جدّ خطيرة، فهو على الحدود الشمالية. و « مهما يكن من أمر فإنّ الحدود الشمالية للجزيرة العربيّة لم تكن قطّ واضحة. يقول الجغرافي العربي المشهور ياقوت الرومي (+ ١٢٢٩ م.) إنّ هناك آراء عديدة حول التخوم الشمالية. بينما الهمداني (+ ٩٤٥ م.)، وهو جغرافي عربي آخر.. يعتبر أنّ الحد الشمالي الشرقي هو مجرى الفرات الأسفل، والحدّ الشمالي الغربي هي الشواطئ الفلسطينية عند البحر الأبيض المتوسط. وهذا الوصف لحدود الجزيرة العربية ـ في رأي بليابيف ـ كان يمكن الأخذ به لو لم تقحم فلسطين في هذه الحدود، إلاّ إنه ممّا لا شك فيه أنّ بادية الشام كانت في ذلك الحين جزءاً من الجزيرة.. » [٤].

لكنّ رأي أكثر الجغرافيين القدماء يشير إلى أن الحدود الشمالية هي « خطّ وهمي يمتدّ، في اصطلاح العلماء العرب، من خليج العقبة حتى مصبّ شطّ العرب في الخليج العربي. فيكوّن النفود الشمالي من الحدود التي تفصل الهلال الخصيب عن

(٤) ي. أ. بليابيف، العرب والإسلام والخلافة العربية، ص ٥٣.


جزيرة العرب
البحر المتوسط
دمشق
القدس
الجوف
النفود
تيماء
الخط الوهمي
المدينة
الربع الخالي
الأحقاف
حضرموت
عدن
خليج عدن

جزيرة العرب »[٥]. وعند فيليب حتّي أيضاً قوله: « أمّا حدود الجزيرة الشمالية فغير واضحة المعالم، ويمكن اعتبارها خطاً وهمياً يتّجه شرقاً من رأس خليج العقبة حتى الفرات »[٦]، أي مصبّ الفرات.

لكنّ المشكلة كلّها تكمن في رسم هذا « الخطّ الوهمي ». أهو خط مستقيم، أم منعرج ومتعرّج ؟ و « الخط » في طبعه مستقيم إلاّ أنّ بعض المؤرخين أرادوه منعرجاً. ومع أنّ غوستاف لوبون يعترف بأنّ « حدّها الشمالي غير واضح »[٧]، فهو يحدّده، رغم غموضه، بخط منعرج، فيميل به من غزّة إلى جنوب البحر الميت فدمشق، فالفرات، حتى ينتهي بخليج فارس. وهو، بذلك، يريد إدخال كل بقعة صحراوية، أكانت هذه البقعة في بلاد الشام أو العراق أو تركيا، ضمن حدوده...

ثمّ أن بعض المؤرخين المسلمين يريدون هذا الخطّ ممتداً بامتداد العرب أنفسهم. هؤلاء امتدّوا، في فتوحاتهم الإسلاميّة، إلى بغداد وجزيرة الشام وانطاكيا، ثم إلى السواحل الفينيقية والفلسطينية ومصر وإفريقيا... وجعلوا هذه المناطق كلها، بسبب امتدادهم الإسلامي، عربيّة. فأصبح الإسلام بنظرهم يقرّر عروبة الأرض. كما أصبحت اللغة العربيّة تقرّر عروبة الشعوب... إلاّ أنّ هذين العاملين لا يستطيعان ولا يكفيان البتة لمثل هذا القرار الخطير. بل هناك عوامل أخرى أشد فعلاً وأكثر صحّةً وأثبت علماً وأقدم تاريخاً، لا يمكن إهمالها. بل تكون هي الأصح.

من هذه العوامل التي تكوّن حدود العربيّة الشمالية وتفصلها عن حدود ما سمّي بالهلال الخصيب: فروقات المناخ، والطبيعة، وألوان المعيشة، والتاريخ، والآثار، والحضارات، والتقاليد، والأعراف، والسنحة، ولون البشرة، و « نوعية

---

(٥) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٤٣/١.
(٦) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٤٠.
(٧) حضارة العرب، ص ٥٥.

الدمّ التي تحدّد العرق » [٨]، والمميزات الخلقية والأدبية، والأحكام والقوانين العامّة، والموقف الواحد من القيم الإنسانية، والنظرة الواحدة إلى المصير... هذه كلّها لم تكن هي نفسها جنوبي الخطّ الوهمي كما في شماليه. كما لم تكن نفسها في البقاع الشمالية. وبسبب ذلك كتب زيدان يقول: « أمّا قبل الإسلام فكان يراد بالعرب سكّان جزيرة العرب فقط، لأنّ أهل العراق والشام كانوا من السريان والكلدان والأنباط واليهود واليونان، وأهل مصر من الأقباط، وأهل المغرب من البربر واليونان والوندال، وأهل السودان من النوبة والزنوج وغيرهم.. » [٩].

(٨) M. RODINSON, *Les Arabes*, p. 46...
(٩) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤١.

ثالثاً: طبيعَة العروبَة

تتميّز طبيعة الجزيرة العربية، بحسب تحديدها الآنف الذكر، عن طبيعة سائر المناطق المحيطة بها، من الجهة الشمالية طبعاً. فهي يغلب عليها القحط والجفاف. وتكوّن الصحراء جميع أراضيها، ما عداء بعض واحات وبقع صغيرة جداً، كما يظهر ذلك على الخريطة رقم ٢. وتتّصف هذه البادية بتربة رمليّة وبمناخ سيء، حارّ. لا ماء فيها تذكر، ولا أنهار. وبالتالي لا تصلح في معظمها للزرع والخصوبة. وبعض التنوّع في سواحلها الغربية والجنوبية جعل تنوّعاً في السكّان وفي كيفية معيشتهم وتقاليدهم..

ففي غربي الجزيرة أرض مرتفعة، « تسيطر على السواحل الإفريقية، وتكوّن سلاسل من المرتفعات متّصلاً بعضها ببعض.. ويقال لهذه المرتفعات « جبال السراة » [١]، وهي توازي ساحل البحر الأحمر. وتقترب منه في مواضع عديدة » [٢]. ثم تبتدئ الأرض بالانخفاض تدريجاً، من الغرب مروراً بالجنوب حتى تصل إلى الخليج العربي، بمحاذاة البحر. ولكنّ « الجبل الأخضر » في أقصى الجنوب الشرقي يشذّ عن هذا الانحدار، إذ يعود ليرتفع حتى يبلغ زهاء عشرة آلاف قدم.

أمّا في الداخل فأغلب الأرض صحراء قاحلة، لا تصلح لزرع أو لضرع. وقد ميّز الجغرافيون فيها أنواعاً عديدة، وتعرّفوا على نوعيّة تربتها الرملية:

---

(١) السراة، أعلى كل شيء. انظر: معجم البلدان ٥٩/٥، تاج العروس. ١٧٤/١٠.

(٢) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٤٤/١.

فمنها ما يسمّى بـ« الحرار »، وهي أرض بركانية، تنتشر فوقها حجارة ناتئة حادّة يصعب السير عليها. و « الحرّة » أرض ذات حجارة سود نخرة، كأنّها أحرقت بالنار » [٣]. و « الحرّات » موجودة في الجزيرة العربية في أمكنة عديدة. ممّا يدل على كثرة ما كان فيها من براكين.. وبسبب هذه البراكين كثرت في أرض العرب التضاريس والوديا والتلال، كما كثرت المعادن والأحجار الكلسية والغرانيتية والرملية، وكذلك الموادّ الكبريتية والنفطية.. وكلّها من أثار تلك التقلّبات الجوفية التي حدثت منذ أقدم العصور.

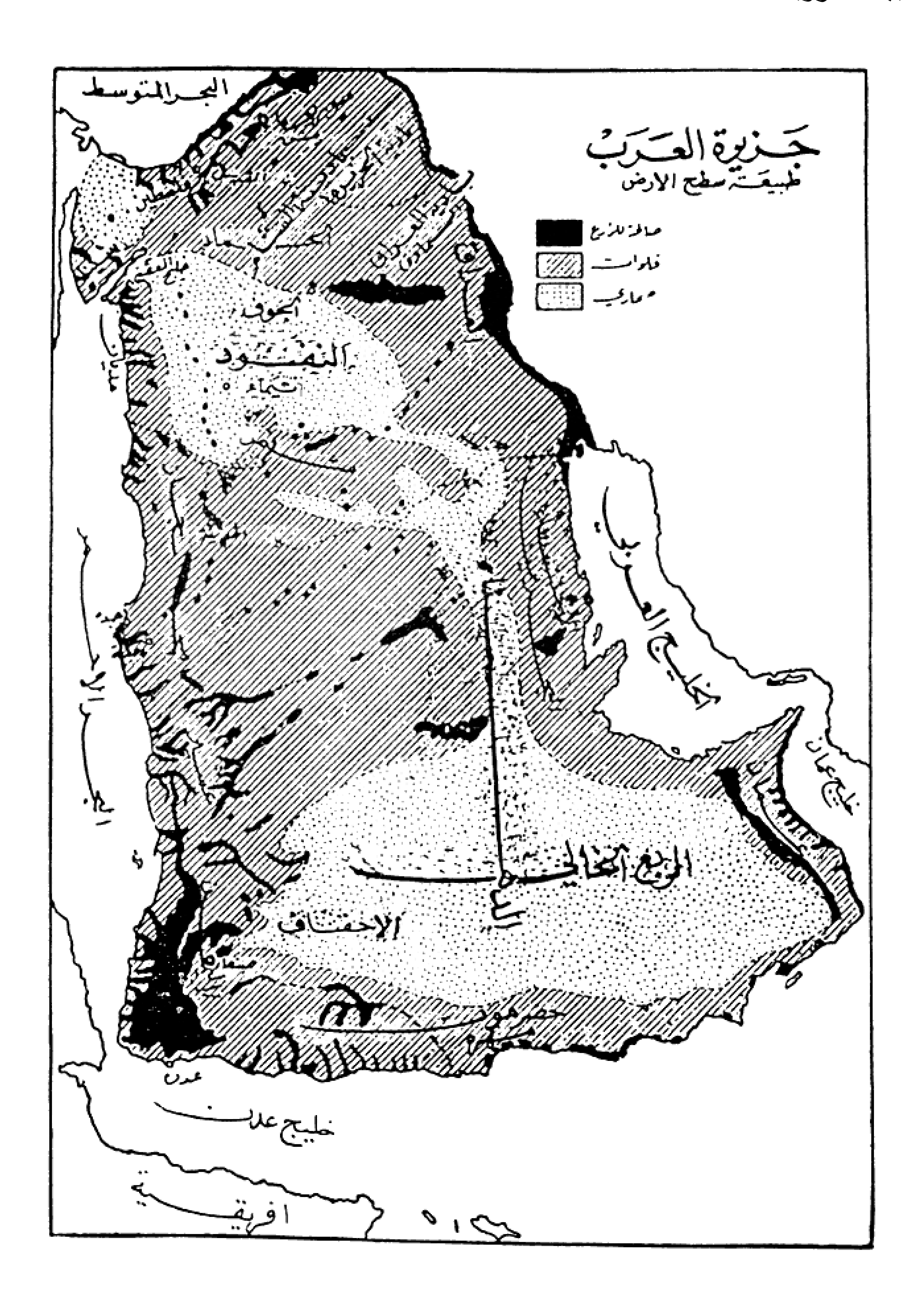
ومنها ما يسمّى بـ« الدهناء »، وهي مساحات رمل حمراء. فيها سلاسل من التلال ذات ارتفاعات منخفضة ومختلفة، وهي تكثر في مختلف أنحاء البلاد، وأخصّها تلك التي تمتدّ من الربع الخالي شمالاً غرباً. وهي أكبر مساحة من كل أرض الجزيرة، وهي كلها لا تصلح للسكن، ولا ينبت فيها نبت. تكثر فيها العواصف الرملية، وتندر المياه، وتشتد الحرارة. أرضها مالحة ممّا جعل بعض الجيولوجيين يعتقد بأنّ مياه الخليج كانت، في سالف الأزمان، تغمرها برّمتها.

ومنها « النفود »، وهي صحراء واسعة تغطّيها رمال بيضاء أو حمراء، وهي متموّجة بسبب الرياح العاصفة التي تضر بها باستمرار، فتكوّن منها مرتفعات وكثباناً ومنخفضات مختلفة، تمطر عليها السماء فتحوّلها إلى بساط أخضر، تتزين بالأعشاب والنباتات، فتستفيد منها الماشية، ولو إلى عمر قصير. ثم يحل بها الجفاف بعد حين، فتنتقل منها الماشية مع رعيانها إلى مكان آخر.

ومنها « الدارات »، وهي فجوات تنبت فيها الأعشاب، وتتكوّن من أرض سهلة وتربة لينة في أكثر الأحيان. وهذه متفرقة في طول البلاد وعرضها، ما عدا مناطق النفود والدهناء حيث لا ينبت شيء البتة.

---

(٣) انظر معجم البلدان ٥٦/٣، وتاج العروس ١٣٥/٣، ولسان العرب (حرّة).


جزيرة العرب
طبيعة سطح الارض
صالحة للزرع
فلوات
صحاري
البحر المتوسط
الجوف
النفود
تيماء
الربع الخالي
الاحقاف
خليج عمان
عدن
خليج عدن
افريقية

ومنها « الجبال »، وأهمّها سلسلة جبال السراة الممتدة بازاء شواطئ البحر الأحمر. وأعلى قممها جبل دباغ (٢٥٠٠ م)، ثم جبل وثر، وجبل شيبان.. ثم تنخفض السلسلة عند دنوها من مكّة، ثم تعود لترتفع حيث يبلغ أقصى ارتفاعها في اليمن.

ثم تتجه الجبال من اليمن نحو الشرق إلى أرض عمان، وأعلى قممها الجبل الأخضر (عشرة آلاف قدم).. وهناك جبال موزّعة في قلب الجزيرة هنا وهناك، مثل جبل شمّر (٢٥٠٠ قدم). وهو موطن قبيلة طيء، وجبل طويق جنوبي شرقي الرياض. وكلاهما في نجد.

ومنها أخيراً « الأودية »، وهي أنهار صغيرة، تسمّى جعافر، أو أودية، تطغى عليها السيول عند سقوط المطر، وسرعان ما تجفّ عند انحباسه. وأشهر الودايا: وادي الرّمة عند حرّة فدك، وطولها ١٣٠٠ كلم، ووادي الجريب أو الجرير من أوسع فروع وادي الرمّة يتجه نحو الشرق، ووادي الحمض أو وادي أضم من جنوب حرّة فدك نحو ميزب، يتصل بوادي العقيق، ووادي القرى يصب في البحر الأحمر، ثم وادي حنيفة يبتدئ من غرب جبل طويق ويتّجه نحو الشرق عند الخليج العربي...

* * *

وبالعموم « لا تعدو الجزيرة العربية كونها صحراء رملية صخرية، تتخللها هنا وهناك بقاع من الأرض قد نما فيها القليل من النبات.. إنّها بلاد وعرة ماحلة، لا أنهار فيها ولا مراعي، ولا أشجار. لا تسرّ النظر، ولا توفّر إلاّ العيش الرهيب الجديب... فالأرض تبدو، وكأنّها مشتعلة بنارين: أشعة الشمس المحرقة، ونار الرمال والصخور التي تعكس حرارة هذه الأشعة » [٤]. وعن شدة هذه الحرارة قال

(٤) L. CAETANI, *Studi di Storia Orientale*, I, P. 53…

أحد الايرانيين: « كانت الحرارة شديدة بحيث تحرق مخّ العظم. ويستحيل فيها السيف الصلب في غمده إلى مادّةٍ ليّنةٍ كالشمع، كما تستحيل الجواهر التي تُرصّع قبضةَ الخنجر إلى جَمْر »[٥]. وبالنتيجة « يتمشى شبَحُ القحط والجوع في طول البلاد وعرضها شاهراً سيفاً من نار »[٦].

---

(٥) S. M. ZWEMER, *Arabia. The Cradle of Islam*, London 1900 p. 80. – H. St. – J. B.

(٦) PHILPY, *The Empty Quarter: being a description of the Great South Desert of Arabia known ar Rub'al Khali*. London, 1933. انظر بليابيف، ص ٧٤ ـ ٨٣.

رابعاً: أقسام العرب

لم تكن المشكلة في رسم الحدّ الشمالي للجزيرة العربية وحسب، بل المشكلة أيضاً في تقسيم الجغرافيين والمؤرخين لها. وهذا أيضاً ممّا يجعل مفهوم العروبة مضطرباً ومختلفاً فيه. فاليونان والرومان قسموا شبه الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ العربيّة السعيدة،

٢ ـ العربيّة الصحراوية،

٣ ـ العربيّة الصخريّة،

وهو تقسيم سياسي وطبيعي على السواء. وقد قال بالقسمين الأوّلين سترابون (+ ٢٥ ب. م.)[١]، وأضاف إليهما بطليموس (+ ١٧٠ ب. م.)[٢] القسم الثالث. « في الجيل الثالث قبل الميلاد، ايراتوستين (+ ١٩٦)، بحسب ما يقول سترابون يقسم العربية إلى قسمين كبيرين: العربيّة الشمالية حيث يسكن الأنباط، والعربيّة الجنوبية حيث يعيش السبأيّون والمعينيون والقتبانيون والحضرموتيون. بين الأنباط والسبأيين، في الحجاز وعسير، يذكر المؤلف وجود بدو يصفهم بـ« عرب الخيام، ورعاة الجمال ». هذا كلّ ما يعرفه سترابون. ولا يضيف عليه أي شيء دقيق » [٣]... أمّا بطليموس فيسمّي مكان سكن هؤلاء البدو، العربية الصحراوية، أو الوسطى.

(١) انظر سترابون، المجلد ٣، ص ٣٠٩.

(٢) FORSTER, Vol. II, P. 109 …

(٣) A. VAN BRANDEN, *Histoire de Thamoud*, p. 11…

١ ـ أمّا العربيّة السعيدة فليست لها حدود شمالية ثابتة، لأنّها كانت تتبدّل وتتغيّر بحسب الأوضاع السياسيّة، ولكن أهم ما كان يتضمّن هذا القسم: « اليمن ». وقد تكون تسمية العربيّة بـ« السعيدة » بالنسبة إلى اليمن، وهي من « اليُمن » بمعنى الخير والخصب ووفرة السعادة فيها[٤].

ويبدو أن العرب، على معرفتهم بالتقسيم الكلاسيكي هذا، عرفوا بالجزيرة العربية « العربية السعيدة » فقط. وكذلك المؤرخون المسلمون الذين قالوا: « إنّ « جزيرة العرب وحدها هي العربية السعيدة عند اليونان والرومان » [٥]. وفي بعض الأحيان اعتبر هذا القسم مستقلاً عن سائر الأقسام ومميّزاً عنه بحضارته ودوله وتاريخه القديم وطبيعته المميزة. وأحياناً أخرى اعتبر أنّه « يشمل كل المناطق التي يقال لها جزيرة العرب في الكتب العربية، كما يفهم من بعض المؤلفات » [٦]، وذلك لهيمنته عليها كلها، أو لاجتياح شعوبه سائر الأقسام واخضاعها له. وأحياناً قيل « إن العربية السعيدة لم تكن عربية لا بلغتها ولا بحضارتها » [٧].

٢ ـ وأمّا العربيّة الصحراويّة فهي المناطق الصحراوية التي تشمل الربع الخالي والأحقاف والنفود والدهناء ونجد والحجاز وتهامة، أي وسط الجزيرة المسيطر عليه الجفاف والقحط. وهي أوسع بقعة جغرافية في العربية. ومن الطبيعي ألاّ يكون هذا القسم هاماً ومأهولاً. ونحن لا نرى فيه أي أثر يدلّ على شعوب قديمة عاشت فيه وبقي لنا فيه حضارة. ومن الطبيعي أيضاً أن تكون القبائل التي أمّت هذه المنطقة وسكنت فيها هي من هجرات متتالية من العربية السعيدة قديماً، ثمّ من دولتي الفرس والروم،

---

(٤) ومنهم من قال: من اليمين، لأنها تأتي من على يمين الكعبة. وهذا قول إسلامي متأخّر.
(٥) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٦٧/١، و١٦٣/١..
(٦) المرجع نفسه، ١٦٤/١.
(٧) أنيس صايغ، تطوّر المفهوم القومي عند العرب، دار الطليعة، بيروت ١٩٦١ عن RIZK, *Entre l'Islam et l'Arabisme*, p. 26.

ثمّ من الأحباش وبلاد الشام وأرض الرافدين، وغيرها، على ما ذكرنا آنفاً.

سكّان هذا القسم هم « البدو » حقاً. هم « عرب الخيام ورعاة الجمال ». هم الذين طالت عندهم حياة البداوة ودامت فيهم النزعة البدائيّة. هؤلاء هم منبوذو العربية السعيدة وسائر الدول والممالك. هم المسمّون « خلعاء » مطرودين من بلادهم لألف سبب وسبب. وقد عناهم القرآن في كلامه على « الأعراب »، كما رأينا.

٣ ـ وأمّا العربيّة الصخريّة أو الحجريّة فهي « القسم الواقع بين فلسطين والبحر الأحمر »[٨]. هي التي أطلق عليها فيما بعد اسم « مملكة الأنباط ». عاصمتها « بترا » و « بطرا » و « البتراء » وتعني « الحجر » و « الصخر ». وتقع شمالي الجزيرة العربية، في منطقة جبلية قاحلة. لم تكن في البدء مأهولة، ولم تكن ذا أهميّة تذكر. لهذا « جهل جغرافيو العرب هذا القسم الصخري فلم يروا بلاد الحجر (بطرا) من بلاد العرب »[٩]. ولم يحسبوا له حساباً في تواريخهم. وكان أوّل من سكنه، على رأي المؤرخين العرب، قبائل من أصل يمني، هاجرت إليه لسبب من أسباب القحط أو الاضطهاد أو التناحر العشائري... إلاّ أنّ من المؤرخين من يعتبر الأنباط من غير طينة هؤلاء العرب، وذلك لتنوّع حضارتهم واختلافها عن حضارات سائر العرب. فهم مثلاً يعتمدون على الزراعة كمورد رزق مهمّ لهم، وهذا ما لا نجده في مكان من الجزيرة. ثمّ إنّهم يعبدون آلهة غريبة عن آلهة العرب الصرحاء، ولهم معابد وآثار وحفريات ليست هي من التقاليد العربيّة في شيء.

* * *

---

(٨) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٦٥.
(٩) المرجع نفسه، ص ٦٥.

أما مؤرخو الإسلام فاعتمدوا تقسيماً آخر للعربيّة، يقصّر عن شمولية التقسيم اليوناني، ويختلف عنه شكلاً ومضموناً. لقد قسموا الجزيرة إلى خمسة أقسام، ولكن دون العربيّة الصخريّة أو الشمالية، التي لم تحسب، برأيهم، من العروبة. هذه الأقسام هي:

١ ـ **نجد**: وهو اسم « للأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن، وأسفلها العراق والشام... حدّ نجد أسافل الحجاز.. يقال أنّ نجداً كلّها من عمل اليمامة.. واليمامة معدودة من نجد »[١٠]. فحدود نجد إذن: من الشمال بلاد الشام، من الجنوب اليمن، من الغرب الحجاز، ومن الشرق العروض وما يتضمّنه من عُمَان والبحرين.

٢ ـ **الحجاز**: قال الأصمعي في كتاب جزيرة العرب: « الحجاز اثنتا عشرة داراً: المدينة وخيبر وفدك وذو المرؤة ودار بليّ ودار أشجع ودار مزينة ودار جهينة ونفر من هوازن وجلّ سليم وجلّ هلال وظهر حرّة ليلى... وسمي حجازا لأنّه حجز بين تهامة نجد »[١١]. ويمتد الحجاز من العقبة شمالاً حتى تهامة جنوباً، ويشمل على الجزء المتوسّط من المنطقة الواقعة على ساحل البحر الأحمر، ويتضمّن المدينتين المقدّستين: مكة ويثرب، ثم الطائف.

٣ ـ **تهامة**: « تهامة تساير البحر، »[١٢] و « سُميت تهامة لشدّة حرّها وركود ريحها.. سُمّيت كذلك لتغيّر هوائها ». وقال الأصمعي: « التهمة الأرض المنصوبة

---

(١٠) ياقوت الحموي الرومي، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي. بيروت بدون تاريخ، المجلد ٥. ص ٢٦١ ـ ٢٦٦، انظر أيضاً: ٤٤١/٥ ـ ٤٤٧.

(١١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢١٨/٢ ـ ٢٢٠ مادّة: حجاز.

(١٢) المرجع نفسه، ٦٣/٢. مادة: تهامة ٦٣/٢ ـ ٦٤.

إلى البحر ». إنّها تقع بين اليمن والحجاز والبحر الأحمر. ويقع اختلاف بين الجغرافيين العرب عمّا إذا كانت « مكّة » من تهامة أم من الحجاز.

٤ ـ **اليمن**: هي بحسب الأصمعي « ما اشتمل عليه حدودها بين عمان إلى نجران ثم يلتوي على بحر العرب إلى عدن إلى الشّحر حتى يجتاز عُمَان »، وهي بحسب ياقوت الحموي يحدّها « صنعاء وما قاربها إلى حضرموت والشّحر وعُمَان إلى عدن » (١٣). تقع إذن بين الحجاز ونجد شمالاً، والعروض شرقاً، والبحر الأحمر غرباً. وهي أخصب وأغنى بلاد العرب. ومنها أصل كل القبائل النازحة منها إلى مختلف أنحاء الجزيرة وخارجها. وفيها نشأت الدول والممالك القديمة. وهي العربية السعيدة عند اليونان. وإليها ينتسب العرب العاربة » أو « العروبة الصريحة ».

٥ ـ **العروض**: « سُمّيت تلك الناحية العروض لأنّها معترضة في بلاد العرب ما بين تخوم فارس إلى أقصى أرض اليمن مستطيلة مع ساحل البحر ». وقال ابن الكلبي: « بلاد اليمامة والبحرين وما والاها (تُسمّى) العروض » (١٤). فالعروض اذن تشمل اليمامة والبحرين وعمان وشبه جزيرة قطر والاحساء حتى نهاية الخليج الفارسي على حدود بلاد فارس. هي المنطقة المحازية للبحر جنوبي شرقي الجزيرة.

* * *

يبدو أن المؤرخين المسلمين « اكتفوا بجزيرة العرب فأخرجوا بذلك البادية الواسعة منها، وأخرجوا القسم الأكبر ممّا دعاه الكلاسيكيّون بالعربيّة الحجريّة كذلك. وجزيرة العرب وحدها هي العربية السعيدة عند اليونان والرومان » (١٥). ويبدو أنّ

---

(١٣) المرجع نفسه، ٤٤٧/٥ ـ ٤٤٩. مادة: يمن.
(١٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١١٢/٥، مادة: عروض.
(١٥) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٦٧/١.

« هافلي » ذهب إلى أبعد من ذلك، فرأى أنّ كلّ ما قيل في هجرة القبائل اليمانية إلى الشمال هو أسطورة، وأن ما يزعم من انتساب تلك القبائل إلى اليمن هو حديث خرافة لا يركن إليه[١٦]. وهو بذلك يرفض كل نزوح سكاني من اليمن إلى الشمال.

فيكون معنى ذلك أنّ « العروبة » تقتصر، بحقيقتها وتاريخيتها، على اليمن وسكانها. ومن الطبيعي أن يكون اليمن، أو « العربية السعيدة »، موطن العروبة لأنّ ما سواه من المواطن في الجزيرة غير صالح للسكن. والذين تجرّأوا على الصحراء وسكنوا فيها، هم جماعات، أو بالأحرى، أفراد « خلعاء » طردتهم حكوماتهم لذنب اقترفوه، فهربوا من الموت إلى البؤس، وعاشوا عصابات على طرقات التجارة، وتركوا عروبتهم الصريحة، واختلطوا بعصابات أخرى من بلاد فارس والروم والحبشة، وضيّعوا أنسابهم، فأصبحوا في البادية « أعراباً » « بدواً » « مستعربين ».

والذين تحضّروا في اليمن وفي « العربيّة السعيدة »، وهم أصل العرب وأخلصهم، ضيّعوا أيضاً نسبتهم العربيّة. ولم تنشأ دولة واحدة من دولهم المتحضّرة، كما لم تقم مملكة من ممالكهم المتطوّرة، وهي تحمل معها صفة « العروبة ». ولم يعرف في التاريخ بأنّ واحدة منها عرفت بعروبتها. كما لم يعرف عن لغة من لغاتها نسبتها إلى العروبة... كلّ هذا يدلّ بوضوح على أن « اليمن » التي هي أصل العروبة، تركت عروبتها بعد تحضّرها وانشاء الممالك فيها. هذا ما يجعلنا نقول ونردّد بأنّ العروبة حالة عيش بدائيّة. متى تحضّر الإنسان تركها. وهكذا فعلت اليمن ودولها. واليوم كما بالأمس، يأبى سكّان اليمن أن يتّصفوا بالعروبة، أو أن يعتبروا أنفسهم بمنزلة واحدة مع بدو الصحراء وأعرابها. وهم إن شدّدوا، كما ورد في دستور دولتهم، على العروبة، فلأنّ العروبة أصبحت تعني الإسلام.

---

(١٦) HAVELY, *Muh. Stud.* Bd. I, 92, in *Journ. Asiat.* 1822, II, 49

وتجب الإشارة أيضا إلى أنّ بلاد الشام والهلال الخصيب برمتّه وما والاه من مناطق، صحراوية كانت أم سهوباً وسهولاً، لم تدخل في مجال التقسيم العربي الإسلامي للجزيرة العربيّة، ولا أيضاً في مجال التقسيم اليوناني الروماني الكلاسيكي. لذلك، لا نحسب مناطق الشام والعراق وفلسطين ولبنان، لا جغرافياً، ولا تاريخياً، ضمن الأقسام العربيّة الخمسة، أو الأقسام اليونانية الرومانية الثلاثة..

ثمّ إن ياقوت الحموي نفسه يعترف بصعوبة تحديد الجزيرة العربية. فهو يؤكد في مطلع كلامه على حدود الجزيرة، ويقول: « قد اختلف في تحديدها ». ثمّ ينقل عن أبي المنذر هشام بن محمّد بن السائب مستنداً إلى ابن عباس، قال: « اقتسمت العرب جزيرتها على خمسة أقسام » [١٧]. ويعدّدها كما رأينا. وفي النهاية يحدّدها بقوله: « فمن جزيرة العرب: الحجاز وما جمعه وتهامة واليمن وسبَا والأحقاف واليمامة والشحَر وهجر وعمان والطائف ونجران والحجر وديار ثمود والبئر المعطّلة والقصر المشيد وإرم ذات العماد وأصحاب الأخدود وديار كندة وجبال طيءٍ وما بين ذلك » [١٨]. يعني أنّه لا يخرج عن ذلك « الخطّ الوهمي » الذي تكلمنا عليه.

---

(١٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١٣٧/٢. مادّة: جزيرة العرب.
(١٨) المرجع نفسه، ١٣٨/٢.

خَاتمة الفَصْل الثَالثْ

نحن، مع تقسيم الجزيرة العربيّة، أمام تناقضات ثلاثة:

أوّلها انتساب العروبة الصريحة الأصيلة إلى اليمن والعربيّة السعيدة؛ ومنها خرجت بعض العشائر لتسكن في « العربة »، أي الصحراء، وعاش أفرادها بدواً ورعاةً تحت الخيام ووراء السرح والجمال. هؤلاء اختلطوا مع من خرجوا من أشور ومصر وفارس والروم والحبشة وبلاد الشام... وبسبب اختلاطهم، سمّوا في التاريخ العربي الإسلامي « عرباً مستعربة »، أي منتمية إلى العروبة انتماءً.

والتناقض الثاني أنّ اليمن، بعد أن خلعت عنها بَدْوَها وأعرابها، ثم تحضّرت، فقدت بداوتها، وبالتالي، عروبتها. لهذا لم تُعرفُ دولة واحدة نشأت في اليمن بصفتها العربيّة. وهذا ما أكّدناه مراراً. وبعد أن تخلّصت اليمن من عربها، أي بعد أن تحضّرت، علقت العروبة بالنازحين عنها والمطرودين منها. وأصبح عربيّاً كلّ من سكن البادية والصحراء.

فالتناقض إذن يقع في أنّ اليمن أنشأت العروبة و « أسعدتها »، ثم تحرّرت منها، بسبب « سعادتها ». ولمّا تحررت زجت بالذين ما استطاعوا العيش في حضارتها وسعادتها في الصحراء. فأصبح هؤلاء يحملون إلى الصحراء بدائيتهم وعروبتهم القديمة. وأصبحت العروبة، معهم، حالة عيش بدائية. هذه الحالة تمكّنت أكثر ما تمكّنت في الحجاز، وبخاصة في مكّة، لتجمّع هؤلاء البدائيين النازحين حول الكعبة حيث الماء وعبور القوافل التجاريّة. ولكثرتهم، ولوفرة لقمة العيش هناك،

تجمّعوا، أي « تعرّبوا »، في قبيلة « قريش »، أي قبيلة « التجمّع » و « التعرّب ».

والتناقض الثالث يكمن أيضاً بين مفهوم العروبة بمعناها الآرامي، أي « الغربي »، على ما ذكرنا في الفصل السابق، وبين مفهومها في هذا الفصل بمعناها « اليمنيّ »، أي سكان اليمن... هذا التناقض هو نتيجة مفهوم إسلامي متأخّر جداً في التاريخ، هو من مخلّفات المؤرخين المسلمين في العصر العباسي.. هؤلاء المؤرخون عادوا إلى الوراء بدون سند، وأطلقوا الأسماء بدون حجة، ووصفوا أحوالاً ماضية بما هم عليه في واقعهم.. فكل كلام المسلمين عن مرحلة ما قبل الإسلام اختراع وانعكاس لأحوالهم الحاضرة، ولمواقفهم العدائية من بعضهم بعضاً... ولا بدّ أن يردوا كل خلاف بينهم إلى ما قبل الإسلام، أكان السند صحيحاً أم غير صحيح.

وتجب الإشارة أيضاً إلى أن « الخلعاء » لم يكونوا كلهم من اليمن. بل كان هناك أيضاً « مطرودون » و « خلعاء » و « مضطهدون » و « مهجّرون » و « أسرى » من بلاد عديدة ومختلفة. لقد كان، بحسب ما نقرأ من أسماء في التواريخ العربيّة الإسلامية، أناس من اليونان، والفرس، والروم، ومصر، وفلسطين، وفينيقيا، وبلاد ما بين النهرين، والحبشة، والسودان، والصومال... هؤلاء كلّهم عاشوا في الصحراء، أفراداً، وشتاتاً، وعشائر، وعصابات، لا حيلة لهم بالعودة إلى مواطنهم الأولى، هؤلاء كلهم كوّنوا عصابات على الطرق التجارية، وفي واحات حيث الكلاء والماء، لدرء خطر الجوع والفقر. واشتهروا بشجاعتهم، وعيشهم من النهب والسلب والغزو.. وبسبب شرّهم، كثرت « الخفارة » على قوافل التجارة. وأخذ تجّار مكّة الحيطة منهم، فجلبوا لهم من الحبشة حراساً أشدّاء. فكان « الأحابيش » في عزّ قريش، يعدّون بالألوف، وفي أيّام النبيّ بعشرات الألوف.

وممّا يدلّ على تنوّع سكّان مكّة والحجاز كثرة الأديان والأحزاب والشيع وقد أشار إلى ذلك القرآن نفسه، وفي مناسبات عديدة. لقد عرفت مكّة وسائر المدن العربيّة

اليهوديّة والنصرانيّة والمجوسيّة والوثنيّة. كما عرفت اليهودية بتنوّع أحزابها، والنصرانية بتعدّد فرقها وشيعها، من ملكانيّة ويعقوبيّة ونسطوريّة وأريوسيّة وإبيونيّة وقيرنثية وألكسائية وغنوصية... وكلّها نجد لها في القرآن ذكراً وأثراً... بل كان هناك « بيع » يهودية، و « كنائس » نصرانية، و « معابد » مجوسيّة، كما كان عليها « أحبار »، و « رهبان »، و « قسوس »... كلّ هذه عرفتها مكة، وعرفت هي كيف تدخل إلى قلب مكّة، قبل أن يدخلها الإسلام.

كل هذه العناصر المتنوّعة والمختلفة، في المصدر والعقيدة والانتساب، كوّنت سكّان مكّة والمدينة ومدن الحجاز الواقعة على طرق التجارة. هذه العناصر سمّاهم المسلمون فيما بعد بـ« العرب المستعربة »، أي بـ« أخلاط » من أصول عديدة، وذلك تمييزاً لهم عن « العرب العاربة »، الذين لم يعد لهم، بعد الإسلام، ذكر. وأصبحوا، في التاريخ الإسلامي، كـ« العرب البائدة » أنفسهم.

[Blank Page]

الفَصْل الرَابع

فصَائل العَربْ

أولاً : تنوّع العروبَة
ثانياً : العَربُ البَائدَة
ثالثاً : العَربُ العَاربَة
رابعاً : العَربُ المسْتعربَة
خامساً : العَدَاوة بَين العَرب

خاتمة الفَصْل الرَابع

أولاً: تنوّع العروبَة

هنا أيضاً دليل آخر على ضعف النسبة العربيّة لبعض سكّان جزيرة العرب. ففي التمييز بين « عرب بائدة » و « عرب عاربة » و « عرب مستعربة »، كما في التمييز « عربية سعيدة »، « عربيّة صحراوية »، « عربية صخرية »، إشارة واضحة إلى تنوّع المستويات العربيّة.. مثل هذا التنوّع، ولو كان مصطنعاً، وجاء متأخرا، يفيدنا في الاختلاف الحاصل بين « العروبة الصريحة » و « العروبة المنتحلة »، أي بين « العرب الأصيلين » و « العرب المنتمين إلى العروبة » أو « المنتسبين إليها » انتساباً لم يكن لهم في البدء.

ومن الأكيد أنّ تقسيم العرب إلى مستويات ثلاثة، أو طبقات ثلاث، هو « تقسيم لا نجد له ذكراً، لا في التوراة، أو الموارد اليهودية الأخرى، ولا في الموارد اليونانية، أو اللاتينية، أو السريانية. ويظهر أنّه تقسيم عربي (إسلامي) خالص، نشأ من الجمع بين العرب الذين ذكر أنّهم بادوا قبل الإسلام، فلم تبق منهم غير ذكريات، وبين العرب الباقين، وهم، أمّا من عدنان، وأمّا من قحطان »[(١)]. ثمّ إنّ « كلّ ما روي عن هذا التقسيم، وما رواه الرواة من أخبار تلك الطبقات، لم يرد إلينا من النصوص الجاهلية، وإنّما ورد إلينا متواتراً من الكتب المدوّنة في الإسلام، لذلك لا نستطيع أن نجرؤ فنقول: أنّ هذا التقسيم وضعه الجاهليّون »[(٢)].

---

(١) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢٩٥/١.
(٢) المرجع نفسه، ٢٩٥/١.

فالعرب، في طبقاتهم الثلاث هم، في المصادر الإسلامية: « عرب بائدة »، و « عرب عاربة »، و « عرب مستعربة ». وهم، من حيث القدم، بائدة وباقية، ومن حيث النسب، قحطانيون وعدنانيون[٣]، ومن حيث السياسة، يمنيّون وقيسيّون... ومن هذه الأقسام الأساسية تفرّعت كل القبائل والعشائر المسماة عربية، وانتشرت بحسب قدرتها على الغزو والنهب والسلب، وتوزّعت بحسب استطاعتها على الهرب من الفقر والجوع ونكبات الصحراء. وتمكّنت من الاستقرار في مكان ما بقدر ما تتوفّر لها سبل الحياة من كلأ وماء وسطو على قوافل التجارة وطرقاتها.

وفي عرف المؤرخين العرب أنّ « القحطانيين » أو « العرب العاربة » نشأوا في اليمن وسكنوا فيها واستقرّوا ثم تحضّروا. ولكنّهم، بعد تحضّرهم، ضيّعوا النسب العربي. والذين بقوا على عروبتهم هُجّروا إلى أنحاء الصحراء. واختلطوا بشعوب كثيرة أعجميّة، فضيّعوا، هم أيضا النسب العربي، وسمّوا « مستعربة ». ومنهم من لم يرد الاختلاط مع الأجانب فصمدوا وعاندوا كل انفتاح وانصهار، فقابلتهم الصحراء بظلمها وأهلكتهم، فسمّوا بـ« العرب البائدة ». هؤلاء هم خلّص العرب وأثبتهم أصالة وصراحة. ولهذا قيل: « إن العرب البائدة يطلق عليهم اسم العاربة، أو العرباء، وهم الذين كانوا عرباً صرحاء خلّصاً ذوي نسب عربي خالص » [٤].

هذا يعني أنّ العرب « الباقية »، في قسميهم « العاربة » و « المستعربة »، أو « القحطانيين » و « العدنانيين »، هم أقل صراحة من العرب « البائدة »، أيّ أنّهم اختلطوا مع شعوب وأمم كثيرة ومتنوّعة، ففقدوا، لاختلاطهم، صحّة النسب... ولأجل هذا، يبدو الافتخار بالنسب، عند أهل البادية، من أجلّ صفات المدح

---

(٣) أو أيضا: حميريون ومضريون، أو سبأيون ونزاريون، أو يعربيون ومعديون... « وكثيراً ما يستعاض عن اسم المضريين والعدنانيين في التاريخ بأسماء البطون، كقريش وبكر وتغلب وتميم » (الشيخ خزعل، تاريخ الجزيرة العربية، ص ٤٦).

(٤) حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الجزيرة العربية، ص ٢٥ من ط ٣.

والعزّ والنبالة. ولهذا أيضاً، كان « علم الأنساب » من أبرز علوم العصر الجاهلي وصدر الإسلام.

ومع هذا لن نذهبَ في الشكّ بعيداً لنقول، مع الشيخ خزعل، بأنّ العرب البائدة هم وحدهم عرب صرحاء، بل بين العرب العاربة أيضاً عرب صرحاء. وكلّ مَن استمر في البداوة والعيش البدائي هم أيضا عرب، وإن لم يكونوا صرحاء. والمستعربون أيضاً، وإن لم يكونوا صرحاء، هم عرب لأجل اختيارهم العروبة نوعاً من أنواع الحياة... بيد أنّنا لن نتوقّف على نوعيّة هذه العروبة المرادة بهذا الشكل، لأنّ مثلها يعاش في كل مكان من العالم. نتوقّف فقط على العروبة التاريخية في فصائلها الثلاث: البائدة والعاربة والمستعربة، قصد التعرّف على هويّة النبيّ محمّد الخالصة والأكيدة. أهو عربي صريح، أم عربيّ هجين ؟

فالنبيّ محمّد هو، بحسب النّسابين وأهل السير والأخبار، من العرب المستعربة، من العدنانيين، من قبيلة « التجمّع »، من قريش. هو إذن من « خلطاء العرب »، أي من الذين ضاعت أنسابهم في الصحراء، وامتزجوا بأمم مختلفة ومتنوّعة، فلا يعرف فيها حقيقة الأصل وصحّة الانتماء. وفي كل حال، إن الموضوع، موضوع عروبة النبي، سابق لأوانه، لأنّ الصورة لم تتّضح بعد. المهمّ الآن وضع العروبة في موضعها الصحيح، وذلك بتتبّع أصناف العرب وطبقاتهم وفصائلهم؛ فنضيف بذلك دليلاً آخر على فساد نظرية العروبيين من المسلمين.

ثانياً: العَربُ البَائدَة

العرب البائدة هم عدّة قبائل بادت وهلكت. ولم يبقَ منها في التاريخ إلاّ أسماؤها. ولكنّ علم الآثار يشير إلى وجود بعضها وجوداً فعلياً، في حين أنّ بعضها الآخر لا نجد له ذكراً. أمّا التي وجدت فكان لها موطن وأرض ولغة وحضارة. وسبب هلاكها هو ما كان يحدث، عادة، في الصحراء، من غزو وحروب ودمار، أدّت، بعض الأحيان، إلى « إبادة » جماعية، و « تهجير » عامّ، مع ما كان يتبع ذلك من « مجازر » و« خراب » و« دمار » و« فناء ». هذه المظاهر هي من مقوّمات الحياة في البادية. فالعشائر تبيد بعضها بعضاً، وتنهش بعضها بعض، وذلك في عمليّة « تنازع البقاء ».

والأمر طبيعي أن تزول من الوجود قبائل مثل: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وأميم، وجاسم، وعبيل، وعبد ضخم، وجرهم الأولى، والعمالقة، وحضورا.. من هذه القبائل ما ورد اسمه في القرآن والتاريخ وعلم الآثار الباقية، ومنها ما لم نجد له ذكراً في مكان، إلاّ في مخيلة كتبة التاريخ العربي. ومن ابتغى معرفة شيء عنها يستطيع النظر في كتب عديدة[١]. ولن نقف عندها لعدم استفادتنا من الخوض فيها لمعالجة بحثنا هذا.

---

(١) انظر مثلاً: تاريخ الطبري ١٠٣/١ وما بعدها، التنبيه والاشراف للمسعودي ص ١٥٧، تاج العروس ٣٣٣/٣ وما بعدها، تاريخ ابن خلدون ١٠/٢ وما يلي، المعارف لابن قتيبة، ص ١٣ وما يلي، الفاخر، ص ٥٧ وما بعدها، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٥/١، وما بعدها، صبح الأعشى ٣١٤/١ وما بعدها، الأغاني ٣٠/١١ وما بعدها، عجائب المخلوقات للقزويني ٤٠/٢ وما بعدها، الاكليل للهمداني ٧٠/١ وما بعدها، معجم البلدان لياقوت، في مواضعها، ابن سعد الطبقات الكبرى ٢٠/١، وما بعدها، شمس العلوم ٣٢٠/١/١ وما يلي، نهاية الارب ٨٠/٣ وما بعدها.. ومعظم التواريخ العربية القديمة وكتب السير...

المهم في ذلك كلّه هو أنّ « إبادة » شعوب كثيرة وبكاملها حدثت في التاريخ، وتحدث أيضاً، وذلك لأسباب عديدة، منها طبيعية، كالجوع والجفاف والبراكين والزلازل والعواصف الرملية العاتية وانحباس المطر؛ ومنها سياسة، كالاضطهاد والحروب ونفي المعارضين؛ ومنها اجتماعية، كالنهب والسلب وسوء الأخلاق وملاحقة المطلوبين والظالمين وعصابات السوء... كلّ هذه وغيرها أدّت وتؤدّي إلى هلاك قبائل وانتصار أخرى، تنازعاً لحياة أفضل لا تكون إلاّ بشريعة القوّة والقهر.

والسؤال هو: هل هذه القبائل أبيدت برمّتها ولم يبق منها من يخبّر ؟ أم أنّها تحوّلت إلى قبائل أخرى، وانصهرت فيها ؟ يبدو أنّ النوعين حدثا: فهناك قبائل وممالك ودول تحوّلت ولم يبقَ من ذكرها إلاّ الاسم، كمثل قتبان ومعين وريدان وسبأ وغيرهم... هذه لم يقل أحد عنها إنّها هلكت وبيدت. بل يقول التاريخ عنها بأنّ حكمها انقضى وحلّ محلّة حكم آخر... ولكن هناك قبائل وعشائر قيل عنها بأنّها هلكت وبادت، كمثل التي ذكرنا عن عادة وثمود وجرهم والعمالقة وغيرهم..

هذه القبائل العربية بادت، ولا تفيدنا إبادتهم في استخلاص ما نقصد. إلاّ أنّ الإشارة إلى كونهم من « العرب الصرحاء الخلّص » هو مقصودنا. فهل يعني ذلك إنّ بإبادتهم انتهت « العروبة الخالصة ؟ » أم أنّ « العروبة الخالصة » بيدت بانتهائهم ؟ هذا يعني أيضاً: هل أنّ العروبة انتهت بهم ؟ أمّ أنّها استمرّت بشكل آخر وبجماعة أخرى ؟ يبدو أنّ هناك « عرباً باقية »، وهؤلاء على نوعين: « عرب عاربة » و « عرب مستعربة ». ولكنّ « العاربة » صفة لازمت « البائدة ». فهل هذا يعني أخيراً، أنّ « العاربة » من العرب هم الذين يعيشون كما كانت تعيش « البائدة » ؟ أم إنّهم من سلالة هؤلاء البائدة ؟

يبدو أنّ الجنسية الصريحة اللاحقة بالبائدة انتهت، ولم يبقَ من العروبة شيء إلاّ عند هؤلاء الذين يحيون على طريقتهم البدائية الرديئة. فالعربية الحديثة، إذن، هي

في كيفيّة الحياة والمعاش، لا في العرق وصحّة النسب. وهنا أيضاً لسنا أمام أناس لا يغيّرون حياتهم، بل الناس في وعيهم يتطلعون إلى الأفضل. والذين يعون الأفضل ويتطلعون إليه يتحضّرون. ومن تحضّر ابتعد لا محالة عن العروبة والبداوة. وهذا هو شأن الإسلام الذي « هجر » العروبة، و « خرج » منها وتطلّع نحو « الفتح ». فالإسلام حضارة لأنّه رفض العروبة ونفض عنه غبارها. وهو وعي لذاته ولوضع الإنسان في الصميم، لذلك ابتدأ تاريخه بـ« الهجرة »، كما ابتدأ تاريخ اليهودية بـ« الخروج »، وتاريخ المسيحية بـ« الفصح » أي « العبور ».

فبهلاك القبائل العربية البائدة تأكد لنا وجهها العربيّ الصريح. وهي، في حال وجودها، حقاً عربيّة. ولكنّها، في عدم وجودها، عربيّة بالتأكيد. وبمجيء الإسلام كان لنا تأكيد آخر على وجوب إبادتها، وهجرها، وعدم العودة إليها؛ لذلك قال النبي: « من بدا جفا » [(٢)]، أي من سكن البادية، أو عاد إلى البادية، أو استلذّ العيش فيها، هو صاحب جفاوة وغلظة وتخلّف، على ما طاب للقرآن أن يصف « الأعراب » باستمرار.

* * *

هذه الطبقة من العرب بادت لسبب من الأسباب التي ذكرنا. قد تكون إبادتها لأجل طارئ طرأ عليها من الخارج. إلاّ أنّ إبادتها المحكمة تمّت في النهاية على يد النبيّ العربي محمّد بمجيء الإسلام. هذا كان سبباً واعياً، وسبباً من الداخل. لهذا كان أخطر ما يكون على العروبة، وخطره عليها هو إلى الأبد.

---

(٢) سنن ابن حنبل ٣٧١/٢ و٤٤٠، ٢٩٧/٤، سنن أبو داود، باب الأضحى ٢٤، سنن الترمذي، باب الفتن ٦٩، سنن النسائي، باب الصيد ٢٤. انظر أيضا صفحة ٨٨ ـ ٨٩ من هذا البحث.

ثالثاً: العَربُ العَاربَة

العرب العاربة، هم القحطانيّون، أو السبأيّون، أو اليمنيّون، أو اليعربيّون. هم العرب الصرحاء الخلّص منذ أن خلقهم الله. نسبتهم في التاريخ إلى قحطان وهو يقطان التوراة[١] ابن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح[٢]. ومن أولاد يقطان: حضرموت، وشبا، وحويلة، في « جبل المشرق » [٣]. ومن أولاده في تاريخ العرب: « يعرب » الذي تولّى الملك بعد أبيه، وكان ملكه باليمن، وقد غلب بقايا عاد، ووزّع إخوته في الأقطار. ومن إخوته: أزال الذي بنى صنعاء، وجرهم الذي ولي الحجاز، وجديس، ويمن الذي به سمّيت بلاد اليمن[٤].

إلى « يعرب » ينسب أهل الأخبار نشوء العرب، فيزعمون أنّه أوّل من « أعرب في لسانه »[٥]، أي أفصح. سكن اليمن، وأسكن فيها بنيه. ثم انتقل الملك منه إلى ابنه « يشجب »، ويقال له أيضاً « يمن »، ومن « يمن » إلى ابنه « عبد شمس » ويقال له « عامر »، ولقّب بـ« سبأ »، وهو الذي بنى قصر سبأ ومدينة « مأرب ». وفتح مصر وبنى بها مدينة « عين شمس »، وأنّه أوّل من سنّ السبي، فعرف بـ« سبأ ». ووطّد بذلك حكم القحطانيين في اليمن[٦]، على ما يقول المؤرخون المسلمون المتأخرون.

---

(١) سفر التكوين ٢٥/١٠ و٢٦ و٢٩، ١ أخبار ١٩/١ و٢٠ و٢٣ (ستّ مرّات).
(٢) تكوين ٢١/١٠ ـ ٢٥.
(٣) تكوين ٣٠/١٠.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام ٤/١، مروج الذهب ٢٧٦/١، نهاية الأرب ٢٧٥/٢، الاشتقاق ٢١٧، الاكليل للهمداني ٨٧/١، تاريخ الطبري ٢٠٥/١، تاريخ ابن خلدون ٩/١. طبقات ابن سعد ١٨/١...
(٥) المراجع السابقة، بالإضافة إلى القاموس ١٠٣/١، مروج الذهب ٢٧٧/١.
(٦) الأصفهاني ٨٢، التيجان ٤٩، المحبّر ٣٦٤، الاشتقاق ٢١٧، تاريخ ابن خلدون ٤٧/٢...

ثمّ انتقل الحكم من « سبأ » إلى « حمير »، وهو أوّل من وضع على رأسه تاجاً من الذهب، وكان يلبس حللاً حمرا[٧].. ثمّ توالت بعده البنون والأحفاد، وانشقّت أنسالهم بعضهم عن بعض، فكان منهم جملة قبائل، وتفرّعت جملة فخوذ وبطون.. من أشهرهم قبائل « الأوس » و« الخزرج »، و« آل جفنة » المسمّون « غسان »، و« ثعلبة »، و« الأزد »، و« طيء »، و« همدان »، و« جزيلة »، و« جذامة »، و« تنّوخ » و« لخم » و« كعب » و« تيم الله »، و« قضاعة »...

من هذه القبائل مَن بقي في اليمن؛ ومنها من تشرّد في الصحراء، فأصبحوا بدواً؛ ومنها من بيد وهلك؛ ومنها من انتقل وغزا لأجل حياة أفضل، فسكن في بعض نواحي حضرموت وعسير واليمامة؛ ومنهم من تهجّر فقطن الصحراء؛ ومنهم من حكم وساد وأنشأ دولة وحضارة، في أمكنة عديدة، كاليمن وحضرموت، وتسمّى باسم دولة من الدول التي يذكرها التاريخ، ولها حتى اليوم آثارها وخرائبها ولغتها..

والحقيقة إن كل الذين خرجوا إلى الصحراء، أي « شرّقوا »، لم يكن لهم بذلك عن طيب خاطر. فهم أمّا خلعوا، أو طردوا، أو اضطهدوا، أو هجّروا، لسبب معارضتهم السياسية لحكم دولتهم، وأمّا هربوا لسوء فعلوه، أو لثأر يطلب منهم، أو لذنب اقترفوه ضد مجتمعهم.. والحقّ يقال، ليس من قحطانيّ واحد استمرأ جدب الصحراء وآثره على خصب بلاد اليمن، لينتقل عن طيب خاطر إلى حيث الموت والجوع والفقر والحرمان. لهذا يمكننا القول: « القحطانيون... لم يكونوا يعرفون عن باطن جزيرة العرب شيئاً » [٨]، ويمكننا التأكيد بأنّ « هجرة القبائل اليمانيّة إلى الشمال هو أسطورة » [٩].

* * *

(٧) مروج الذهب ٢٧٨/١، تاج العروس ١٥٨/٣، لسان العرب ١٤٧/٣، ابن حزم، جمهرة العرب، ص ٤٠٦...

(٨). جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٤٢٤/١.

(٩) « هافلي »، الدراسات المحمّدية، في « المجلّة الأسيوية ». انظر المرجع ص ١٢٣.

ومع هذا لا يجب أن نحمّل هذه « الأسطورة » خرافة مطلقة. فهناك قبائل نزحت من اليمن إلى الشمال والشرق، أي إلى الصحراء القاحلة، وذلك لسبب من أسباب الهجرة القاهرة. وحمل هؤلاء النازحون عروبتهم الصريحة معهم، ولكنّهم اختلطوا وامتزجوا مع من سبقهم أو لحقهم من بلاد أخرى. ولم يستطيعوا الحفاظ على أصالتهم العربيّة طويلاً بسبب أنّ المصيبة تجمع. ولهذا جرى في الصحراء ما يسمّى بـ« علم الأنساب » الذي حاول، دون جدوى، الحفاظَ على نقاء الدم العربي. إلاّ أنّ بؤس العيش في الصحراء كان أقوى من صحّة الأنساب.

ثمّ أنّ هذه « العروبة المهجَّرة » في الصحراء ضيّعت نسبها الأصيل كما ضيّعت « العروبةُ المستقرّةُ » في اليمن شَرَفَ قحطانيّتها. هذه العروبة، بعد أن تحضّرت، وأسست مدناً وممالك، أصبحت تعرف، في التاريخ، بأسماء هذه المدن وهذه الممالك. وهكذا، مضى زمان والعروبة ضائعة لا هويّة لها. فلا هي توجد بعد في ممالك اليمن ودولها، ولا القبائل المهجّرة استحقّت، لاختلاط نسبها، الافتخار كثيراً بتلك العروبة التي حملتها معها من اليمن.

وليس مستغرباً البتة أن يضيعَ في الصحراء كلُ شيء. ولهذا نشأ « علم القيافة » كبديل لهذا الضياع. فهل نحمل اليوم قنديل القيافة لنبحث عن العروبة الضائعة!؟ وهل نعود إلى ذاكرة الرجال لنقرّر علم الأنساب ونعتمد عليه في البحث عن الدم العربي القحطاني النقي؟! إنّ اليمنيّين أنفسهم تخلّصوا، بعد تحضّرهم، من عروبتهم، فهل يعني ذلك أنّهم ألصقوا عروبتهم بمن نزح منهم صوب الشرق والشمال ؟! إنّ المعركة بين العاربين والمستعربين كانت ولمّا تزل، فهل هي معركة على الاستئثار بالعروبة الصريحة أم معركة بين حضارة اليمن وبداوة أعراب البادية ؟!

لن نفوز بوضوح الصورة إلاّ مع النبيّ بمجيء الإسلام، حيث « الهجرة » من العروبة إلى الحضارة، والانطلاقة من الجزيرة إلى بلاد الشام والهلال الخصيب و « الفتح الإسلامي » المندفع، يقرّر هويّة العروبة ومصيرها.

* * *

رابعاً: العَربُ المسْتعربَة

العرب المستعربة، هم العدنانيون، أو النزاريون، أو المعديون، أو المضريون، أو القيسيّون. هم من صلب إسماعيل بن إبراهيم وامرأته هاجر[١]. « قيل لهم العرب المستعربة لأنّهم انضمّوا إلى العرب العاربة، وأخذوا العربيّة منهم. ومنهم تعلّم اسماعيلُ العربيّة.. وموطنهم الأوّل مكّة.. فيها تعلّم اسماعيل العربيّة، وفيها ولد أولاده. فهي إذن المهد الأوّل للإسماعيليين » [٢].

وعدنان هو الجدّ الأعلى لهؤلاء العرب المستعربة. ولكنّنا لا نجد له في التوراة اسماً أو ذكراً؛ مع أنّ مؤرخي الإسلام نسبوه، كما هي حال قحطان، إلى سام بن نوح، وقالوا أنّ بين عدنان وسام عدداً كبيراً من الأباء يستحيل عدّهم[٣]. وقالوا أيضاً، رغم نسبته التوراتيّة، بأنّه أقل عروبةً وأصالةً ونَسَباً من العرب العاربة. بل إنّه من أولئك الذين جاءوا من العربة إلى اليمن، وانتسبوا إلى بني قحطان.

فإذا كان « من السهل علينا الوقوف على المنبع الذي أمدّ الأخبار بأصل كلمة قحطان.. فإنّ من العسير علينا أن نتحدّث عن المنبع الذي أمّد أهل الأخبار باسم عدنان. فليس في التوراة اسم يشابهه بين أسماء أبناء اسماعيل، أو غير أبناء إسماعيل، وليس فيه اسم ملك عربي أو سيّد قبيلة عربيّة اسمه يشابه اسم عدنان. ثمّ

---

(١) سفر التكوين، الفصل السادس عشر..
(٢) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب..، ٣٧٥/١.
(٣) تاريخ الطبري ١٩١/٢، ابن هشام ٣/١، مروج الذهب ٣٩١/١، طبقات ابن سعد ٥٤/١، تاريخ ابن خلدون ٩٨/٢، صبح الأعشى ٣٠٧/١، نسب قريش ٣.

إنّنا لا ندري كيف عثر عليه أهل الأخبار، وكيف صيّروه على الوزن الذي صيّغ به اسم قحطان » (٤).

وعلى لذّة النسّابين بإيجاد النسب لكل فرع وبطن من فروع العرب وبطونهم، عجز علم النسب عن الصعود إلى ما وراء عدنان. لهذا جاء النبيّ يكذّب كل ما ورد على لسان أهل الأنساب فقال: « كذب النسّابيون، فما بعد عدنان فهي أسماء سريانية لا يوضحها الاشتقاق » (٥). وأكّد ابن سعد ذلك بقوله: « ما وجدنا في علم عالم، ولا شعر شاعر، أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان بثبت » (٦).

لأجل ذلك يبدو لنا أنّ العرب المستعربة هم قبائل من أصل غير « عربي »، بل هم ينتمون إلى العروبة انتماءً، وأخذوا العروبة التي لم تكن لهم في الأصل. فهم إذن من غير « يعرب » الذي ينتسب إليه العرب العاربة الصرحاء. لـ« كأنهم أغراب دخلوا البلاد وتجنّسوا بجنسيّتها » (٧). ولغرابتهم هذه جرى بينهم وبين العاربة عداء مستحكم. بل لم يعرف لهم في التاريخ ذكر لولا هذا العداء.

هذا العداء ظهر في تفسير القحطانيين للفظة « معدّ » جدّ المستعربين. فمعد تعني: الشظف في العيش والغلظ في المعاش والتقشّف(٨). وتعني أيضاً: « حياة بدوية شاقّة بعيدة عن كل وسائل الحضر وترف أهل المدر » (٩). ومن ذلك القول: « عليكم باللبسة المعدية »، أي خشونة اللباس. وقيل أيضاً: « اخشوشنوا وتمعّدوا » (١٠).

---

(٤) د. جواد علي، المفصّل...، ٣٨٠/١.
(٥) الاشتقاق ٢٠، ابن خلدون ٣/١، البلاذري، أنساب ١٢/١.
(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى ٥٨/١.
(٧) د. فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٦٠.
(٨) لسان العرب ٤١٤/٤، تاج العروس ٥٠٣/٢، الاشتقاق ٢٠/١.
(٩) لسان العرب ٤١٤/٤.
(١٠) المرجع نفسه ٤٠٧/٧.

وورد: « تسمع بالمعدي خير من أن تراه » [١١].

فالظاهر إذن « ان كلمة معد كانت تعني ما تعنيه كلمة عربي عند الأشوريين، أي البدو والأعراب » [١٢]. ولذلك اتّهمت معدّ في التاريخ بالمكر والكيد، فورد في الأخبار: « كنت أخبرك أنّ معدا لا ينام كيدها ومكرها »، وقيل: « إنّ عَدِي بن زيد فيه مكر وخديعة، والمعدي لا يصلح إلاّ هكذا » [١٣].

« يتبيّن من كل ما تقدّم أنّ معداً كلمة أريد بها « أعراب » كانوا يتنقّلون في « البوادي، يهاجمون الحضر والأرياف.. وكانوا يباغتون الناس ويفاجئونهم، وكانت حياتهم حياة قاسية صعبة، ولم يكونوا قبيلة واحدة، بل قبائل عديدة، تتشابه في المعيشة، وتشترك في فقرها وفي تعيّشها على الغزو والتنقّل، وقد كانت تقيم في البوادي وعلى أطراف الحضارة.. ثم صارت اللفظة عَلَماً لرجل، صُيِّرَ جَدّاً للقبائل التي عاشت هذه المعيشة » [١٤].

وزاد في بداوة معد ووحشتهم ميلهم إلى الاقتتال مع بعضهم بعضاً، ودَفَعَهُم إلى ذلك فقرُهم وجدبُ البادية، وحاجتُهم الماسّة إلى الكلأ والماء، ونفرتُهم من بعضهم بعضاً، وانتسابُهم إلى جدود وأصول مختلفة ومتنوّعة،.. كل ذلك دفعهم إلى التناحر والتشتّت والتفرّق حتى ضرب بهم المثل، وقيل فيهم شعراً:

لقد فُرِّقْتُم في كلِّ أوبٍ كتفريقِ الإلهِ بني معدِ [١٥].

---

(١١) تاج العروس ٥٠٣/٢، مجمع الأمثال للميداني ١٢٩/١، المثل ٦٥٥.
(١٢) انظر جواد علي، المفصّل... ٣٨٥/١.
(١٣) الأغاني ٢٢/٢، مروج الذهب ١٧٣/١.
(١٤) د. جواد علي، المفصّل...، ٣٨٩/١.
(١٥) معجم البكري ١٧٣/١، للشاعر البجلي.

وكان يقع فيما بينهم الشرّ والعداء، إلى « أن وقع الشرّ بينهم فتفرّقوا وتخاذلوا، وقاتل بعضهم بعضاً. يقتل العزيز منمهم الذليل. قال المهلهل:

غنّيت دارَنا تهامةَ في الدهرِ وفيها بنو معدٍ حُلولا
فتساقَوا كأساً أمرتْ عليهم بينهم يقتلُ العزيزُ الذليلا[١٦].

* * *

بقي أن ننظر في مواطن العرب المستعربة. وفي ذلك آراء متناقضة. « فاليمن، في رأي فيلبي[١٧] وجماعة آخرين من المستشرقين[١٨]، هي « مهد العرب »، ومهد الساميين. منها انطلقت الموجات البشرية إلى سائر الأنحاء. وهي في نظر بعض المستشرقين أيضاً « مصنع العرب »، وذلك لأنّ بقعتها أمدّت الجزيرة بعدد كبير من القبائل، قبل الإسلام بأمد طويل، وفي الإسلام » [١٩]. وهم يعلّلون ذلك بقولهم أنّ الإنسان يتّجه عادة من البداوة إلى الحضارة وليس العكس.

بيد أنّ بعض المنقبين في الصحراء العربية وبعض المستشرقين رأوا أنّ الصحراء لا يمكن، بحال من الأحوال، أن تكون « مصنعاً » للرجال، وذلك لعدم وفرة سبل العيش فيها. ولذلك قالوا بأنّ أصل العرب كان من إفريقيا، ودعموا رأيهم بما رأوه من تشابه بين ملامح الإفريقيين والعرب، ومن خصائص عرقيّة مشتركة، ومن صلة وثيقة بين لغات الأحباش والبربر والعرب[٢٠]. ومنهم أيضا من رأى بلاد ما بين

---

(١٦) معجم البكري ١٨/١، طبعة السقا.

(١٧) PHILBY. *The Background of Islam*, Alexandria, 1949, p. 9 ff…

(١٨) MONTGOMERY, *Arabia and the Bible*, Philadelphia 1934 p. 126.– V. PHILBY, op. cit., p. 9. –E. SCHRADER, n ZOMG. p. 14.

(١٩) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب...، ٢٣٣/١.

(٢٠) من بين هؤلاء GERLAND و BERTIN و NOLDEKE وموريس جسترو، وكين...
Enc. Brit- 9 th. Ed. *Arabia*, Barton, p. 6. – *Enc. of Religion*, II, p. 380.
انظر: جواد علي، المفصّل ٢٣٥/١، وحتي، تاريخ، ١٠.

النهرين وبلاد الشام وأرض النيل هي في أساس الهجرات منها إلى الصحراء العربية[٢١]... وهؤلاء يعلّلون ذلك بقولهم أنّ الإنسان لم يكن أوّلاً في الصحراء، بل، لسبب من الأسباب، طُرد من الأرض الخصبة إليها وليس العكس.

قد تكون الأسباب التي ترجّح الرأي الثاني، أقّله في مراحل التاريخ المتأخرة، أكثر من الأسباب القائلة بالرأي الأوّل. ومن جملة هذه الأسباب الداعية إلى القول بأنّ البلاد العامرة هي أصل سكّان الصحراء أسباب تعود إلى عوامل كثيرة، نقف عند ذكر بعضها، وإن كان في ذكرها ترداد لما ألمحنا إليه سابقاً: ضيق أرض الوطن عن تحمّل عدد كبير من السكّان؛ وتزاحم الناس على لقمة العيش والرزق، ممّا يدعوهم إلى التحاسد والتباغض والتناحر والتفتيش عن وطن جديد؛ وهجرة القبائل إلى أماكن أخرى لفساد الإدارة وضعف الحكومات الذي « ينتج عنه تزعّم سادات القبائل؛ وانشقاقهم على الحكومات المركزية؛ ونشوب الفتن والاضطرابات؛ واشتعال نيران الحروب؛ وانصراف الحكومة والشعب عن الأعمال العمرانيّة؛ وتلف المزارع والمدن؛ وتوقّف الأعمال التجارية؛ وحصول الكساد؛ وانتشار الأمراض والمجاعة؛ والهجرة إلى مواطن أخرى يأمن فيها الإنسان على نفسه وأهله وماله.. ثمّ تدخّل الحكومات الأخرى في شؤون العربيّة الجنوبيّة، كالحبشة والفرس، ممّا أدّى إلى اضطراب الأمن في اليمن وظهور ثورات داخلية وحروب.. وتحوّل الطرق التجاريّة » [٢٢].

يضاف إلى هذه الأسباب: هيمنة العرب الجنوبيين على الطرق التجارية التي تصل بلاد الشام باليمن، وببلاد الهند، ودول الخليج العربي، وحاميات على هذه الطرق لحماية القوافل من غارات الأعراب والبدو و « ذؤبان العرب » ولصوص

---

(٢١) انظر: جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ٤٤ ـ ٤٥، ناجي معروف، ٧٧...
(٢٢) د. جواد علي، المفصّل، ٢٤٦/١، انظر « موّسل »، نجد، ص ٣٠٩.

الصحراء.. وهجرات قبائل مثل الغساسنة والمناذرة، وهم من اليمن(٢٣)، وكذلك قبائل طيء وتغلب وكلب وقضاعة.. وغيرها. ثمّ « إنّ الفتح الإسلامي هو آخر هجرة ساميّة قذفت بها جزيرة العرب إلى الخارج، وإنّها كانت بسبب الجفاف والجوع » (٢٤).

وممّا يؤكد هذه الهجرات من البلاد العامرة إلى البريّة ما نراه في سيرة ابراهيم الخليل الذي جاء من أور الكلدانيين إلى البريّة مع خيامه ومواشيه(٢٥)، وفي سيرة اسماعيل مع أمّه هاجر اللذين طردا إلى البريّة وسكنا مكّة(٢٦)، وفي سيرة يوسف الذي باعه إخوته للإسماعيليين(٢٧)... وفي سيرة اليهود الذين « خرجوا » من مصر إلى بريّة سيناء(٢٨)... ولمّا جاء الإسلام، حدثت موجة معاكسة، فأخرج « العرب » من البريّة إلى بلاد الشام، ومن الجوع والفقر إلى الخصب والغنى..

---

(٢٣) موسل، نجد، ص ٣١٣.
(٢٤) كيتاني، دراسات إسلامية، ص ٣٠٧.
(٢٥) تكوين ١٢ ـ ١٨/١٣.
(٢٦) تكوين، فصل ١٦.
(٢٧) تكوين، فصل ٣٧.
(٢٨) انظر سفر الخروج.

خامساً: العَدَاوة بَين العَرب

العداوة بين الأعراب أمر طبيعي. إنّها عداوة بين العرب العاربة أنفسهم، وعداوة بين العرب المستعربة أيضاً. وعداوة بين العاربة والمستعربة. لقد كان ذلك لهم منذ البدء، لأنّها عداوة بين الحضارة والبداوة، وعداوة بين المدينة والبادية، وعداوة بين الفقر والغنى، وعداوة بين الجدب والخصب. لقد « كان الشعبان ـ القحطانيّون أهل اليمن والعدنانيّون أهل البادية ـ في نزاع حتى إلى زمن النبيّ. ولربما كان هذا النزاع يتجلّى في اشتباك القبائل اليمنيّة والنزارية قبل الإسلام، وفي المفاخرات التي كان يتنافس بها شعراء الفريقين...، وبين الأنصار اليمنيين وقريش... والظاهر أنّ الأديان، والمعتقدات، والعادات، وأساليب المعيشة كانت أيضاً مختلفة عند الشعبين، حتى أنّ هنالك اختلافاً بالأسماء.. ولعلّ أشهر وجوه الاختلاف بينهما اللغة » [١]. و « لم تتلاشَ الفوارق بين هاتين الدوحتين العربيتين إلى الآن، بل بقي الاختلاف بينهما واضحاً على الرغم ممّا حاول الإسلام من توحيد العرب والجمع بين قبائلهم وبعث أمّة عربيّة واحدة » [٢].

وحتى فجر الإسلام كانت العداوة مستمرّة بين العربين، ولمّا تزل. عداوة أخذت طابع التناحر بين بني معد والأنصار، أي بين المستعربين والمتحضّرين من أهل يثرب. و « قد استعمل حسّان بن ثابت كلمة معد في مقابل الأنصار، وذكر أنّ

---

(١) الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٧٠، *Ency. Of Islam*, IV, 629.

(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٦٠.

الأنصار « لها في كل يومٍ من مَعدٍ قتالٌ أو سبابٌ أو هجاءُ » [٣]. وذكر أنّ « الأنصار نصروا رسول الله على رغم أنفً معدّ » [٤]. والمعروف أن الأنصار كانوا خصوم المهاجرين من قريش. والمشهور أنّ حسّان كان يعتبر نفسه من أصل يمني نزح إلى يثرب، وكان يهاجم أهل مكّة ويدافع عن أهل يثرب، ويفتخر بقومه على قوم معد ونزار، ويقول شعراً:

وكل محارب وبني نزار　　تبين في مشافره الرضاع[٥].

وبنو معد، كما يصفهم حسّان، في شعر نسب إليه، هم أنفار مستعربون، فيهم عجمة الكلام، بل هم كالبهائم في القفر. يقول:

وتعلّمتم من منطق الشيخ يعرب　　أبينا، فصرتم معربين ذوي نَفْر[٦].
وكنتم قديماً ما بكم غيرُ عجمةِ　　كلامٍ، وكنتم كالبهائم في القفرِ.

* * *

وبالنتيجة « إن الفرق الكبير بين البيئة الطبيعية والعوامل الاقتصادية ونمط الحياة في الجزيرة العربية من جهة، وبين البلدان الحضرية العربيّة في خارج الجزيرة العربية من جهة أخرى، يجعل منهما مجتمعين متناقضين تقريباً...

« أنّ العرب، في الجزيرة العربية، وفي خارجها، كأسلافهم الساميين والحاميين لا يؤلّفون جنساً أو عرقاً من الأجناس أو العروق البشرية. فهم مركّب من أجناس

---

(٣) البرقوقي، شرح ديوان حسان بن ثابت، ص ٦. ديوان حسان، ص١.
(٤) ديوان حسان بن ثابت، ص ٥ و٦ و٢٥.
(٥) المرجع نفسه، ص ٣٦.
(٦) الهمداني، الاكليل، ١١٦/١.

وأعراق متعدّدة في الأصل، عربيّة ومتعربة، اعتنقت الإسلام بعد ظهوره، واتّخذت هويّة جعلتها أسرة أو جماعة ذات روابط لغوية وثقافية ودينية، مشتركة باللغة والعقيدة الدينية والعادات والأعراف والممارسات...

« فالعرب هم، إذن، مجموعة بشريّة غير متجانسة جسمياً أو بدنياً، يعيشون في الجزيرة العربية وفي المشرق والمغرب، من العراق حتى مراكش. فهم يمثّلون كثافة بشريّة، إن لم تكن اثنية أو عرقية، فهي دينية ولغوية وثقافية. وينقسمون إلى عرب « عاربة »، أي العرب الأصليين، أو عرب الجزيرة، وإلى عرب « مستعربة »، أي الذين تعرّبوا بعد الفتح العربي وانتشار الإسلام في خارج الجزيرة، حيث انصهروا انصهاراً تاماً » (٧).

في قول جواد بولس بعض الحقيقة وكثير من الخلط. الحقيقة في التركيبة العربيّة غير المتجانسة عرقاً واثنيةً. والخلط في نشره العرب « من العراق حتى مراكش »، وفي اعتباره العرب المستعربة هم « الذين تعرّبوا بعد الفتح العربي ». في حين أنّنا رأينا العرب ينقسمون إلى عاربة ومستعربة قبل الإسلام، وإن العروبة لم تتخطّ من جهة الشمال « خطّها الوهمي » الذي تخرج العراق من حدوده، وكم بالحري مراكش وبلدان أفريقيا.

غير أنّ المهم هو ذلك النزاع الذي يشير إليه بين القحطانيين والعدنانيين. ذاك النزاع الذي تمثّل في النزاع الشديد بين مكة والمدينة، بين المهاجرين والأنصار، بين أهل الوبَرَ وأهل المدر، بين أهل البادية وبني مدرار (٨). هذا كان قبيل الإسلام. أمّا في الإسلام، فقد اشتد النزاع وتسمّى بأسماء أخرى: فهو تارة نزاع بين كلب من

---

(٧) جواد بولس، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، ص ٤٣...
(٨) انظر: لسان العرب ٣٨/٢، أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٧، الأغاني للأصفهاني ١٤٥/١٢.

قحطان وبني قيس من عدنان. وكان ذلك في أيّام معاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم، وكان على أشدّه، إذ هلك فيه خلق كثير من الفريقين. واتّسع القتال حتى شمل كل قبائل اليمن ضد قبائل قيس وتميم. وهو طوراً نزاع بين يمنيين وقيسيين، وكان في التاريخ شهيراً جداً، إذ « وقعت وقائع دموية بين يمن وقيس انهكت العرب جميعا، وصارت من جملة العوامل التي عجّلت بسقوط الأمويين » (٩).

وقد أشار المسعودي بوضوح وقوّة إلى الصراع بين فصائل العرب في زمن الحكم الأموي، واعتبر سقوط الأمويين بسبب هذا الصراع. قال: « عظم الخطيب من العصبيّة بين من بها من اليمانيّة والنزارية، ودامت عدّة سنين » (١٠). ويفصّل مجرى الصراع بقوله: « وافتخرت نزار على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار. وأدلى كل فريق بما له من المناقب، وتحزّبت الناس، وثارت العصبيّة في البدو والحضر، فنتج بذلك أمر مروان بن محمّد الجعدي وتعصّبه لقومه من نزار على اليمن، وانحراف اليمن عنه إلى الدعوة العبّاسية، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أميّة إلى بني هاشم. ثم ما تلا ذلك من قصّة معن بن زائدة باليمن وقتله أهلها تعصّباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار، وقطعه الحلف الذي كان بين اليمن وربيعة في القدم، وفعل عقبة بن سالم بعمان والبحرين، وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة وسائر نزار ممّن بأرض البحرين وعُمان كياداً لِمَعْن، وتعصباً من عقبة بن سالم لقومه قحطان، وغير ذلك ممّا تقدّم وتأخّر، ممّا كان بين نزار وقحطان » (١١).

ويستشهد المسعودي بقصائد شعرية، من أواخر الدولة الأموية، لشعراء « يتخاصمون على مكارم أصولهم العربية بين اليمانية والنزارية. فقام الكميت بن زيد

---

(٩) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٤٥٩/١.
(١٠) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ٢٨٦.
(١١) المسعودي، مروج الذهب، ٢٣٢/٣.

الأسدي من مضر من نزار يعرضّ باليمن ويطنب في وصف نزار وإنّهم أفضل من قحطان. وجاء في قصيدته:

وجدتُ الله إذ سمّى نزاراً وأسكنهم بمكّة قاطنينا...
وما وجدتُ نساء بني نزار حلائل أسودين أحمرينا...

ويجيبه دعبل الخزاعي اليمني ويذكر مناقب اليمن وفضائلها ويعرّض بنزار ويردّ على الكميت بن زيد ويقول في القافية نفسها:

فإنْ يكُ آل اسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا...
فلا تنسَ الخنازير اللواتي مُسخن مع القرود الخاسئينا.
لقد علمت نزار أنّ قومي إلى نصرة النبوّة فاخرينا » [١٢].

* * *

وسبب العداوة بين العرب تلك النزعة الفردية المغرقة في الأنانيّة. فالعرب قبائل وعشائر متناحرة، يقاتلون بعضهم بعضاً بأشدّ ممّا يقاتلون غيرهم. ويغزون بعضهم بعضا كأنّهم يغزون ألدّ أعدائهم، وذلك وفقاً لمصالحهم الخاصّة وحاجاتهم الفردية. هم كالذئاب العادية، والوحوش الضارية، يأكل بعضهم بعضاً، ويغير بعضهم على بعض.

وإن كوّنوا دولة أو شبه دولة فلا تلبث أن تتفتّت وتتشتّت لفرط أنانيّتهم. وإن حكمهم أحد، ولو كان واحداً منهم، فلا يدينون له بطاعة. يصعب، لغرورهم بكرامتهم الشخصية، انقيادهم لرئيس، أو لنظام، أو لمصلحة مشتركة، قد

---

(١٢) المرجع نفسه، ٢٣٠/٣ ـ ٢٣٢.

تكون، في ظنّهم، على حساب مصالحهم الخاصّة، أو حريتهم المتفلّتة من كل قيد.

ولشدّة غرورهم كان هلاكهم على يد بعضهم بعضاً. لذلك كانت الحروب بينهم مستمرّة. وخير من عبّر قديماً عن حالهم هذه الواقدي (+ ٢٠٧ هـ) الذي جاء في قوله عنهم: « إنّ هؤلاء عرب وأنتم عرب. وهلاك كل شيء من جنسه » [١٣]. وعن خالد بن الوليد قوله لحامل رايته في غزوة اليرموك جبلة بن الأيهم: « أنتم عرب واعداؤنا عرب. والحديد لا يقطعه إلاّ الحديد » [١٤]. وحديثاً قال غوستاف لوبون عنهم: « أنّ القهر، إذا وقع، كان على أيدي أعراب آخرين. فلا يَفُلُّ الأعراب إلاّ الأعراب » [١٥].

والعداوة بين العرب من ثوابت تاريخهم. فكم انقسموا فيما بينهم إلى أقسام: إلى قحطانيين وعدنانيين، وقيسيين ويمنيين، ومهاجرين، وقرشيين، ومدنيين؛ ثمّ إلى أوس وخزرج، وعبس وذبيان، وبني عبد شمس وبني هاشم، وربيعة ومضر، وبكر وتغلب، وكنانة وهوازن؛ ثمّ إلى شيعة وسنّة، وأمويين وهاشميين، وعباسيين؛ وكل قسم منهم إلى أقسام، وكل قبيلة إلى فخوذ وبطون، وكل شيعة إلى شيع وأحزاب. وكانت الحروب بينهم جميعاً على ضراوتها تدوم وتدوم سنين طويلة.

ومن مظاهر العداوة المتمكّنة في العرب طمعهم فيما هو للآخرين. يدهم على مالهم، وعينهم على ما لغيرهم، يشتهون أموالهم وأرضهم، ونساءهم، لتكون لهم مغانم يأخذونها اغتصاباً. ومنذ القديم عرف أعداؤهم فيهم هذا الطمع. قال

(١٣) الواقدي، فتوح الشام، ١٨٥/٢.
(١٤) المرجع نفسه، ٢٠١/١.
(١٥) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٩٣.

يوقنّا الرومي أمير حلب: « ويلكم! ما العرب إلاّ مثل الذئاب. إن صُدِمتْ ولَّتْ، وإن تُرِكتْ طمعَتْ » [١٦]. وحذّر البطليوس صاحب البهسنا في الصعيد أصحابه، قال: « لا تطمعوا العرب فيكم، ولا في بلادكم، فإنما مثل العرب كمثل الذئاب، إن تركته أكل، وان منعته فرّ وهلك » [١٧]. وبعد أن فتح العرب الرها ورأس العين، قام ملك الروم شهرياض يقول لجماعته: « يا معاشر الروم! اعلموا.. إن كان (هذا البلد) لنا فلا مقام للعرب بيننا، وإن كان للعرب فالبلاد لهم من دوننا » [١٨].

---

(١٦) الواقدي، فتوح الشام، ٢٤٩/١.
(١٧) المرجع نفسه، ٢٢٨/٢.
(١٨) المرجع نفسه، ١٣٠/٢.

خَاتمة الفَصْل الرَابع

علاوة على ضياع العروبة الصريحة بين فصائلها وأقسامها التي لا ذكر لها إلاّ في المصادر الإسلامية المتأخرة، هناك أيضاً فساد للنظرية في جوهرها. ولئن كان التناقض عند المؤرخين للعروبة ظاهراً للعيان، فإنّ كل النظريات المتناقضة تبدو واهية، ولا أساس فيها من الصحّة. فلا العروبة العاربة نشأت في اليمن وانتسبت إلى قحطان، ولا هي أيضاً « زحفت » من اليمن إلى الصحراء؛ ولا العروبة المستعربة أيضاً أخذت عروبتها من القحطانيين، ولا هي تنتسب إلى الصحراء.

فالعروبة الحقيقية لم تأتِ مكة والحجاز من الجنوب؛ بل أتت من الشمال. ودخلت القبائل بلغتها، وعباداتها، وعاداتها، ورجالها. والعداء بين العرب العاربة والعرب المستعربة لم يكن عداءً بين يمنيّن وقيسيّين، أو بين قحطانيين وعدنانيين، بل هو عداء بين بداوة وحضارة، أو بين مهاجرين وأنصار، أو أيضاً بين قبائل وعشائر تتقاتل، لا بسبب عروبتها واستعرابها، بل بسبب الفقر والجوع والحرمان.. هذا السبب كان كافياً ليجرّ معه وبعده أسباباً أخرى للعداء والقتال. والعصبيّة أهمها.

ثمّ أن العروبة، بمعناها الإسلامي المتأخّر، تعرج بين الحضارة والبداوة. العرب العاربة حضر سكان مدن وممالك. والعرب المستعربة بدوُ أهل وَبَر، غير مستقرّين في مكان. وغالباً ما تفقد العروبة عروبتها بسبب من الأسباب: إما بتحضّرها؛ وامّا بهجرتها من مواقعها الصحراوية إلى المدينة؛ وإمّا بغزو شعوب حضارية إليها. وفي كل حال إن فقدان العروبة لهو أسهل أمر حدث ويحدث في التاريخ. وكل شيء في التاريخ يستحثّ الناس للخروج من عروبتهم، وذلك لسعي الإنسان المستمرّ نحو

الأحسن والأفضل. هذا إذا كانت العروبة تعني « بداوة »، كما يريدها المؤرخون المسلمون المتأخرون.

ويبدو واضحاً للعيان أن الإسلام تبرأ من كل أنواع العروبة. فلا هو من العروبة الخالصة - وهذا ما يشهد له المسلمون أنفسهم - ولا هو استمرأ العيش في ظلّ العروبة المستعربة، التي « هجرها »، وخرج من مواطنها، وقاتلها في عقر دارها... ثم قاتل العروبة الصريحة نفسها.. وأخيراً « خرج » من الجزيرة العربية برمّتها، قاصداً بلاد الخصب، والحضارة، والمدينة.. وبكون الإسلام ديناً وحضارةً ورقيّاً انتصرَ على العروبة بجميع أشكالها وينتصر. فهل يكون « الفتح » و « النصر » إذن فتحاً ونصراً عربيين أم اسلاميين ؟!

هناك وجه عربيّ، ووجه إسلامي لهذين الفتح والنصر. أي وجه اجتماعي، ووجه ديني، أو أيضاً سبب عربيّ هو الجوع والفقر والحرمان، وسبب ديني هو الجهاد في سبيل الله... وقد عبّر المسلمون والقرآن نفسه عن هذين العاملين، بقولهم عن مغانم كثيرة يربحونها، وجنّات خالدة معدّة للمجاهدين... وانتصر الإسلام رغم عنف العاملَين: عنف الجوع والفقر، وعنف الجهاد المقدّس. وعرف المسلمون كيف ينتصرون، مع عنف قضيّتهم الاجتماعية العربية، وعنف قضيتهم الدينية الإسلامية. ويخشى أن تضيع قضية المسلمين اليوم لجهلهم الارتباط الحقيقي بين العروبة والإسلام.

ودقة هذا الارتباط تكمن في معرفة نوعيتُه: لا تتساوى العروبة فيه مع الإسلام؛ بل اعتمد الإسلام عليها لينتصر ثم تخلى، بعد انتصاره، عنها. تماماً كما يعتمد المحاربون على السلاح كوسيلة للانتصار؛ وبعد الانتصار لا بدّ من التخلّي عنه. وإلاّ ما دام السلاح حاكماً ومستبداً برقاب الناس، لا يكون ثمة انتصار حقيقي. العروبة اذن سلاح يجب، بعد الانتصار، التخلي عنه لا محالة. هي وسيلة فعّالة لا بدّ أن تزول بعد النصر والاستقرار. فما بال المسلمين إذن يعتبرونها عديل الإسلام!!

الفَصْل الخَامِسْ
اللُّغةُ العَرَبيَّة

أولاً : أيَة لغَة عَربيَّة هي ؟
ثانياً : القراءة والكتابَة في القرآن
ثالثاً : انتشَارُ القراءة والكتابَة
رابعاً : القَلم العَرَبي
خامساً : قرشيَّة أم عَربيَّة ؟

خاتمة الفَصْل الخَامِس

أولاً: أيَة لغَة عَربيَّة هي ؟

أيّة لغة عربية هي ؟ ما هي قواعدها ؟ وما هي أصولها ؟ وما هو مصدرها ؟ وإلى أيّ فرع تنتمي ؟ وهل هي اللغة العربيّة التي تكلّم بها آدم في الجنّة، واسماعيل في مكّة ؟ أم هي لغة أهل الحيرة والأنبار ؟ أم لغة حمير أم معين أم قتبان أم سبأ أم ثمود أم لحيان ؟؟ ما هو قلم هذه اللغة ؟ وما هي حروفها ؟ وما الوسائل التي دوّنت عليها ؟ وكيف كانت ؟ وكيف تطوّرت ؟ وكيف أصبحت لسان القرآن المبين ؟ وهل يعقل أن تكون وصلت إلى القرآن بهذه البلاغة المعجزة ولم يكن لها قبل القرآن تاريخ ؟ وإن كانت لها قبله تاريخ، فما هو ؟ ومن أين يبدأ ؟

وتبقى العبرة في أقوال المؤرّخين والباحثين. يقول الطبري: « كانت العرب، وإن جمَعَ جميعَها اسمُ أنّهم عرب، فهم مختلفو الألسن بالبيان، متباينو المنطق والكلام » [١]. ويقول أيضاً: « إنّ ألسنتهم كانت كثيرة كثرة يعجز عن احصائها » [٢]. ويقول ابن فارس: إنّ العدنانيين « يعيّرون وُلدَ قحطان بأنّهم ليسوا عرباً » [٣]. ويقول أبو عمرو بن العلاء: « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيّتهم بعربيّتنا » [٤]...

---

(١) تاريخ الطبري، ط بولاق، ٩/١.
(٢) المرجع نفسه، ١٥/١.
(٣) كتاب الصاحبي، قول ابن فارس.
(٤) طبقات بن سلام، ٤، انظر: الخصائص ٣٩٢/١.

في مثل هذه الأقوال عبرة في تعدّد الألسن واللهجات، وبالتالي في تعدّد الأجناس وتنوّعها. وحتى الآن، أحصى العلماء في الجزيرة العربية، لغات عديدة، نسبوها إلى « العربية »، وهي المعينيّة والقتبانية والسبأية والحميرية والحضرموتية، في المنطقة الجنوبية؛ وفي المنطقة الوسطى، اللحيانية والديدانية والثمودية والصفوية؛ وفي المنطقة الشمالية، النبطية والتدمرية... وهي لغات، إن تشابهت ببعض المفردات، فهي تختلف بالقلم والإعراب والنطق...

وإذا كانت قبيلة « قريش » هي قبيلة « التقرّش » أي « التجمّع ». فهل تكون لغتها أيضاً لغة « تجمّع » ! وإذا كانت مكّة استقبلت الحجّاج والتجّار والمبشّرين وأصحاب المهن من كل مكان، فهي أيضاًَ تستقبلهم بعاداتهم وعقائدهم وطقوسهم، كما تستقبلهم بلغاتهم ولهجاتهم وتعابيرهم من أي مكان... وبذلك تكوّن في مكّة مجتمع متلوّن بألف لون ولون، ومجتمع غنيّ بألف لغة ولسان.

ولكثرة تلوّن اللغات في مكّة، وضع بعض علماء العرب، ومنذ عهد مبكّر، عدّة تآليف في علوم اللغات. من ذلك « كتاب اللغات » ليونس بن حبيب (+ ١٨٣ هـ)، و « كتاب اللغات » لأبي زيد الانصاري (+ ٢١٥ هـ)، و « كتاب اللغات » للأصمعي (+ ٢١٧)، و « كتاب اللغات » لابن دريد (+ ٣٢١)، و « كتاب اللغات » لأبي عمرو الشيباني (+ ٢١٣)، و « كتاب مجرّد الغريب في غريب كلام العرب ولغاتها » لأبي الحسن الهنائي، و « كتابة الاستعانة بالشعر وما جاء في اللغات » لعمر بن شبة (+ ٢٦٢).. إلى غير ذلك » (٥).

ومن المرجّح أنّ البحث في هذه الكتب، التي لم تصل كلّها إلينا، لم يكن في تعداد لهجات العرب ومفرداتها واختلاف قواعدها، بقدر ما كان في أمور تميّزت بها عن لغة

---

(٥) انظر: الفهرست لابن النديم، ص ٨٧ و٨٨ و٩٧ و١٠٧ و١٣٠ و١٦٩..

القرآن، وخرجت عن قواعد العربيّة الفصحى. وهذا ما هدف إليه أصحابها في إثبات. « لغات فاسدة »، كما يقولون، إلى جانب « لغة الوحي ». إلاّ أنّ لغة الوحي ما كانت لتكون بهذه البلاغة لو لم تكن مشغولة ومصنوعة ومصاغة بألسنة شعوب حضارية لها تاريخها في الحضارة.

ومع هذا فالعودة بالبحث عن لغة القرآن، قبل القرآن، أمر متعذر جداً، إذ لم يبق لنا التاريخ نصّاً واحداً من زمن القرآن؛ بل حتى نصّ القرآن الأساسي بات لدينا مجهولاً. فلا مصحف عثمان، ولا أيّ من مصاحف الصحابة ونساء النبي، كمصحف عائشة، ومصحف حفصة، ومصحف عبد الله بن مسعود، ومصحف أبي بن كعب، ومصحف علي بن أبي طالب، ومصحف زيد بن ثابت... بقي لنا منها في التاريخ نسخة.

وإذا كنّا لا نستطيع بالضبط معرفة قلم المصاحف الأساسيّة، فإنّنا، أقلّه، نستطيع معرفة اشتقاقه، ومصدره، ومعاني مفرداته، وقواعد كلماته... وهذه الطريقة في معالجة اللغة القرآنية تؤدّي بنا إلى معرفة مصدرها، بعلم مقارنة اللغات بعضها ببعض، وعلم تشابه المعاني والخطوط واشتقاقها من بعضها بعضاً... وهذا يؤدي بنا إلى طرح أسئلة محقّة: هل اللغة العربية لغة نبتت ونمت في مكّة وقريش ؟ بقلمها وكيفيّة كتابتها ؟ أم انّها استوردت من خارج ؟ ومن أي خارج ؟

وإذا كانت من نبت مكّي فأي دليل لنا عليها ؟ وإذا كانت من خارج ؟ فمن أين ؟ وفي أي وقت ؟ وعلى يد مَن ؟ وكيف كان ذلك الانتقال من خارج إلى مكة؟ للمسلمين العرب على منبت لغة القرآن إيمان يصعد حتى اسماعيل بن ابراهيم، وحتى يعرب بن قحطان الذي « أعرب » في كلامه. ومنهم من رجع إلى آدم في الفردوس، وإلى الملائكة في الجنّة، بل إلى الله في ملكوته... ولكنّ ذلك ليس من التاريخ في شيء.

وفي كل حال لا بدّ من الدخول في هذه المعميات لعلّه يكون لنا دليل آخر، إلى جانب الأدلّة التي رأينا، على العروبة وصحة الانتساب إليها، لأنّ اللغة دليل مصيب على هويّة المتكلّمين بها. فمن هم هؤلاء المتكلمون ولكن قبل أن نعالج ذلك، يجدر بنا، بادئ ذي بدء، أن نشير إلى كثرة المتكلمين بهذه اللغة، لأن في ذلك دليلاً على وجودها، وانتشارها، وثبات قِدَمها في التاريخ، إلى درجة أننا لا نستطيع اطلاقاً التسليم « بأميّة » مكة، بمعنى « الجهل بالقراءة والكتابة »، أو « بأميّة » النبيّ محمّد الذي سافر وتاجر وربح، ثم وعظ وبشّر وأنذر وقرأ على سامعيه آيات الكتاب[٦]. فما هي إذن دلائل انتشار لغة القرآن ؟ وأين ؟

---

(٦) انظر كتابيّ: قسّ ونبيّ، ص ٤٦ ـ ٥١؛ وعالم المعجزات ـ ص ٧٩ ـ ١٠٢.

ثانياً: القراءة والكتابَة في القرآن

في القرآن آيات كثيرة « تدلّ دلالة صريحة على أنّ القراءة والكتابة كأننا منتشرتين في الكتابيين بوجه عام.. بمقياس يصحّ أن يقال عنه إنّه كان واسعاً بعض الشيء. وأنت إذ تقرأ ما جاء في الآيات المكيّة التي هي في الذين كانوا في مكّة من الكتابيين.. يحصل عندك ترجيح بأن أكثر الكتابيين في مكّة كانوا يقرأون ويكتبون » [١].

ثمّ أنّ القرآن قد « احتوى آيات عديدة ذكرت فيها أدوات الكتابة والقراءة من كتب وقرطاس وورق وصحف وأقلام ومداد وسجلات[٢]. وننبّه على أنّ هذه الآيات جميعها مكّية، ومن تحصيل الحاصل أن نقول أنّ أهل مكّة الذين كانوا أوّل من سمعوها كانوا يفهمون مدلولاتها. ولقد وردت كلمات الكتابة ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثمائة مرّة ونيّف. وكلمة القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرّة ونيّف، وبأساليب متنوّعة » [٣].

وآية ٢٨٢ من سورة البقرة التي « تحتوي أسماء ورسائل وأدوات القراءة والكتابة، وتحتفي بالقراءة والكتابة هذه الحفاوة الكبيرة، دليل راهن على أنّ العرب في بيئة النبي وعصره قد عرفوا تلك الوسائل والأدوات، واستعملوها، وعلى أنّ القراءة والكتابة

---

(١) محمد دروز، القرآن المجيد، ص ٧٥ ـ ٧٦ مع عشرات الآيات في بابه.
(٢) نفس المرجع، انظر الآيات: ٧/٦ و٩١، ١٣/١٧ و٩٣، ١٠٩/١٨، ١٠٤/٢١.
(٣) الآيات: ٩٤/١٠، ٥/٢٥، ١٩٨/٢٦. انظر عالم المعجزات، ص ٨٨.

فيهم كانتا منتشرتين في نطاق غير ضيّق. فكثرة الترديد تدلّ على الإلفة، وهذه لا تكون إلاّ حيث يكون المألوف ذائعاً ذيوعاً غير يسير » (٤).

ونرى القرآن يحضّ التجّار على تدوين المعاملات التجارية، نقداً وديناً وصغيرةً وكبيرة. ومن الأرجح « أنّ محمّداً لم يجدها بنفسه، بل كان موجودة قبله في اللغة العربية. ومن المعروف أنّ المجتمع المكّي كان مجتمعاً تجارياً هامّاً، يتّصل اتّصالاً حميماً ومستديماً بالبلاد المجاورة كالشام وفلسطين والعراق ودولتي الفرس والروم. وهذه كانت تنعم بحظّ من الثقافة كبير » (٥).

وفي القرآن أيضاً كلمات مستوردة يربو عددها على المئات، وهي مأخوذة عن اليونانية والسريانية والعبرية والحبشية والفارسية والنبطية... وقد أثبت المسلمون الأقدمون هذه الكلمات، وكتبوا فيها المجلّدات الطوال(٦). وفي هذا دليل واضح على انتشار المثقفين والمتعلّمين في المجتمع المكّي حيث نشأ القرآن وكتب. وهو أيضاً دليل على التبادل الثقافي والعلمي بين مختلف شعوب الجزيرة.

وبالإضافة إلى ذلك نرى القرآن يحتوي على الكثير من الألفاظ والأسماء المعرّبة، ممّا يدل على شيوعها واستعمالها عند أهل عصر النبيّ وبيئته. « هذه الأسماء جاءت في القرآن بصيغة عربية فصحى، أي غير ما هي عليه في لغاتها الأصليّة، وبعبارة أخرى إنّها معرّبة » (٧). بل هي معرّبة ومصاغة صياغة عربيّة بليغة، ممّا يدلّ مرّة أخرى على قدم استعمالها، وبالتالي على قدم لغة القرآن.

---

(٤) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٤، انظر ص ٤٣٦ ـ ٤٤٥.
(٥) لامنس، مكة عشية الهجرة (بالفرنسية)، ص ١٢٠.
(٦) انظر: الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، السيوطي، الاتقان ١١٣/١...
(٧) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٦٢ و٦٨ و٤٢٩ و٤٦٥...

ثمّ إنّ النبي كان « يتّصل بمختلف الطبقات والشخصيات المكيّة، ثم بمختلف الطبقات والشخصيّات والقبائل التي كانت تفد على مكّة، في المواسم والأسواق، ويتحدّث إليهم، ويتلو عليهم آيات القرآن، ويتفاهم معهم بلغته التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال » (٨). ذلك يعني أنّ كثيرين من غير مكّة وقريش كانوا يتكلّمون اللغة العربيّة. ويعني إن اللغة العربيّة قديمة العهد، بل تكون أقدم من قريش.

هذا علماً بأنّ الذين آمنوا في بدء الدعوة، لم يؤمنوا لأجل فصاحة القرآن اللغوية ومعجزته البيانية وبلاغته الاعجازية، بقدر ما آمنوا لسبب آخر من الأسباب. وذلك لأنّ المؤمنين الأولين في مكّة آمنوا بالنبي قبل أن ينزل من القرآن شيء يذكر. معنى ذلك أنّ سحر بيان القرآن كان في سحر بيان اللغة قبل نزول القرآن. ومعناه أيضاً أنّ اللغة العربيّة سبقت ببلاغتها وإعجازها بلاغة القرآن وإعجازه.

وأيضاً، إذا كانت لغة القرآن هي سبب إيمان المؤمنين به لأجل بلاغتها وفصاحتها، فلماذا بقي أكثر المكّيين والحجازيين جاحدين بالإسلام ؟! ألعلّهم لم يفهموا مضمونها! أم لأنّهم فهموا وأنكروا!؟ والأرجح أنّهم أدركوا وفهموا، لأنهم كانوا يدركون ويفهمون كل أمر من أمور مصالحهم التجاريّة والمالية التي كانت لهم مع بلاد الشام والهلال الخصيب. ذلك يعني أنّ العربيّة لم تكن وقفاً على مكّة.

ينتج من معطيات القرآن: إن اللغة العربيّة قديمة العهد ببلاغتها، وإنّ العلم والكتابة والقراءة كانت جميعها منتشرة في بيئة النبي، وانّ نزلاء مكة من أحباش ودمشقيين ويونان وروما ومصريين ويهود ونصارى كانوا بمستوى لغة القرآن وفصاحته.

* * *

---

(٨) محمد دروزة، المصدر السابق، ص ٦١.

أمّا الأحاديث المنسوبة إلى النبيّ فلا تقلّ شأناً، عمّا هو عليه القرآن، في تأكيدها على اتّساع نطاق العلم والقراءة والكتابة في بيئة الرسول وعصره. فأحمد بن حنبل ينقل لنا في سننه قوله: « خرج عليه ثمانية آلاف من قرّاء الناس » (٩)، والنبي « بعث أربعين أو سبعين.. من القرّاء إلى أناس من المشركين » (١٠)، وعند ابن حنبل أيضاً قوله: « امتلأت الدار من قرّاء الناس » (١١).

وفي الأحاديث عامّة أدلّة كثيرة وأقوال عديدة على أنّ النبي هو « في زمان كثير، قليل فقهاؤه، كثير قرّاؤه » (١٢)، وليس من خوف على ألاّ يتزايد عدد القرّاء إذ يشير الدارمي بقوله: « إذا كثرت قرّاؤكم » (١٣). وفيها أيضاً أمر الله لنبيه: « يأمرك ان تُقرئ أمّتك القرآن » (١٤)، ويبيّن أصحاب الحديث أنّ القراءة كانت في جميع الناس. يقولون: « ونحن نقرأ القرآن، ونُقرئه أبناءنا، ويُقرئه أبناؤنا أبناءهم » (١٥)، والنساء أيضاً تقرأ: « لنقرأنه ولنُقرئنَه نساءنا » (١٦). وهو أمر نبوي واضح: « تعلّموا القرآن فاقرَؤه وأقرِئوه » (١٧).

* * *

نستدل من هذه الأحاديث على كثرة القراءة والكتابة في مكّة، وانتشارها بين الصحابة وعامّة الناس. وهو دليل على أنّ مكّة لم تكن « أميّة » بمعنى الجهل، وأنّ

---

(٩) سنن أحمد بن حنبل، ٨٦/١.
(١٠) صحيح البخاري، باب الجزية، ٨.
(١١) سنن أحمد بن حنبل، ٨٦/١.
(١٢) ابن مالك، الموطأ، باب السفر، ٨٨.
(١٣) سنن الدرامي، مقدمة، ٢٢.
(١٤) سنن النسائي، باب الافتتاح، ٣٧، ابن حنبل، ١٢٧/٥ و١٢٨.
(١٥) ابن ماجة، باب الفتن، ٢٦، ابن حنبل ١٦٠/٤ و٢١٩.
(١٦) سنن الترمذي، باب العلم، ٥.
(١٧) الترمذي، باب ثواب القرآن، ٢.

عصر ما قبل الإسلام لم يكن عصر « جاهلية » بمعنى عدم المعرفة والعلم. أضف إلى ذلك إنه ليس في الأدب الجاهلي ذكر لكلمة « أمّيّة » بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة. « ولو كانت الأمّيّة معروفة عند أهل الجاهليّة بهذا المعنى لاستشهدوا عليها بشعر من أشعار الجاهليين أو المخضرمين، ولما لجأوا إلى هذه التفاسير المتكلّفة[١٨]، لأنّ من عادتهم الاستشهاد بالشعر في تفسير الألفاظ، ولا سيّما الألفاظ الغريبة. فعدم استشهادهم بشاهد من شعر أو نثر في تفسير الأمّيّة هو دليل على أنّ اللفظة بهذا التفسير من الألفاظ التي ولدت في الإسلام وانّها لم تكن عربيّة خالصة، وانّما سمعوها من أهل الكتاب » [١٩].

ثم إن هذه « الأميّة » بهذا المعنى لا توجد، في أيّة لغة ساميّة أخرى، ذلك ممّا يؤيد الحجة على انّها لفظة اسلاميّة، ابتغاها المفسّرون، بهذا المعنى، كرمى لعين الرسول، وتعظيماً للوحي، وابتغاء إيمانهم بتدخّل الله المباشر في معجزة القرآن. لذلك قالوا بـ« أمّيّة » محمّد، وشدّدوا عليها وأعلنوا بأن « لا دخل له (للنبي) في الوحي، فلا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه، وانّما يُلقى إليه الخطاب إلقاءً. فهو مخاطَب لا متكلّم، حاكٍ ما يسمعه، لا مُعبِّر عن شيء يجول في نفسه.. » [٢٠].

هذا كلام مذهولين أكثر مما هو كلام مؤرخين صادقين بإيمانهم. وليس شرّ على الإسلام يوازي شرّ هؤلاء الذين « يحرّفون الكلم عن مواضعه » [٢٢]، ويتهمون النبي

---

(١٨) من جملة التفاسير المتكلفة، قولهم أنّ الأميّة نسبة إلى « الأمّ » التي هي عند العرب تحافظ على فطرتها وبدائيتها، أو أيضاً تنسب إلى مكّة المعروفة بـ« أمّ القرى ».
(١٩) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠٥/٨ ـ ١٠٦.
(٢٠) د. الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠ و٣٣ و٣٨.
(٢١) محمد دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص ٢١.
(٢٢) سورة النساء، ٤٦/٤؛ المائدة ١٣/٥ و٤١.

بالجهل و « الأميّة »، لأجل اعلاء شأن القرآن والإسلام. ولا ندري كيف يحسن لهؤلاء قولهم بأنّ الله اختار رجلاً جاهلاً لكي لا تراوغه نفسه الشريرة بالتحريف، والتزوير والزيادة والنقصان في كلام الله!! عجب من « علماء » يجدون « الجهل والأميّة » عندهم رذيلة، ويجدونها في الرسول فضيلة!!

أما الاحاديث النبوية مثل حديث « إنّا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب » [٢٣] فتعارضه أحاديث نبويّة أخرى مثل « قريش أهل الله، وهم الكتبة الحسبة » [٢٤]، ومثل « حقّ الوالد على ولده أن يعلّمه الكتابة والسباحة والرماية.. »، وشبيه به: « حقّ الوالد على ولده أن يحسّن اسمه، ويزوجه إذا أدرك، ويعلمه الكتاب » [٢٥]... ومع هذا، لا نقف عند هذه الأحاديث المتضاربة، مهما كان انتسابها إلى النبي صحيحاً، لأنّ التاريخ الموثوق والآثار الباقية والقرآن نفسه هي لدينا خير دليل على شموليّة العلم والمعرفة في مكّة. وما كتبه أصحاب الروايات والمحدّثون كان في خدمة الدفاع عن الدين أكثر مما هو في خدمة العلم والحقيقة والواقع التاريخي.

---

(٢٣) صحيح البخاري، الصوم ١٣، صحيح مسلم، الصوم ١٥، أبو داود، الصوم ٤، النسائي، الصوم ١٧، ابن حنبل ٤٣/٢، لسان العرب ٣٤/١٢...
(٢٤) الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٨، حكمة الاشراق، ص ٦٧.
(٢٥) الجامع الصغير، رقم ٣٧٤٢، ٣٧٤٣، حكمة الاشراق، ص ٦٦..

ثالثاً: انتشَار القراءة والكتابَة

أمّا انتشار العلم والقراءة والكتابة، من خلال كتب التاريخ وروايات أهل الاخبار، فهو دليل آخر على رسوخ اللغة العربية، وقدمها، وانتشارها، واستحكام معاني مفرداتها، وبلاغة تعابيرها، ومتانة عباراتها، وحسن صوغ كلماتها، وجمال صورها، وانتظام قواعدها... والمصادر الإسلاميّة القديمة تتكلّم على جملة أسماء لمعوا في مجالات الأدب والشعر والقصص والخطابة والأمثال.

هذه الأسماء هم جماعة من الحنفاء والصابئة، والنصارى واليهود، وعامّة أهل الكتاب الموصوفون في القرآن بـ« أهل العلم » و « أولي العلم » و « المقسّطين في العلم » و« الراسخين في العلم » و « الذين أوتوا العلم » و « الذين جاءهم العلم » أو « من عنده العلم ».. وغير ذلك[1]. ومن هذه الأسماء أيضاً جماعة كبيرة من التجّار وأصحاب الصنائع، وكثير من الأنصار وأتباع الرسول، وكثير من الغلمان، وعديد من الشعراء والأدباء والكتبة والمترجمين من الفارسية إلى العربية، ومن العربية إلى الفارسية، ومن الرومية إلى العربية، ومن العربية إلى الرومية...

* جاء في الأخبار أن المتلمّس أعطى كتابَه بعضَ غلمان الحيرة فقرأه. يقول: « فإذا أنا بغلام من أهل الحيرة يسقي غنمه من نهر الحيرة، فقلت: يا غلام! أتقرأ ؟ قال: نعم. قلت: اقرأ » [2]. وجاء عن زيد العبادي أبي الشاعر عدي أنّه « كان في الحيرة معلّمون يعلّمون الأطفال القراءة

---

(١) انظر القرآن حيث أكثر من ثمانين مرّة يتكلّم على أهل العلم...
(٢) مجمع الأمثال ٤١٢/١، بلوغ الأرب ٣٧٤/٣، النصرانية وآدابها ١٥٧/١...

والكتابة، يذهبون إلى بيوت الأطفال يعلّمونهم » [٣]. وكان لقيط بن يعمر الأيادي قد كتب صحيفة إلى قومه يحذّرهم من كسرى. وكان كاتباً ومترجماً في قصر كسرى، يكتب من الفارسية إلى العربيّة، ومن العربيّة إلى الفارسيّة[٤]. اشتهر بصحيفته، وقد افتتحها بقوله شعراً:

سلامٌ في الصحيفةِ من لقيطٍ إلى مَن بالجزيرة من ايادِ

وكان سعد بن مالك أرسل ابنه المرقش الشاعر المعروف وأخاه حرملة إلى رجل من الحيرة، فعلّمهما الكتابة، وكانا يكتبان أشعارهما[٥]. وجفينة العبادي، من نصارى الحيرة، كان كاتباً، قدم المدينة في عهد عمر وصار يعلّم الكتابة فيها[٦]. ولمّا نزل خالد بن الوليد الأنبار رأى أهلها يكتبون بالعربيّة ويتعلّمونها. فسألهم: ما أنتم ؟ فقالوا: قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا. فقال: ممّن تعلّمتم الكتاب ؟ فقالوا: تعلمنا الخطّ من إياد. وأنشدوه قول الشاعر:

قومي إياد لو أنهم أمم أو لو أقاموا فتهزل النعمُ[٧]

قوم لهم باحة العراق إذا ساروا جميعاً والخَطّ والقَلَمُ

ووجد خالد بن الوليد أهلَ النقيرة يعلّمون أولادهم في كنيستها، والنقيرة قرية من قرى عين التمر في العراق. ولمّا فتح خالد عين التمر وغنم ما فيها « وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلّمون الانجيل، عليهم باب مغلق، فكسره عنهم ثم أخرجهم » [٨].

* وممّن كان يقرأ ويكتب من الشعراء الجاهليين: سويد بن الصامت الأوسي، صاحب مجلّة لقمان، والزبرقان بن بدر[٩]، وكعب بن زهير بن أبي سلمى[١٠]، وكعب بن مالك

---

(٣) كتاب الأغاني ١٨/٢ و١٠١.
(٤) الأغاني ٢٤/٢٠، معجم البكري ٥٢/١، الشعر والشعراء ٩٧/١ و١٥٢.
(٥) المفضّليات، ص ٤٥٩، الأغاني ١٣٠/٦.
(٦) تاريخ الطبري ٤٢/٥، طبقات ابن سعد ٣ /٢٥٨، البلاذري ٤٦٠.
(٧) تاريخ الطبري ٣٧٥/٣.
(٨) تاريخ الطبري ٣٧٧/٣.
(٩) كتاب الأغاني ١٨٠/٢.
(١٠) الشعر والشعراء ٩١/١، جمهرة أشعار العرب، ص ٢٤.

الانصاري[١١]، والربيع بن زياد العبسي وقد كتب إلى النعمان بن المنذر شعراً يعتذر فيه إليه[١٢]، ولبيد بن ربيعة العامري[١٣]، والنابغة الذبياني[١٤]، وأميّة بن أبي الصلت الذي لم يكن كاتباً وقارئاً وحسب، بل كان واقفاً على كتب أهل الكتاب، يقرأها ويقتبس منها. وقد استخدم ألفاظها في شعره[١٥].

* ومن الذين اشتهروا بالكتابة والقراءة قوم من أهل يثرب من الأوس والخزرج، كانوا يكتبون ويقرأون عند ظهور الإسلام. منهم « سعد بن زرارة، والمنذر بن عمرو بن خنيس، وقد كان أحد السبعين الذين بايعوا الرسول، « وكان يكتب في الجاهليّة بالعربيّة » [١٦]، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، كان يكتب العربية والعبرانيّة، ورافع بن مالك، وأسيد بن حضير، ومعن بن عدي البلوي، حليف الأنصار، وبشير بن سعد، وسعد بن الربيع، وأوس بن خولي، وعبد الله بن أبي المنافق، وسعد بن عبادة، والربيع بن زياد العبسي، وعبد الرحمن بن جبر.. وغيرهم[١٧].

ومنهم أيضاً أبو جبير الضحّاك الأنصاري، وقد تولّى الكتابة للخليفة عمر[١٨]، وقيس بن نشبة كان « ممّن قرأ الكتب وتألّه في الجاهلية »، وكذلك العباس بن مرداس عمّ قيس[١٩]، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة كان ناشر الكتابة بين أهل مكّة[٢٠]، ثمّ عمرو بن عمر بن عدس[٢١]، وأسيد بن أبي العيص الذي « كان من كتّاب العرب » [٢٢]... هؤلاء وغيرهم كثير

---

(١١) سيرة ابن هشام ٨٧/٢.
(١٢) الأغاني، ٢٢/١٦ وما بعدها، آمالي المرتضي ١٣٦/١.
(١٣) الشعر والشعراء، ٣٣/١، الخزانة للبغدادي ٢١٥/٢.
(١٤) البغدادي، الخزانة ٣٩٢/٢.
(١٥) ابن هشام ٤٨/١، الأغاني ١٢١/٣، ١٢٩/٤، المعارف ٢٨، المزهر ٣٠٩/٢.
(١٦) الاستيعاب ٤٣٨/٣، الاصابة ٤٤٠/٣، رقم ٨٢٢٦.
(١٧) فتوح البلدان، ٤٥٩، الاصابة ٩٨/١، رقم ٣٣٤، الروض الانف ٦٥/١، تفسير الطبري ٢٣/٤، طبقات ابن سعد ٥٤٢/٣، ابن هشام ٢٦٥/١، الأغاني ١٦٤/٢.
(١٨) الاصابة، ٣١/٤، رقم ١١٨.
(١٩) الاصابة، ٢٤٩/٣، رقم ٧٢٤٤.
(٢٠) الفهرست لابن النديم ١٣، المعارف ٧٣.
(٢١) المزهر للسيوطي ٣٥١/٢: معرفة الكتاب نوع ٤٢.
(٢٢) الفهرست، ص ١٣.

من أهل يثرب كانوا يحسنون القراءة والكتابة ويعلّمونها أولادهم وغلمانهم ونساءهم. وهو أمر طبيعي في مدينة تجارية صناعية فيها من كل أنواع الصناعة بالذهب والفضة والحرف اليدوية المتنوّعة.

* ومن كتبة مكّة وقرّائها في الجاهلية نذكر: حنظلة بن أبي سفيان، قتله علي بن أبي طالب يوم بدر[٢٣]، وبغيض بن عامر بن هاشم وهو الذي كتب الصحيفة على بني هاشم[٢٤]، وحرب بن أميّة الذي نُسبَ إليه إدخال الكتابة بين قريش، وهو جدّ معاوية بن أبي سفيان. قال فيه السيوطي: « إنّه أوّل العرب الذي كتب العربيّة. تعلّم من أهل الحيرة. وتعلّم أهل الحيرة من أهل الأنبار » [٢٥].

ومنهم أيضاً الوليد بن الوليد، وأخوه خالد بن الوليد[٢٦]، ونافع بن ظريب بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف الذي أسلم يوم الفتح، وهو الي كتب المصحف لعمر بن الخطاب ولعثمان[٢٧]، وحاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزّى، وقد كتب إلى أهل مكّة يخبرهم بتجهيز رسول الله إليهم[٢٨]، والحكم بن أبي أحيحة سعيد بن العاص، سمّاه رسول الله عبد الله، وهو من الذين أمرهم النبي أن يعلّم الكتابة بالمدينة. قتل يوم مؤتة[٢٩].

* وعند أهل الأخبار خبر يفيد أن الوحي لمّا نزل كان في قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب. هم: عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب، عثمان بن عفّان، أبو عبيدة الجرّاح، طلحة، يزيد بن أبي سفيان، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، حاطب بن عمرو، أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، أبان بن سعيد بن العاص بن أميّة، خالد بن سعيد، وأخوه، عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، حويطب بن عبد العزّى العامري، أبو سفيان بن حرب بن أميّة،

---

(٢٣) نسب قريش، ص ١٢٣.
(٢٤) المرجع نفسه، ص ٢٥٤.
(٢٥) المزهر للسيوطي، ٣٤٢/٢. قول مبالغ فيه.
(٢٦) نسب قريش، ص ١٢٣.
(٢٧) الاستيعاب ٥١٠/٣، حاشية على الاصابة؛ الاصابة ٥١٥/٣، رقم ٨٦٥٨.
(٢٨) طبقات ابن سعد ٢٨٥/١.
(٢٩) نسب قريش، ص ١٧٦.

معاوية بن أبي سفيان، جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف. ومن حلفاء قريش العلاء الحضرمي[٣٠].

* وروي أنّ عددَ من كتب الوحي ثلاثة وأربعون كاتباً[٣١]. لكنّ كثيرين آخرين غيرهم كانوا يكتبون للرسول البريد والرسائل، وآخرين تولّوا تدوين المغانم وأمور الزكاة والصدقة والفيء. وكان بين هؤلاء وأولئك من يكتب له بعدة لغات، ومن يترجم من لغة إلى أخرى.. ومن المفيد ذكر بعضهم للدلالة على سعة العلم والمعرفة عندهم، ولمعرفة هويّة اللغة التي كانوا بها يكتبون. نذكر منهم:

أبيّ بن كعب الذي « كان يكتب في الجاهلية »، وكان أوّل من كتب الوحي، كما كان « سيد القرّاء » [٣٢]. وأنس بن مالك الذي جاءت أمّه إلى الرسول يوم قدومه إلى يثرب تقول: « يا رسول الله! هذا ابني وهو غلام كاتب ». وعلي بن أبي طالب كان كاتباً لعهودِ الرسول إذا عهدَ، وصلحِهِ إذا صَالح[٣٤]. تعلّم الكتابة وهو صغير ابن أربع عشرة سنة تعلّمها في الكتاب[٣٥]. وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان أوّل مرتد في الإسلام. ارتد لأنّه خالف إملاء الرسول، فنهى اللهُ الرسولَ من اتّخاذه كاتباً. إلاّ أنّه عاد إلى الرسول باستجارةِ عثمان بن عفّان[٣٦].

ونذكر أيضاً: « جهيم الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب، وهو ممّن تعلّم الخطّ في الجاهلية. فجاء الإسلام وهو يكتب، وقد كتب لرسول الله[٣٧]. والأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي. قبل عنه أنّه أسلم بعد عشرة. وهو من جملة من كتب للرسول وأقطعه الرسول داراً في المدينة[٣٨]. وعبد الله بن الأرقم كان أكثر الأمناء بالكتابة، حتى انّ الرسول كان يأمره بالكتابة

---

(٣٠) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٧، أمر الخطّ.
(٣١) تاريخ الطبري ١٧٣/٣، المعارف، ص ١١٢ وما بعدها.
(٣٢) الاستيعاب ٣٠/١، كتاب الوزراء والكتاب ١٢، المعارف ٢٦١...
(٣٣) طبقات ابن سعد ١٠/٧.
(٣٤) الاستيعاب ٣٠/١.
(٣٥) الفصول المختارة للمفيد، ٦٦/٢، ط. النجف.
(٣٦) رسائل الجاحظ ١٨٨/٢: في ذم أخلاق الكتاب.
(٣٧) الاصابة ٢٥٧/١ رقم ١٢٥٦، فتوح البلدان ٤٥٩، الاستيعاب ٤٩/١.
(٣٨) طبقات ابن سعد ٢٦٨/١ ـ ٢٧٣، الاصابة ٤٢/١ رقم ٧٣.

فيكتب ويختم ولا يقرأه الرسول لأمانته عنده. وكان من المواظبين على كتابة الرسائل عن النبي[٣٩].

ومنهم أيضاً: حنظلة بن الربيع بن صيفي الأسيدي الذي كان من كتّاب الرسول، وقد نعته الطبري بـ« كاتب النبي » [٤٠]، وهو ابن أخي أكثم بن صيفي حكيم العرب، وقد عُرف بـ« حنظلة الكاتب » [٤١]. وشرحبيل بن حسنة الكندي أو التميمي وهو ممّن سيّره أبو بكر في فتوح الشام[٤٢]. وخالد بن سعيد بن العاص، كان له أخوة كتبة. استعمله الرسول لمكاتبة العديد من القبائل ورؤساء القبائل[٤٣]. وابان بن سعيد بن العاص، أخو خالد، أسلم بعد الهجرة، وهو الذي تولّى إملاء مصحف عثمان على زيد بن ثابت يوم جمعهِ في خلافة عثمان[٤٤].

ومنهم أيضاً: طلحة أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى، وكان تاجراً، وكان عند وقعة بدر في تجارة إلى الشام، ولمّا قدم المدينة آخى النبي بينه وبين الزبير. وكان من الأغنياء وهو من الكتبة[٤٥]. والزبير بن العوام وهو من جملة من كتب للرسول[٤٦]. وأبو عبيدة الجرّاح وهو من الأوائل الذين دخلوا في الإسلام وكان يكتب ويقرأ كثيراً في كتب التاريخ والمعارك[٤٧]. ويزيد ابن أبي سفيان، أخو معاوية، وهو من الكتّاب، أسلم يوم الفتح. ثمّ استخلف أخاه معاوية على رأس الدولة الأموية[٤٨]. ومعاوية بن أبي سفيان من كتبة الرسول، بل كان « من الكتبة الحسبة الفصحاء » [٤٩]. أسلم بعد الفتح وكتب لجملة أشخاص[٥٠].

---

(٣٩) الاصابة ٢٦٥/٢ رقم ٤٥٢٥، نزهة الجليس ٦٥/٢، التنبيه والاشراف ٢٤٥.
(٤٠) تاريخ الطبري ٥٧٠/٣، انظر المعارف، ص ٢٩٩.
(٤١) الاستيعاب ٢٧٨/١ حاشية على الاصابة، فتوح البلدان ٤٥٩، الاصابة ٣٥٩/١.
(٤٢) فتوح البلدان ٤٥٩، الاصابة ١٤١/٢ رقم ٣٨٦٩، الاستيعاب ١٣٨/٢.
(٤٣) طبقات ابن سعد ٢٦٥/١، الاصابة ٤٠٦/١ رقم ٢١٦٧، الاستيعاب ٣٩٨.
(٤٤) الاصابة ٢٤/١ رقم ٢.
(٤٥) المزهر ٣٥١/٢، الاصابة ٢٢٠/٢ رقم ٤٢٦٦، الاستيعاب ٢١٠/٢.
(٤٦) طبقات ابن سعد ٢٦٩/١.
(٤٧) الاصابة ٢٤٣/٢، رقم ٤٤٠٠، الاستيعاب ٢/٣.
(٤٨) الاصابة ٦١٩/٣ رقم ٩٢٦٧، الاستيعاب ٦١٢/٣.
(٤٩) الاصابة ٤١٢/٣ رقم ٨٠٧٠، الاستيعاب ٣٧٥/٣.
(٥٠) طبقات ابن سعد ٢٦٦/١ ـ ٢٨٧.

ومنهم أيضاً: المغيرة بن شعبة من دهاة العرب وشياطينهم، وهو الذي كتب كتاب الرسول إلى أهل نجران. ذكر أنّه، والحصين بن نمير، كانا يكتبان ما بين الناس[٥١]. ومعيقب بن أبي فاطمة أسلم بمكة وولاه عمر بيتَ المال، ثم كان على خاتم عثمان وكان يكتب مغانم رسول الله[٥٢]. وعقبة بن عامر بن عبس الصحابي المشهور بين الكتّاب، وُصف بأنّه « كان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه، فصيحَ اللسان، شاعراً كاتباً، وهو أحد من جمع القرآن » [٥٣].

ومن كتبة الوحي أيضاً: عبد الله بن رواحة، وعبد الله بن سعد، وعمرو بن العاص[٥٤]. ومنهم أيضاً: حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن زيد الضمري، وكان هذا يكتب للملوك[٥٥]. والعلاء بن عقبة[٥٦]، وزيد بن ثابت. وهو أشهر الجميع. كان زيد من الأنصار من بني النجّار. لمّا قدم الرسول المدينة استكتبه، فكتب له الوحي[٥٧]، نُسب إليه معرفته بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، وكان يترجم للنبي[٥٨]، وكان من أعلم الصحابة بالفرائض[٥٩]. تولّى تقسيم غنائم اليرموك، كما تولى جمع القرآن. وكان « رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض، وقد عرض آخر من عرض القرآن على رسول الله[٦٠]. و « كان حين قدم رسول الله المدينة ابن احدى عشرة سنة». اختلف في سنة وفاته، فقيل سنة ٤٢ و٤٣ و٤٥ أو ٥١ و٥٢ و٥٥. لكنّ الأرجح ٤٥. رثاه حسان بن ثابت شاعر النبي[٦١].

ومنهم أيضاً: ثابت بن قيس بن شمّاس الأنصاري وهو ممّن كتب للرسول. كان خطيب

---

(٥١) الاصابة ٤٣٢/٣ رقم ٨١٨١، طبقات ابن سعد ٢٦٦/١، ٢٧١/١.
(٥٢) الاصابة ٤٣٠/٣ رقم ٨١٦٦.
(٥٣) الاصابة ٤٨٢/٢ رقم ٥٦٠٣، طبقات ابن سعد ٢٧١/١.
(٥٤) انظر: طبقات ابن سعد ٢٦٥/١ ـ ٢٨٦، الاصابة ٢٥٧/١ رقم ١٢٥٦.
(٥٥) الاصابة ٣٠٥/٢ رقم ٤٦٩٠.
(٥٦) المرجع نفسه ٤٩١/٢ رقم ٥٦٤٩، طبقات ابن سعد ٢٧٣/١.
(٥٧) امتاع الاسماع ١٠١/١ و١٨٧ و١٩٤، السجستاني المصاحف ٣،...
(٥٨) التنبيه والاشراف ٢٤٦، فتوح البلدان ٤٧٩، المصاحف ٥١...
(٥٩) الاستيعاب ٢٩/١.
(٦٠) الاصابة ٥٤٣/١ رقم ٢٨٨٠، نزهة الجليس ٦٥/٢، اسد الغابة ٢٢١/٢.
(٦١) ابن هشام ١١/٣، اليعقوبي ١٥٧/٢، تهذيب التهذيب للعقلاني ٣٩٩/٣.

الأنصار، قتل يوم اليمامة. ثم كان خطيب المسلمين[٦٢]. ومحمّد بن سلمة من الأوس. وهو أوّل من سُمّي في الجاهلية محمّداً (؟) استخلفه الرسول على المدينة في بعض غزواته. وكتب له[٦٣]. وأوس بن خولي من كتّاب يثرب؛ دوّن الرسول صلح الحديبية على يده، لكّن سهيلاً تدخّل وأشار بعليّ أن يكتب ويدوّن. وهو من الخزرج حضر غَسْلَ الرسول عند وفاته بالاجماع عليه[٦٤].

* ومن النساء اشتهرت الشفّاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية العدوية. وكان رسول الله يزورها، ويقبّل عندها في بيتها، وكانت قد اتّخذت له فراشاً وإزراراً ينام فيه. وقد أمرها الرسول أن تعلّم حفصة الكتابة فعلمتها، كما علّمتها أيضاً رقيّة[٦٥]. وكانت حفصة زوجة النبي وابنة عمر تكتب[٦٦] وأم كلثوم بنت عقبة تكتب هي أيضاً[٦٧]، وكذلك عائشة بنت سعد، وكريمة بنت المقداد، وشميلة[٦٨]. أمّا عائشة زوجة الرسول فكانت تقرأ ولا تكتب[٦٩].

* ويبدو أيضاً أن أهل الطائف كانوا يلمّون بالقراءة والكتابة: فقبيلة ثَقِيف كانت حاذقة بالكتابة ». وورد إن عمر بن الخطاب قال: « لا يُمْلِيْنَ في مصاحفنا الاّ غلمان قريش وثقيف ». وإن عثمان بن عفان قال: « اجعلوا المُمْلي من هذيل والكاتب من ثقيف » [٧٠]. وذُكر أن غيلان بن سلمة بن معتب الطائفي « كان كاتباً ومعلّماً » [٧١].

« وإذا ذهبنا أبعد من مكة والمدينة والطائف نرى أنّ أهل اليمن كانوا يكتبون. وكان غلمانهم يتعلّمون القراءة والكتابة ويردّدون القراءة. وقد أشار إلى ذلك لبيد الشاعر بقوله:

فَنعافِ صارَةَ فَالقَنانِ كَأَنَّها   زُبُرٌ يُرَجِّعُها وَليدُ يَمانِ
مُتَعَوِّدٌ لَحِنٌ يُعيدُ بِكَفِّهِ   قَلَماً عَلى عُسُبٍ ذَبُلنَ وَبانِ

---

(٦٢) طبقات ابن سعد ٢٨٦/١ و٣٥٤، الاصابة ١٩٧/١ رقم ٩٠٤، الطبري ١١٦/٣.
(٦٣) الاصابة ٣٦٣/٣ رقم ٧٨٠٨، طبقات ابن سعد ٢٨٦/١ و٣٥٥.
(٦٤) امتاع الاسماع ٢٩٦/١، الاستيعاب ٤٩/١، الاصابة ٤٥/١ رمق ٣٣٤.
(٦٥) فتوح البلدان، ص ٤٧٧، ٤٥٨، الاصابة ٣٣٣/٤ رقم ٦٢٢.
(٦٦) فتوح البلدان، ص ٤٥٨.
(٦٨) المرجع نفسه. البلاذري، أنساب ١٣٧/١، الاصابة ٣٣٥/٤ رقم ٦٣٢.
(٦٩) فتوح البلدان، ص ٤٥٨.
(٧٠) ابن فارس، الصاحبي، ص ٢٨.
(٧١) ابن حبيب، المحبّر، ص ٤٧٥.

معنى ذلك إن تلك المنازل كأنّها كتب يردّدها وليد يمان، لأنّ الكتاب فيهم، يكتب بكفه وهو يمسك قلماً على العسب والبان(٧٢). وفي ذلك أيضا دليل على معرفة الشاعر لبيد بالكتابة والقراءة، وعلى وقوفه على قلم أهل اليمن، وعلى دراسة غلمان اليمن للكتب. وورد أيضا أنّ لبيداً كان يدوّن شعره ويهذّبه بعد كتابته، وأنّه كان يجيد الكتابة(٧٣).

* * *

بعد هذا السرد من الأسماء، أسماء الكتبة والقرّاء، من رجال ونساء، وكتبة الوحي والشعراء، والأدباء والخطباء، والمعلّمين والمترجمين، وأصحاب الدواوين والمراسلات، والقيّمين على المغانم والقائمين على الحسبة.. بعد كل هؤلاء الذين اتّصفوا بـ« الكلمة »، أي كمال اللفظة والعاطفة والفكر(٧٤)، أيعقل أن يكون المجتمع العربي في مكة ويثرب والطائف وبعض أنحاء الجزيرة على « الجهل » والغباوة و « الأميّة »، كما يحلو للمسلمين وصفه ؟!

إنّ بيئة النبي كانت في الواقع بيئة تجارة وعلاقات خارجية ومعاملات اقتصادية وتبادل ثقافي، فلا بدّ أن تكون اللغة، حاملة هذه الوقائع، على قدر من الجزالة الصياغة والإحكام. ولم يكن القرآن سوى صورة عنها. ولكن أيّة لغة هي ؟ وما هو قلمها ؟

---

(٧٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق د. احسان عباس، ط. الكويت، ١٣٨.
(٧٣) شرح ديوان لبيد، ص ٢٨ و٣٦، الأغاني ١٣١/١٥.
(٧٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٧.

رابعاً: القَلم العَرَبي

إن يكون أصل القلم العربي من اليمن « فدعوى لا يمكن الأخذ بها، لأنّ أهل اليمن كانوا يكتبون بالمسند، والمسند بعيد عن هذا القلم الذي يسمّيه أهل الأخبار القلم العربي.. بعداً كبيراً » [١]. وإن يكون أصله من مدين في أعلي الحجاز ومن البتراء في بلاد الأنباط، فهذا أمر غير مستبعد كثيراً، لأنّ الأنباط، سكّان العربيّة الصخرية، كانوا يكتبون بقلم « نبطي » قريب من القلم العربي الحالي في بعض صور حروفه. ويبدو أنّ الخطّ النبطي أخذ، بدوره، من الخطّ الآرامي. وكلاهما كان من جملة مصادر القلم العربي. والثلاثة تتصف بمميزات مشتركة، مثل الحروف، في انفصالها واتّصالها، هي في الكلّ سواء، وترتيب أبجديتها هو نفسه، ومعاني كثير من المفردات متقاربة..[٢].

وإن يكون أصل القلم العربي من الحيرة والأنبار في العراق فأمر أيضاً غير مستبعد. لأنّ الحركة التجارية التي كانت قائمة بين مكة والحجاز وبلاد الشام آنذاك كانت ناشطة، وأهل العراق والشام كان لهم مدارس ملحقة بالكنائس والأديرة، وإنّ المبشّرين والمرسلين النصارى كانوا يجوبون البوادي للتبشير، « فلا يستبعد أن يكون قد نقلوا الكتابة إلى دومة الجندل والحجاز ومواضع أخرى من جزيرة العرب » [٣]. وممّا يرجح ذلك أن أناسا من الحيرة بقوا يعملون ويكتبون عند زعماء مكّة، حتى بعد

---

(١) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٦٨/٨.

(٢) خليل يحيى نامي، مجلّة كلية الآداب، الجامعة المصرية، ١٩٣٥، مجلّد ٣، جزء ١، صفحة ١٠٢، وما بعدها..

(٣) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب...، ١٦٩/٨ ـ ١٧٠.

ظهور الإسلام. فكان لأبي موسى الأشعري، مثلاً، كاتبٌ نصرانيّ من الحيرة، ولمّا سأله عمر بن الخطاب عن سبب اتّخاذه كاتباً نصرانيّاً، أجابه: « له دينه ولي كتابته ». ولمّا أراد عمر اختيار كاتب حاذق حافظ ذُكر له غلام نصرانيّ من أهل الحيرة » [٤].

وذكرت الأخبار أن أهل مكّة تعلّموا الكتابة والقراءة من أحد أهل دومة الجندل[٥]، وهو « بشر بن عبد الملك السكوني »، أخو « أكيدر بن عبد الملك السكوني الكندي »، صاحب دومة الجندل، وكن نصرانيّاً، يأتي الحيرة، فيقيم بها الحين، تعلّم الخطّ العربي من أهل الحيرة، ثم أتى مكّة في بعض شأنه، فرآه سفيان بن أميّة بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، يكتب، فسألاه أن يعلّمهما الخطّ فعلّمهما الهجاء، ثم أراهما الخطّ، فكتبا.

« ثم أنّ بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة، فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلّم الخطّ منهم، وفارقهم بشر إلى ديار مضر، فتعلّم الخطّ منه عمرو بن زرارة بن عدس، فسمّي عمرو الكاتب. ثم أتى بشر الشام فتعلّم الخطّ منه ناس هناك » [٦].

وفي رأي البلاذري أنّ ثلاثة من طيء، وهم مرامر بن مرّة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدره، اجتمعوا ببقّة ـ وهو « موضع قريب من الحيرة » [٧]، ووضعوا الخطّ، وقاسوا هجاء العربيّة على هجاء السريانية. فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار؛ ثمّ تعلّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار... ثمّ تعلّم من الثلاثة الطائييّن أيضاً

---

(٤) عيون الاخبار، ٤٣/١؛ انظر، جواد علي، ١٧٠/٨.
(٥) منطقة شهيرة على الحدود الشمالية للجزيرة العربية.
(٦) البلاذري، فتوح البلدان، فصل: أمر الخط، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.
(٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤٧٣/١، مادة: بقّة.

رجل من طابخة كلب، فعلّمه رجلاً من أهل وادي القرى؛ وهذا علّم قوماً من أهلها[٨].

وكان يهود يثرب يعرفون طبعاً لغتهم العبرية. ولكنّهم تعلّموا معها اللغة العربية. وفي ذلك إشارة واضحة من البلاذري بقوله: « وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربيّة، وكان تعلَّمَه الصبيان بالمدينة » [٩]. والمقصود هنا « الخط العربي الشمالي »، لا « خطّ المسند الجنوبي ». ويظهر أنّ اليهود قد تعلّموا، هم أيضاً، الخط العربي من العراق، من الأنبار والحيرة، وبلاد الشام، أي من المناذرة والغساسنة، أو من التجار والمبشرين النصارى الذين كانوا يؤمّون الحجاز.

ويبدو أيضاً أنّ القلم المسند، قلم العربيّة الجنوبيّة، لم يكن منتشراً في مكّة والمدينة، ولم نجد له في آثارها أثراً، لا في الإسلام ولا قبل الإسلام. « وهذا يدلّ على أنّ المسند كان قد طورد في جزيرة العرب قبل الإسلام، وانّ سلطانه كان قد تقلّص كثيراً خارج العربية الجنوبيّة قبل نزول الوحي على الرسول؛ وربما كان القلم الشمالي قد دخل العربية الجنوبيّة أيضاً قبل الإسلام، فأخذ ينافس المسند فيها، ولا سيّما في المناطق التي تركّزت النصرانيّة فيها، وتحكّمت في أهلها، فأخذ النصارى يُقاومون ذلك القلم، لأنّه قلم الوثنية، ويعلّمون أولاد النصارى القلم العربي الشمالي، لأنّه قلمهم الذي كانوا يعلّمون به في كنائس العرب في العراق وفي دومة الجندل وبلاد الشام » [١٠].

هذه الشهادات ما كنّا نعتمد عليها مطلقاً لو لم تؤيدها شهادات من نقوش أثرية، ومن أقدم نصّ عربي إسلامي، ومن أقدم المصاحف الباقية حتى اليوم، ثم من علم

---

(٨) البلاذري، فتوح البلدان، ٤٥٦ ـ ٤٥٧.
(٩) المرجع نفسه، ص ٤٥٩.
(١٠) د. جواد علي، المفصل...، ١١٤/٨ ـ ١١٥.

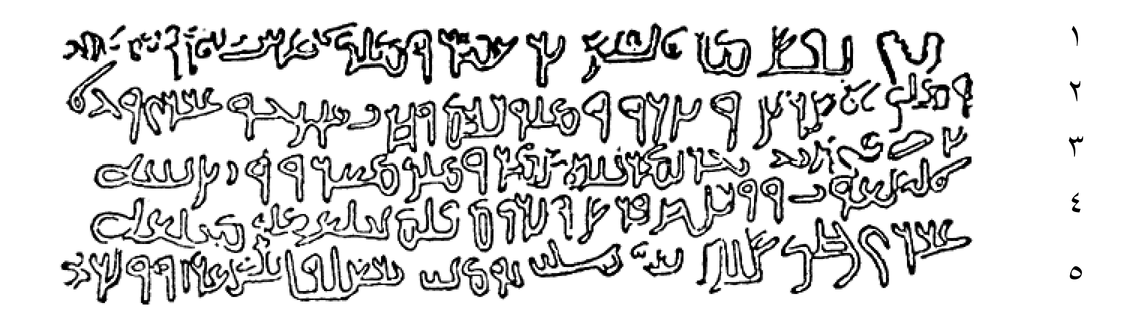
مقارنة الحروف بعضها ببعض. هذه الدلائل هي لنا أقوى حجة، وأصدق برهان، وأصوب رأي، في معرفة أصول « العروبة » ونشأة « العربية ». إنها تؤكد لنا، إذا كنا بعد في حيرة، صحّة انتقال « العروبة » من الشمال إلى الجنوب، لا من الجنوب إلى الشمال. وتؤكد أيضاً وأيضاً أن « العروبة » امتلأت حضارتها ففاضت بها صوب البوادي. وهكذا تكون « العروبة » ذهبت حضارةً، وانتشرت حضارة، ثم نشرت حضارة. والبحث في أصل « القلم العربي » هو خير دليل على ما نقول.

* * *

أولاً ـ ثلاثة نقوش اثرية:

هذه النقوش هي لنا في بالغ الأهميّة، إذ تدلّنا على ما كان عليه القلم العربي بل القرآن والإسلام. أي قبل القلمين الإسلاميين: القلم الحجازي المتمثّل بقلمي مكة والمدينة، والقلم الكوفي الذي نشأ في الحيرة من أعمال العراق. هذه النقوش الثلاثة هي الوحيدة الباقية لنا من التاريخ حتى الآن.

١ ـ نقش النَّمَّارة في أمّ الجمال في الحرّة الشرقية من جبل الدروز، وجد على قبر امرئ القيس الأول بن عمرو، ملك العرب، من سنة ٣٢٨ م. وهو أحد ملوك اللخميين المناذرة في مملكة الحيرة. وقد عثر عليه المستشرق « ريني دوسّو » في خرائب النمّارة على حجر (٤.٤٠ متر × ٣.٣٩ متر) وعليه خمسة أسطر منقوشة بالحرف النبطي واللسان العربي الشمالي. طول النقش ١.١٦ متر بعرض ٣٣ سنتيمتراً. هذه صورته:



١ ـ تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كلّه ذو أسر التج
٢ ـ وملك الأسدين ونزوا وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجا
٣ ـ بزجي في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنية
٤ ـ الشعوب وكلهن فرسو لروم فلم يبلغ مبلغه
٥ ـ عكدي. هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسول بلسعد ذو ولده

وهذه ترجمته باللغة الفصحى:

١ ـ هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلّهم الذي حاز التاج
٢ ـ وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم. وهزم مذحج بقوته. وجاء
٣ ـ إلى بزجي في حبج نجران مدينة شمر وأخضع معداً وانزل بنيه
٤ ـ على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم. فلم يبلغ ملك مبلغه
٥ ـ إلى اليوم. توفي سنة ٢٢٣ في اليوم ٧ من أيلول وفق بنوه للسعادة.[١١]

---

(١١) انظر في هذا النصّ المراجع التالية:

RENE DUSSAUD, *Mission dans les régions désertiques de la Syrie moyenne*, 314. CERSWELL, *Early Muslim architecture*, p. 400, n. 1. F. E. PEISER, *Die arabische Inschrift von en-Nemâra, dans Orientalistische Litteratur-Zeitung*, 1903, p. 279… DEVREESSE, *Arabes- Perses et Arabes- Romains, dans Vivre et Penser*, 2° série, 1942, p. 285.- CLERMONT- GANNEAU, *Rec. d'arch. Orient*. VI, p. 308.- R. DUSSAUSD, *La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam*, p. 63-65. MONTGOMERY, *Arabia and the Bible*, p. 28.

زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٦٩. د. علي جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢٣/١. أ. ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

٢ ـ والنصّ الثاني من سنة ٥١٢ م المعروف بـ« نصّ زبد »، بين قنّسرين ونهر الفرات، جنوبي شرقي حلب. كتب بثلاث لغات هي: اليونانية والسريانية والعربيّة. ومعظم ما فيه أسماء رجال سعوا في بناء الكنيسة التي وضعت هذه الكتابة فوق عتبتها. لكنّ النصّ العربي ـ الذي يهمنا هنا ـ يبدو متأخراً عن اليوناني والسرياني.

وهو على هذه الصورة:

١ ـ (بس) م الإله شرحو بر مع قيمو برمر القس

٢ ـ وشرحو بر سعدو وسترو وشريحو بتميمى.

ومعناه: « بسم الإله شرحو بن أمت منفو، وظبي بن امرئ القيس، وسرحو بن سعدو، وستر وشريح. أتمّوا ». يعني: إن هؤلاء الرجال أتمّوا بناء الكنيسة التي تحمل هذا النصّ.

٣ ـ والنصّ الثالث من سنة ٥٦٨ م ويسمّى بـ « نقش حرّان » في المنطقة الشمالية من جبل الدروز، على حجر فوق باب الكنيسة. وهو باللغتين اليونانية والعربيّة. والنص العربي هو:

أنا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم ».

ومعناه: « أنا شرحيل بن ظالم بنيت كنيسة سنة ٤٦٣ (الموافق ٥٦٨ م) بعد خراب خيبر بعام ». ومع تأثّر هذا النصّ بالنبطية فإنّه، كما يبدو من معناه، كتب بلهجة عربيّة شمالية قريبة من لهجة القرآن.[١٢]

* * *

ثانياً ـ نقش سنة ٣١ هجرية

وهناك نصّ بالغ الأهميّة، وهو أقدم الآثار الإسلاميّة التي كشفت إلى الآن. وفيها كتابة نقشت على قبر رجل يسمّى عبد الله بن خير (أو جبر) الحجري (أو الحجاري)، وتشتمل على ٨ أسطر. اكتشفت هذه الكتابة في مصر، ووجدت بين جملة أحجار في دار الآثار العربية، ونشرت في جريدة الأهرم في ٩ نيسان سنة ١٩٢٩. بينها وبين قلم نقش حرّان الذي رأيناه شبه كبير جداً. ويلاحظ تأثيره الإسلامي القرآني. وهو من سنة ٣١ هجرية، أي سنة ٦٥٤ م تقريباً. وقد يكون لجندي من جنود عمرو بن العاص. وهذه صورته ونصّه ونقله بقلمنا اليوم:

(1) ٮسم الله الرحمں الرحىم هدا العٮر

(2) لعٮد الله ٮرحىر الححرر اللهم اعڡر له

(3) وادحله ڡ رحمه منک واٮا معه

(4) اسٮعڡر له ادا ڡرا هدا الكٮٮ

(5) وڡل امىں وكٮٮ هدا ا

(6) لكٮٮ ڡ حمدى الا

(7) حر مں سٮه احدى و

(8) ٮلٮں

(١٢) انظر في هذه النقوش: ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص ١٩٠ ـ ١٩٤ وجواد علي، المفصّل... ١٧٦/٨ ـ ١٧٨.

(١) بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر
(٢) لعبد الله بن خير (جبر) الحجري (الحجازي) اغفر له
(٣) وادخله في رحمة منك وآتنا معه
(٤) استغفر له إذا قرأ هذا الكتاب
(٥) وقل آمين وكتب هذا ١
(٦) لكتب (لكتاب) في جمدى (جمادى) الا
(٧) خر (آخرة) من سنت (سنة) احدى و
(٨) ثلثين.

ينتهي النص هكذا عند ثلاثين. في أول السطر الثامن. ويبدو أن لا شيء بعده، لأن الحجر سالم لم يكسر، والمعنى كامل، والسطر بعد « ثلثين » فارغ لم يمح منه شيء. وبهذا يبدو بالغ الأهميّة لقدمه، ولمعرفة القلم الذي كتب به.[١٣]

ثالثاً ـ أقدم المصاحف القرآنية:

إن أقدم المخطوطات القرآنيّة الموجود لدينا حتى الآن لا تقدّم لنا تحديداً زمنيّاً واضحاً، ولا تحديداً مكانيّاً معيّناً. لكنّ المقابلة بين بعضها بعضاً والدراسات الأثرية الكيماوية قد تفيدنا بعض الشيء في أصل القلم العربي ونشأته.

١ ـ فمخطوطة رقم ٥٠٣٨٥ من مكتبة اسطنبول سراي هي « حجازية »، وبالتحديد « مدنية » في معظمها رغم أنّ بعضها اليسير غير مدني. ولا نستطيع مقابلتها مع مصحف عثمان بن عفّان، لأنّ نسخة واحدة من أيام عثمان لم تبق، لنقول عن مقدار قِدَمِها. ثمّ أنّ عدم تقسيمها إلى آيات مرقّمة لا يعني أيضاً قدمها.

(١٣) انظر هذا النص في أ. ولفنسون، تاريخ اللغات الساميّة، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

ومع هذا، فهي، بحسب وصف ابن النديم للخطوط، تبدو « مدنية »، وشبيهة بمخطوطات باريس.

٢ ـ ومخطوطات المكتبة الوطنية بباريس، من الرقم ٣٢٦ حتى ٣٣٦ هي أيضاً حجازيّة، حيث « الألف » ملتوية نحو اليمين، بحسب وصف ابن النديم(١٤) الذي يقول: « في المكي والمدني، الألف ملتوية نحو اليمين ». ثمّ إن المقارنة بينها وبين ما تبقّى من نصوص جاهلية في النمّارة وحوران(١٥) تفيدنا قدمها، ولكن ليس من أيّام النبي أو عثمان أو حتى عبد الملك الخليفة الأموي الخامس. لكنّ مخطوط رقم ٣٣٧ يبدو، لاتقان خطه وجماله، غير قديم. فهو، كما يظهر، « خط كوفي ».

٣ ـ ومخطوط المتحف البريطاني بلندن رقم ٢١٦٥ هو أيضاً « حجازي » قديم، أقدم من خطوط الكوفة والبصرة العراقيتين.

٤ ـ وأخيراً مخطوطة المكتبة الملكية بالقاهرة رقم ٣٨٧ لا يبدو بقدم المخطوطات السابقة. فهي تشير إلى أنّها « وقفية » كما في ورقة ١٨، لجامع عمر في أورشليم. وقد دوّن على ورقة منها وبوضوح كلمات « مئة » و « ستين » (و...) وربّما من سنة ٧٨٤/١٦٨. فهي إذن ليست من عهد الخليفة الأموي عبد الملك (٦٨٥/٦٥) كما يقول كازانوفا(١٦). ثمّ إنّ خطّها كوفي واضح متقن جميل. وقد تكون هذه المخطوطة، لوضوح تاريخها، أساس كل معرفة عن أيّة مخطوطة أخرى. فبالنسبة إليها نعرف قدمها أم حداثتها، ونعرف خطّها أحجازيٌّ هو أم عراقي ؟ ومع هذا ليست هي الوحيدة الباقية من ذلك الوقت كما ليست هي أقدمها.

---

(١٤) ابن النديم، الفهرست، ص ٦.

(١٥) هي أقدم النصوص في القلم العربي سيأتي الكلام عليها.

(١٦) P. CASANOVA, *Mohammed et la Fin du monde*, Paris, 1911-1913, 2 fasc., p 126.

ومع هذا، وممّا يؤسف له حقاً، ليس لدينا « اليوم كتابة واحدة من الكتابات المدوّنة في أيّام الرسول. ولا نملك أي نسخة من نسخ القرآن أو من صفحة المدوّنة في أيّامه. فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم، ولا نسخة عثمان بن عفّان، ولا النسخ التي دوّنت بأمره لتوزّع على الأمصار ولا أيّة نسخ أخرى من النسخ التي دوّنها الصحابة لأنفسهم، ولا نملك النسخ الأصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل إلى الملوك أو سادات القبائل والأمراء » (١٧).



نموذج من مخطوط باريس رقم ٣٢٦ سطر ١ صفحة ١ — نموذج من مخطوط القاهرة رقم ٣٨٧ مضاف إليه الحركات والنقط.

من رقم ٣٢٦/ س ٦ — من رقم ٣٢٧/ ص ٦ س ٧ — نموذج آخر من مخطوط القاهرة

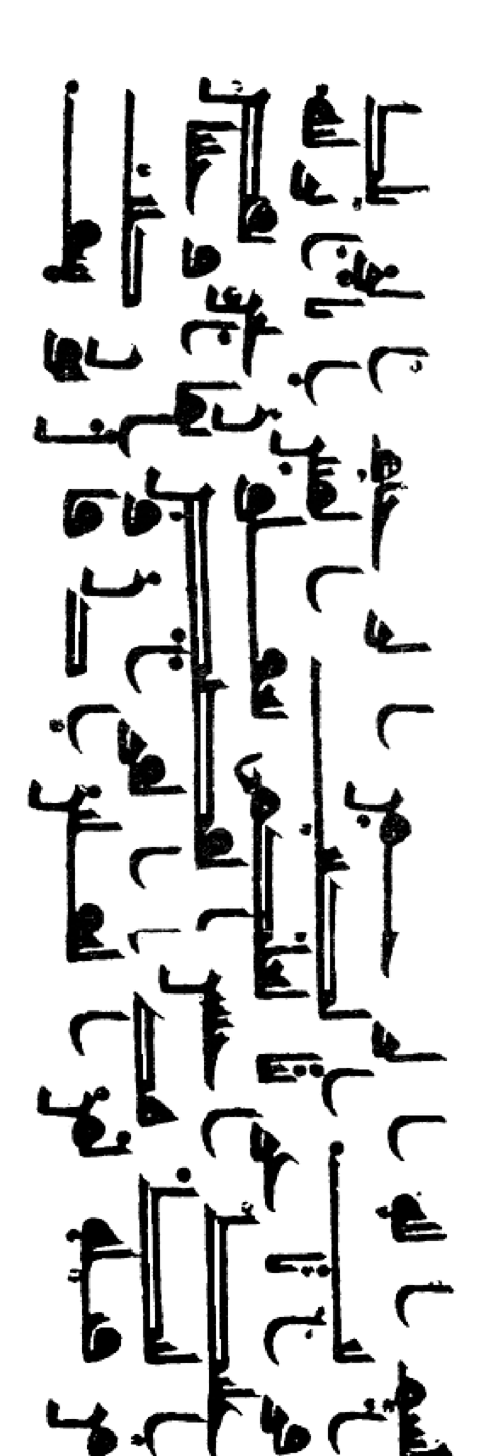
نموذجات من المخطوطات القرآنية

---

(١٧) د. جواد علي، المفصّل...، ١٨٣/٨.

مخطوطة باريس ٣٢٦ ورقة ١أ من أوائل القرن الثاني الهجري. كتابة حجازية معجمة

مخطوطة باريس ٣٣٧ روقة ١ـ كتابة حجازية متطورة من القرن الهجري الثاني ـ مشكّل

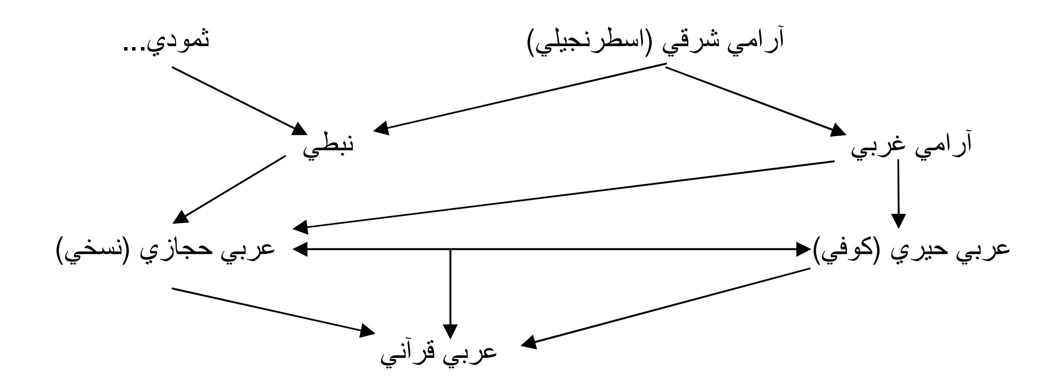


مخطوطة باريس ٣٣٧ ورقة ٦٧ أ - كتابة كوفية - معجم

نماذج من خطوط المخطوطات القرآنية

رابعاً ـ الخطوط المقارنة:

من ينظر إلى لائحة خطوط بعض اللغات الساميّة القديمة، ويقارن بينها، يستنتج أن الخطّ العربي، بالإضافة إلى الشهادات السابقة التي جاءتنا من نقوش أثرية ومخطوطات قديمة، يتحدّر من عدة مصادر، ونتصوّر تحدّره على الشكل التالي:



يبدو من ذلك أن القلم القرآني يتحدّر من النسخي المتميّز بتدوير حروفه. ونجده في المخطوطات الحجازية للقرآن. وهذا بدوره يتحدّر من النبطي الذي نرى له مصدرين: الأول ثمودي مع ما يقاربه من الديداني واللحياني والصفوي، وقد وجدت له نقوش في مملكة الأنباط، في حوران وبصرى، وبالثاني المسند قلم اللغات الجنوبية كالمعينية والسبأية وغيرهما.

ويتحدّر أيضاً من القلم المسمّى « حيري »، نسبة إلى الحيرة؛ وقد دعي فيما بعد بالكوفي، نسبة إلى الكوفة التي بنيت على أنقاض الحيرة. ويتميّز هذا الخط بزواياه المربّعة، وبحروفه المستقيمة. وسمّي، لأجل ذلك، بالجزم. وهذا تحدّر من الآرامي الغربي والشرقي اللذين تحدّرا، بدورهما، من الكنعاني.

العربية	اللاتينية	اليونانية	الفينيقية	المسند	النبطي	النمارة	زبد وحران	سنة ٣١ هـ
ا	A	A						
ب	B	B						
ج	CG	Γ						
د	D	Δ						
هـ	E	E						
و	FV	Y						
ز	...	I						
ح	H	H						
ط	...	⊗						
ي	I	ϟ						
ك	...	K						
ل	L	LΛ						
م	M	M						
ن	N	N						
...	X	Ξ						
ع	O	O						
ف	P	Γ						
ص	...	...						
ق	Q	Ϙ						
ر	R	P						
س ش	S	Σ						
ت	T	T						

إلاّ أن الآرامي كان مصدراً هاماً أكثر من سواه من خطوط. وهو الذي، في المخطوطات العربية القديمة، كان في نشأة القلم العربي مباشرة. وقد لا يكون، في وقت متأخر، أي أثر يذكر من القلم النبطي. لذلك ينكر بض علماء اللغات أن يكون علاقة بين النبطي والقلم العربي. ويعتبر هؤلاء أن الآرامية هي في أساس كل شيء في القلم العربي، وهم يستدلّون على ذلك بالأمور التالية:

١ ـ انّ ترتيب الأبجدية هو نفسه في الآرامية والعربية، أي « أبجد، هوّز، حطّي، كلمن.. » الخ. وعددها ٢٢. أمّا ما يسمّى بـ« الروادف » في العربية، أي الحروف الزائدة، فحشرت بعد الحروف المشابهة لها. مثلاً: وُضعت الـ« ت » والـ« ث » بعد الـ« ب » ؛ والـ« ح » و الـ« خ » بعد الـ« ج » ؛ والـ« ذ » بعد الـ« د » ؛ والـ« ز » بعد الـ« ر » ؛ والـ« ش » بعد الـ« س » ؛ والـ« ض » بعد الـ« ص » ؛ والـ« ظ » بعد الـ« ط » ؛ والـ« غ » بعد الـ« ع » ؛ والـ« ق » بعد الـ« ف » ؛ والـ« ل » بعد الـ« ك »... وقام بهذه الفذلكة « نصر بن عاصم » و « يحيى بن يعمر العدواني »، وذلك لتسهيل تصويرها وحفظها للدارسين، وقصدهما تعليمي. علما بأنّ قيمتها الحسابيّة هي كما في ترتيبها الآرامي لا العربي.

٢ ـ إن حساب الجمّل هو نفسه في اللغات الساميّة جميعها، في الآرامية كما في العربية.

٣ ـ إنّ فصل الحروف واتّصالها في كتابة الكلمة، هي نفسها في الآرامية والعربيّة.

٤ ـ إنّ قاعدة حذف الألف في وسط الكلمة في اللغتين الآرامية والعربية هي أيضاً نفسها، كما في هذه الكلمات الواردة في القرآن مثلا: الرحمٰن، مسٰكين، يتٰمى، مسٰجد، كتٰب... وهي بدل: الرحمان، مساكين، يتامى، مساجد، كتاب... الخ.

٥ ـ وكذلك حذف الألف في صيغتي: فاعل وتفاعل، كما في: بٰرك وتبٰرك، بدل: بارك وتبارك... وغيرهما.

٦ ـ ثمّ حذف الألف من ضمير المتكلّم « نا »، كما في « أرسلنٰك » و« اصطفينٰه »، و« بشرنٰه »، بدل: « أرسلناك »، واصطفيناه، وبشّرناه »...

٧ ـ ثمّ حذف الألف في جمع المؤنّث السالم، كما في: صدقٰت وطيبٰت، بدل من صدقات وطيّبات...

٨ ـ وحذف الألف في الجمع السالم المذكر كما في: الظٰلمين والكٰفرين، بدل: الظالمين والكافرين...

٩ ـ وحذف « ي. » في مثل: يا ربِ، وأبتِ، وتنكرونِ، وتعلّمونِ، بدل: يا ربي، وأبتي، وتنكروني، وتعلّموني...

١٠ ـ ثم في صيغ كلمات بقيت هي هي في المصاحف، وهي تدل على أصلها الآرامي، مثل: الحيوة، والصلوة، والزكوة، بدل: الحياة والصلاة والزكاة...

١١ ـ ثم ورود كلمات كثيرة في القرآن تدلّ على أصلها الآرامي، مثل: سفر ويم وبعير وبيع وجهنم وحطّة وحواريون وملكوت ورقيم ومرقوم وربانيون وسينين وصراط وشهر وعدن وفردوس وقسطاس وقراطيس وقنطار وكنز وقيّوم وحوب...

١٢ ـ ثم كتابة الحروف في آخر الكلمة هي غيرها في أوّل الكلمة أو في وسطها...

كلّ هذه المميّزات تدل على علاقة وقرابة بين القلم العربي من جهة والقلمين

الآرامي والنبطي من جهة ثانية، كما تدلّ على أسبقيّة القلمين المذكورين على القلم العربي، ويتحصّل من ذلك أيضاً أن كثيراً من المعاني والكلمات المعرّبة والأسماء الآرامية والخصائص اللغوية وكيفية النطق، وعدة مفردات... دخلت اللغة العربية من مصدر آرامي، أو من لغات أخرى سامية مرّت عبر الآرامية إلى اللغة العربية. وليس من ينكر وجود ذلك في القرآن نفسه الذي جمع، بحسب العلماء المسلمين أنفسهم، مئات الألفاظ الأعجميّة..

* * *

وهكذا نلاحظ، من خلال ما تقدّم، أنّ القلم العربي مرتبط ارتباطاً مباشراً بالقلم الآرامي، وأن اللغة العربية هي من منطقة غربي الفرات، جاءت مكة والحجاز من الشمال لا من الجنوب؛ وأن اسمها، في أساسه وأصله، يعني « الغربية » ؛ وأن أول المتكلمين بها كانوا نصارى؛ وأن النقوش الثلاثة الباقية لنا حتى اليوم كتبت في موضوع بناء كنائس، وعلى خرائب كنائس، وفي المنطقة الشمالية للجزيرة العربية حيث نمت المسيحية وازدهرت... لكأنّ ما بقي لنا من أثر على اللغة المسمّاة « عربية » يحتّم علينا الاقرار بمسيحيتها.[١٨]

وقد لاحظ ذلك جملة مسلمين ومستشرقين، وأقرّوا اقراراً صريحاً بانتساب العربية إلى مسيحيي الحيرة والانبار. ولم يخف ذلك على أكثر المسلمين تعصباً للإسلام والعروبة. وإلى مثل هذه النتيجة أشار محمد عزّة دروزة، في كلامه على لغة القرآن. قال: « إنّ البيئة الحجازية... وخاصّة مكّة والمدينة، كانت بيئة تجاريّة، متّصلة بالبلاد المجاورة التي كانت تتمتّع بحظٍّ غير يسير من الحضارة والثقافة. وكان فيها جاليات كتابيّة نصرانيّة ويهوديّة نازحة من تلك البلاد، وكانت تتداول الكتب الدينيّة وغير الدينيّة قراءة وكتابة. فلا يعقل أن يظلّ العرب أهل هذه البيئة غافلين عن

---

(١٨) يقال إنه اكتشف في « أمّ الجمال » خمس عشرة كنيسة، وفي « جرش » ثماني عشرة، وعديد في بُصرى، وجبل حوران، وفي مملكة الأنباط، وعند المناذرة والغساسنة. مما يشير إلى قدمهم في المسيحية. انظر:
R. DUSSAUD, *La pénétration des Arabes en Syrie*, p. 18.

اقتباس وسيلة من أشدّ الوسائل ضرورة إلى الاشغال التجاريّة، ومن أعظم مظاهر الحضارة التي اقتبسوا منها من البلاد المجاورة الشيء الكثير » (١٩).

وإلى مثل ذلك أيضاً أشار الدكتور جواد علي، قال: « أنّ الذين كتبوا بالقلم العربي الشمالي، الذي أخذ منه قلم مكة، هم من العرب النصارى في الغالب فأهل الأنبار، والحيرة، وعين الشمس، ودومة الجندل، وبلاد الشام، كانوا من النصارى... وربّما نشروها في البحرين، أي في سواحل الخليج حيث كانت هنالك جاليات نصرانيّة، وفي الأماكن الأخرى من جزيرة العرب التي كانت النصرانية قد وجدت سبيلاً لها بينها » (٢٠).

وفي رأي المستشرق « ويل » Weil ان نظرية اشتقاق الخطوط تشير « بكل جلاء إلى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرّع بدوره عن الخط الآرامي » (٢١). كما « يعتقد العلماء المستشرقون ـ برأي ولفنسون ـ انه في ذلك الزمن ـ أي زمن نصّ النمارة سنة ٣٢٨ ـ لم تكن الكتابة العربية قد وجدت بعد، إذ لم يعثر إلى الآن على كتابات عربية ترجع إلى ذلك العهد » (٢٢). لذلك نرى نصّ النمّارة يعرج بين الخط النبطي المتأخر ونقش زبد سنة ٥١٢. وهو يأخذ من الاثنين معا. ومن ثمّ راح الخطّ العربي يستقلّ رويداً رويداً عن النبطي، ويكوّن لنفسه شخصية برزت بوضوح وسرعة في نقش حرّان ٥٦٨(٢٣).

---

(١٩) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢٠) جواد علي، المفصّل..، ١٧٨/٨ ـ ١٧٩.

(٢١) WEIL, E. I., 1/68

(٢٢) أ. ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص ٢٠١.

(٢٣) من هنا جاء رفض « أوري » لاشتقاق الخط العربي من القلم النبطي في قوله هذا:
« C'est au Proche-Orient, berceau de l'écriture arabe, et plus précisément en Syrie (Namara, Zebed, Harran, Umm Djumal), qu'ont été découverte les plus anciennes inscriptions dites proto-arabes, qui, en dernière analyse, dériveraient des caractères syriaques et non des caractères nabtéens, comme on l'avait cru auparavant…» S. ORY, article *Kitaba*, E.I. t. V, p 213 et s.)

Localités situées en pays syriaque et donc chrétien jacobite, avant l'Islam (ED. RABBATH, *L'Orient chrétien à la veille de l'Islam*, v.I., p. 229).

لهذا نستطيع التأكيد بأن الخط العربي (القرآني) نشأ ونما بين عهد النمّارة وعهد نقش حرّان، أي بين القرن الرابع والخامس بعد الميلاد. أي بعيد تكوين قبيلة « قريش » على يد « قصي »، الجدّ الرابع للرسول. وبهذا يكون لنا تأكيد آخر بأنّ التجارة مع بلاد الشام كانت السبب في نقل حضارة « غربي الفرات » إلى مكة والحجاز. ومن ذلك أيضاً إنّ ما ذكره المؤرخون المسلمون من « أن الحروف العربية لم تخترع إلاّ قبيل البعثة النبوية... هو قول جزاف لا يثبت على التمحيص والتدبّر »[٢٤].

وهكذا استطاع العرب، بواسطة مسيحيي بلاد الشام، أن يروا لهم إلى العالم باباً ومنفذاً؛ وعرف « العرب »، لدهائهم وشدّة دفعهم وزخمهم، أن يلجوا حضارات العالم من أبواب بني آرام. وهكذا أيضاً « فلا يشك باحث في الأصل المسيحي للخط العربي »[٢٥].

---

(٢٤) محمد عزة دروزة، عصر النبي ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ حيث يذكر جملة مؤرخين عرب جهلوا الحقيقة، لأجل رفعة شأن الإسلام.

(٢٥) سمير خليل، *Islamochristiana*، عدد ٨ سنة ١٩٥٢؛ ص ٥.

انظر أيضاً: جرجي زيدان، تاريخ التمدّن الإسلامي، ٦٥٣/٣: في الخط العربي؛ حفني بك ناصف، تاريخ الأدب، أو حياة اللغة العربية، الكتاب الأول، القاهرة، سنة ١٩٥٨، ط ٢، ص ٦١ وما بعدها؛ السجستاني، المصاحف، ص ٤. انظر جواد علي، المفصل، ١٣٧/٨ و١٧١ و١٧٢؛ وصلاح الدين المنجّد، دراسات في تاريخ الخط العربي، منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٣، ص ١٢ ـ ٢٢؛ ولويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، القسم الثاني، الفصل الأول، مجلة المشرق ١٩١٣ عدد ١٦، ص ٦٧ ـ ٧٢؛ ثم في طبعته على صورة كتاب، بيروت ١٩٢٣، ص ١٥٢ ـ ١٥٧ و٤٦١ ـ ٤٦٢.

C. RABIN, art. *ʾArbiyya*, in *Encyclopédie de l'Islam*, 2º éd., I (Leyde et Pairs 1960), pp. 579a-622b, ici, p. 582b: «Le caractère chrétien des inscriptions datées laisse à penser que l'alphabet arabe fut inventé par des missionnaires chrétien, comme tant d'alphabets orientaux. Abbout localise cette invention, avec beaucoup de vraisemblance, à Hira ou à Anbār ». Et plus loin: «Welhausen suggère, avec toute apparence de raison, que l'arabe classique fut répandu par les Chrétiens de Hira. La tradition musulmane nomme, parmi les premières personnes qui écrivirent en arabe, Zayd b. Hamad (vers 500 de J.C.) et son fils le poète ʾAdi, tous deux poètes de Hira».

أمّا أصحاب هذا القلم وهذه اللغة المسماة « عربية » فهم المناذرة في الحيرة. واسمهم من أحد زعمائهم المؤسّسين « المنذر ». سكنوا في الحيرة، وهي « على ثلاثة أميال من الكوفة... كانت مسكن ملوك العرب في الجاهليّة » [٢٦]. وتعني « المخيّم » والمعسكر، من « حيرتا » السريانية. وتقابل كلمة « حاصير » العبرانية، وكلمة « حضر » الإسلاميّة، أي الحاضرة والحامية. وقد ورد اسمها في المجمع الكنسي المنعقد سنة ٤١٠ م، وكان عليها إذ ذاك أسقف اسمه هوشع[٢٧].

من قبائل المناذرة: آل تنّوخ[٢٨]، وآل عباد، وهم من الحضر الذين سكنوا بيوتاً من حجر. وكانوا نصارى من بطون شتّى اجتمعوا تحت اسم « المناذرة ». وكانوا على المذهب النسطوري الذي شجعه الفرس نكاية بالروم، وكان الروم يشجّعون الغساسنة على اعتناق المذهب اليعقوبي نكاية بالفرس. وهكذا اختلف النصارى، كرمى لعيون حلفائهم.

وحكمت الحيرة « الأنبار » الواقعة على الفرات غربي بغداد، التي « فيها جمع بختنصر الأسرى من اليهود »، وفيها كُتب التلمود البابلي، و « ينسب إليها خلق كثير من أهل العلم والكتابة وغيرهم[٢٩]. وكانت الأنبار حدّاً فاصلاً بين الغساسنة والمناذرة، وكان الاختلاف عليها مستمرّاً إلى أن جاء هرمز الرابع (+ ٥٩١) الفارسي وحدّد هويّها التنّوخية.

اشتهر من ملوك المناذرة « امرؤ القيس بن عمرو » الذي لم يبلغ ملك مبلغه، لاتساع ملكه، وشدّة نفوذه، حتى وصل إلى نجران وشمر، وأخضع القبائل العربية

---

(٢٦) معجم البلدان، ٣٢٨/٢، مادة: « حيرة ».
(٢٧) ابن العبري، مختصر الدول، ص ٩٤، ١٠١.
(٢٨) من « تنّخ »، أي: سكن الخيام.
(٢٩) انظر: معجم البلدان، ٢٥٧/١ و٢٥٨، مادة: « أنبار ».

الساكنة في الصحارى. وقد ورد ذلك في نصّ النمّارة الذي أثبتناه، لأهميته، في رسمه وترجمته ويبدو منه أنّ امرأ القيس حكم مذحج وربيعة ومضر وسائر قبائل بادية العراق والجزيرة والحجاز[٣٠]. ويشير النصّ أيضاً إلى أنّ حرباً وقعت بين الحيرة واليمن، ممّا يدل على اتّساع نفوذ المناذرة آنذاك أي في حدود سنة ٣٢٨ م.

واشتهر من ملوك الحيرة أيضاً « النعمان » الذي تنصّر على يد سمعان العامودي الذي كان يبشّر في الحيرة[٣١]. انتهى ملكه سنة ٤٣٤ م. واستلم عنه ابنه المنذر. وساعد المنذر الفرس على الروم فانهزم. وكانت نهايته سنة ٤٧٤. وخلفه ابنه الأسود واشتهر بمحاربته الغساسنة. وانتهى سنة ٤٩٤. وأخذ عنه أخوه المنذر، ثم ابن أخيه النعمان بن الأسود، ثم أبو يعفر، ثم امرؤ القيس بن النعمان، ثم المنذر بن ماء السماء الذي تزوّج هند بنت آكل المرار من ملوك آل كنده، وظلّ ملكه حتى سنة ٥٠٨. وفي أيّامه حدثت حادثة شهداء نجران على يد ذي نوّاس اليهودي ملك اليمن. وانتهى حكمه سنة ٥٥٤. وتولّى بعده ابنه عمرو بن هند المعروف بـ« مضرط الحجارة »، والذي هجاه طرفة بن العبد والمتلمّس والسويد بن خذاق والمنخل اليشكري. وكان من معاصريه الشاعر « امرؤ القيس ». وعنه أخذ أخوه سنة ٥٧٠. وتولّى النعمان بن المنذر الملقب بـ« أبي قابوس » سنة ٥٨٠ حتى ٦٠٢، وهو صاحب الشاعر النابغة الذبياني. وبعده تولّى « المنذر الغرور » ابن أبي قابوس، وفي أيامه تمكّن خالد بن الوليد من احتلال الحيرة سنة ٦٣٤. وكانت بذلك نهاية المناذرة واندثار الحيرة، المدينة العامرة التي نقلت حجارتها لبناء الكوفة.

وكان للمناذرة في اللغة العربية، لغة القرآن، أثر بارز جدّاً، فهم الذين، لعلاقتهم التجارية الواسعة مع قريش، أعطوا قلمهم لمكّة. وكان للغساسنة، بعد

---

(٣٠) تاريخ الطبري ٦٤/٢، ابن خلدون ١٧١/٢ عن السهيلي وابن الكلبي.
(٣١) لويس شيخو، النصرانية، ص ٨٢.

دخول الإسلام إليهم، أن اعطوا للعرب العلم والحضارة، ونقلوا لهم كتب العلم والفلسفة من اليونانية إلى السريانية، ومنها إلى العربيّة. فبواسطة هؤلاء المسيحيين تسنّى « لعرب » الجزيرة ولمسلمي مكة والمدينة أن يكونوا على صلة، لا ببلاد الشام وحسب، بل بالفرس والروم واليونان وبكل العالم المتحضّر آنذاك.

* * *

خامساً: قرشيَّة أم عَربيَّة ؟

بقي علينا أن نسأل: هل نزل القرآن بلغة قريش، أم بلغة العرب ؟ وهل من خلاف بين لغة قريش ولغة العرب ؟ أم أنّهما لغة واحدة في لهجات عديدة ؟ هناك آراء كثيرة ومتنوّعة، لكنّها تعود إلى ترجيح لغة قريش ولهجتها على سائر اللغات واللهجات. وذلك لفضل قريش على جميع العرب.

فمنهم من يقول بأنّ لغة القرآن هي لغة قريش. ويعتمد هؤلاء على أحاديث وروايات لا مجال لذكرها كلها. إلاّ أنّ بعضها يكفي للدلالة. من ذلك ما روي عن عمر بن الخطّاب قوله: « لا يُمْلِين في مصاحفنا هذه إلاّ غلمان قريش » [١]، وما روي عن عثمان للجنة التي أُوكل إليها جمع القرآن، قال: « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش. فإنّما أنزل بلسانهم. ففعلوا » [٢]، وما روي عن زيد بن ثابت: « اكتبوه بلغة قريش، فإنّ القرآن نزل بلغتهم » [٣]. وأنكر ابن قتيبة أن يكون القرآن نزل بلغة غير لغة قريش. قال: « لم ينزل القرآن إلاّ بلغة قريش » [٤]. واعتدل البخاري بقوله: « إنّ القرآن نزل بلسان قريش والعرب ». ولكنّه اعتبر « إنّ قريشاً هم خلاصة العرب » [٥].

---

(١) ابن كثير، فضائل القرآن، ص ٢٠، الصاحبي، ص ٥٧، السجستاني المصاحف ١١.
(٢) ابن كثير، فضائل القرآن، ص ٣١، السجستاني، المصاحف، ص ٢٠.
(٣) ابن كثير، فضائل القرآن، ص ٣٥، النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٤/١.
(٤) عن السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١٣٥/١.
(٥) عن ابن كثير، فضائل القرآن، ١٩.

وحجّة الذين يصرّون على أنّ لغة القرآن هي لغة قريش، هي أنّ الله اختار قريشاً « من جميع العرب، واختار منهم محمّداً (ص)، فجعل قريشاً قطّان حرمه، وولاة بيته، فكانت وفود العرب من حجّاجها يفدون إلى مكّة للحجّ، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش، مع فصاحتها وحسن لغاتها، ورقّة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب... » [٦].

وفي فصاحة قريش يقول الفارابي أيضاً: « كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها ابانة، عمّا في النفس » [٧]. وعند ابن خلدون قوله: « كانت لغة قريش أفصح اللغات العربيّة وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم، حتى أن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية » [٨]. وروي عن معاوية جوابه على سؤال: « من أفصح الناس ؟ ـ قال: قريش » [٩]. وروي عن ثعلب قوله: « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجّع قيس، وعجرفية ضبّة، وتلتلة بهراء » [١٠]. وروي عن أبي بكر الصديق قوله: « قريش هم أوسط العرب في العرب داراً، وأحسنه جواراً، وأعربه ألسنة » [١١]. وروي عن قتادة أنّه قال: « كانت قريش تجتبي، أي تختار أفضل لغات العرب، حتى صار أفضل لغاتها

---

(٦) السيوطي، المزهر ٢٠٩/١، الفصل الثاني: في معرفة الفصيح من العرب.
(٧) الفارابي، في أول كتابه المسمّى بالألفاظ والحروف، انظر المزهر ٢١١/١.
(٨) المقدمة لابن خلدون، ص ٤٠٩ فصل ٣٢ من الباب السادس.
(٩) انظر الجاحظ في البيان والتبيين، ٢١٣/٣.
(١٠) مجالس ثعلب ٨١، المزهر ٢١١/١ وغيرهما.
(١١) لسان العرب ٥٨٨/١، لفظة: عرب. تاج العروس ٣٧٤/١، لفظة عرب.

لغتها، نزل القرآن بها » [١٢]. وزعم أناس أنّ العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردّوه منها كان مردوداً » [١٣]. وقال عمرو بن العلاء: كانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحيّ من قريش. وكان العرب يعلّقون أشعارهم بأركان الكعبة » [١٤].

* * *

وحديثاً يرى العرب ما رآه أسلافهم الأقدمون في أنّ أصل لغة القرآن هي لغة قريش، لأنها أفصح لغات العرب، وأصلها ومصدرها، والحَكَم عليها. فطه حسين نفسه، الذي شكّ في كل شيء جاهلي، يؤكد بقوله: « امّا انّ هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدها في القرآن والحديث وما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبي وأصحابه لغة قريش، فما نرى أنّه يحتمل شكّاً أو جدلاً، فقد أجمع العرب على ذلك بعد الإسلام، واتّفقت كلمة علمائهم ورواتهم ومحدّثيهم ومفسّريهم على أنّ القرآن نزل بلغة قريش ». ثمّ يعطي البراهين فيقول: « نحن مضطرون أمام هذا الاجماع من جهة، وأمام قرشيّة النبي من جهة أخرى، وأمام نزول القرآن في قريش من جهة ثالثة، وأمام فهم قريش للفظ القرآن في غير مشقّة ولا عنف من جهة رابعة، وأمام اتّفاق القرآن في اللغة واللهجة، مع ما صحّ من حديث النبي القرشي ومن الرواية من أصحابه القرشيين من جهة خامسة، إلى أن نسلّم بأنّ لغة القرآن إنما هي لغة قريش » [١٥].

وقبل طه حسين كان مصطفى صادق الرافعي قد قرّر بأنّ العربية « بدأت بإسماعيل. فلمّا خرج أولاده من ديارهم، وانشعبت قبائلهم، تنوّعت لهجاتهم،

(١٢) المراجع السابقة.
(١٣) كتاب الأغاني، ١١٢/١٢.
(١٤) خزانة الأدب، ٨٧/١، مقدمة ابن خلدون ٥٠٩/١، انظر: ١١٥.
(١٥) طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

وتباينت ألسنتهم، حتى ظهرت قريش من بينهم، فأخذت وأعطت وهذّبت الألسنة، واستخلصت منها أعذبها وأسماها، ثم لا تزال تهذّب في اللغة وتشذّب حتى بلغت بها الكمال عند ظهور الإسلام بنزول الوحي بها » (١٦).

وفي رأي شوقي ضيف انّ جميع القبائل العربية وغير العربية، الوثنية منها واليهودية والنصرانية، جميعها « تجمّعت قلوبها حول مكة، وهوت أفئدتها إليها. وبذلك كله تهيّأ للّهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة، وأن تصبح هي اللغة الأدبية... فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا أن لهجة قريش هي الفصحى التي عمّت وسادت في الجاهلية، لا في الحجاز ونجد فحسب، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً، وفي اليمامة والبحرين، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران... أمّا في الشمال فقد كان الفصحى معروفة في كل مكان... ممّا يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرّد سماعه. فإذا عرفنا أنّه نزل بلغة قريش تحتّم أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة » (١٧).

* * *

لكنّ هذا الحشد من الحجج والروايات لا يعني في الواقع والحقيقة شيئاً. فهناك روايات معاكسة لتلك التي رأينا، ووقائع تناقض تماماً القول بلغة اسمها في التاريخ « لغة قريش ». وقد تكون وقائع التاريخ أثبت من كل رواية موضوعة على أي لسان مهما كانت قرابته من النبيّ. فإذا كانت هناك رواية على لسان عثمان تثبت قرشيّة القرآن، فهناك أيضاً، وعلى لسانه بالذات، رواية تقول: « اجعلوا المملي من هذيل، والكاتب من ثقيف » (١٨). « وليست هذيل ولا ثقيف من قريش » (١٩).

---

(١٦) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب الأدب. سنة ١٩١١.
(١٧) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٣٣ وما بعدها.
(١٨) الصاحبي، ص ٥٨.

ثم هناك خبر عن أبي بكر يقول لعمر، بعد إلحاحه عليه بجمع القرآن، يقول: « أجلَسَ خمسة وعشرين رجلاً من قريش، وخمسين رجلاً من الأنصار. وقال: اكتبوا القرآن...» [٢٠]. « ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش لما اختار هذا العدد الكثير من الأنصار، وهم من غير قريش، ومن منافسي مكة في الجاهلية والإسلام » [٢١].

والحقّ يقال إنّه قبل مكّة وقريش والقرآن، وقبل قصيّ جدّ النبي الرابع بزمن طويل، كانت اللغة العربية تقرأ وتدرّس وتكتب وتنقش وتعلّم وتدوّن في الحيرة والأنبار وضفاف الفرات والنمّارة وحرّان وبصرى وفي كل مكان من غربي الفرات... وكان النصارى، بشهادة معظم المؤرخين المسلمين أنفسهم يعلّمونها في كنائسهم وأديرتهم، لأولادهم وغلمانهم. وكان اليهود يتعاملون بها في تجارتهم ومهنهم، ويربحون من البدو أموالاً طائلة. فلغة القرآن ليست هي بحال من الأحوال « لغة قريش »، أو تتّصف بشيء من قريش.

و « أقرب الأقوال المذكورة إلى المنطق، هو قول من قال إنّه نزل بلسان عربيّ وكفى... فما بالنا نفسّر ونؤوّل، ونلفّ وندور... ثمّ نترك كتاب الله القائل: « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » [٢٢]، و « هذا لسان عربي مبين » [٢٣]، و « أنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون » [٢٤]، و « كذلك أنزلناه حكماً عربياً » [٢٥]، و « كذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من

---

(١٩) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب..، ٦٠٥/٨.
(٢٠) تاريخ اليعقوبي، ١٢٥/١، في خلافة أبي بكر الصديق.
(٢١) د. جواد علي، المفصل...، ٦٠٦/٨.
(٢٢) سورة الشعراء ١٩٥/٢٦.
(٢٣) سورة النحل ١٠٣/١٦.
(٢٤) سورة يوسف ٢/١٢.
(٢٥) سورة الرعد ٣٧/١٣.

الوعيد » [٢٦]، و « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلّهم يتّقون » [٢٧]، و « كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » [٢٨]، و « كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً » [٢٩]، و « إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون » [٣٠]، و « هذا كتاب مصدّق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا » [٣١]. ولم يقل قرشياً[٣٢].

« ولو نزل بلغة قريش لما سكت الله تعالى عن ذلك، لما في التنويه بلسانهم إن كان أفصح ألسنة العرب من حجّة على العرب في فصاحته وبيانه وكونه معجزة بالنسبة لقريش، أفصح الناس وألسنهم، وليس بكلام العرب عامّة الذين هم على حدّ قول أهل الأخبار دون قريش في اللغة والكلام » [٣٣]. فإن كانت قريش أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء، والقرآن يتحدّى، بأسلوبه وألفاظه وتعاليمه، جميع الفصحاء والبلغاء، فلماذا لم يذكر ذلك عن قريش ولو مرّة واحدة ؟! هذا علماً بأن ليس لقريش ذكر فيه إلاّ مرّة واحدة[٣٤] في معرض كلامه عن معاهدتهم التجاريّة مع اليمن وبلاد الشام.

و « الحق أقول ـ كما ختم الدكتور جواد علي بحثه الطويل القيّم عن اللغة العربيّة ـ: إنّني إذا فكّرت تفكير علماء العربية المحدثين، الذين نسبوا تفوّق اللغات

(٢٦) سورة طه ١١٣/٢٠.
(٢٧) سورة الزمر ٢٨/٣٩.
(٢٨) سورة فصّلت ٣/٤١.
(٢٩) سورة الشورى ٧/٤٢.
(٣٠) سورة الزخرف ٣/٤٣.
(٣١) سورة الأحقاف ١٢/٤٦.
(٣٢) ابن كثير، فضائل القرآن، ص ٧٧.
(٣٣) د. جواد علي، المفصّل ٦٠٦/٨.
(٣٤) سورة قريش ١/١٠٦.

على اللهجات إلى السيادة السياسية والسيادة الاقتصادية وأمثال ذلك من سيادات، فإنّني لن أفكّر في موطن أينعت فيه العربيّة في تلك الأيّام سوى بلاد الشام والعراق » [٣٥].

فلا يعتدّنّ القرشيون بأنّ الله أنعم عليهم بجميع ما لديه من نعم وهبات: لقد وهبهم الإسلام والقرآن والنبيّ ومكّة وبيت الله الحرام. واللغة أيضاً ؟ فهل هم إلى هذه الدرجة محظوظون!!! قد يكون ذلك، إذ ليس عند الله أمر عسير!!!

(٣٥) د. جواد علي، المفصّل ٦٤٦/٨.

خَاتمة الفَصْل الخَامِس

إنَّ اللغة المسمّاة « عربية » هي لغة « غربي الفرات » لغة المناذرة وأهل الحيرة والأنبار. وقد يكون اسم « العربية » مأخوذ من موقع الشعوب التي تكلّمت بها، وهو « غربي الفرات ». فهي إذن اللغة الغربيّة، أو اللغة العربية سواء بسواء.. وإلى اليوم لا يزال الفرق بين لغتين سريانيتين واضحاً: لغة سريانية شرقية ـ من شرقي الفرات ـ تتميّز بقلمها تمييزاً واضحاً جلياً عن اللغة السريانية الغربية ـ أي غربي الفرات. وقد تكون اللغة العربية هذه عديل تلك. كلاهما من الموقع الذي منه وإليه تنتسب العروبة في اسمها ولفظها ومعانيها ومشتقاتها...

هذه اللغة « العربية » حملها المرسلون والمبشرون معهم إلى الصحراء، إلى مكة والحجاز؛ وحملها التجّار معهم من بلاد الشام والعراق إلى بلادهم؛ فتكلّموا بها منذ أيام قصّي الذي جمع القبائل والعشائر في « قريش » ؛ وقد تملّك عليهم بمعونة أخواله من قبيلة بني عذرة النصرانية... ثم توسعت تجارة أبناء قصي وأحفاده؛ فكان هاشم جَدّ النبي أعظم من تاجر مع بلاد الشام، وعقد الأحلاف مع رؤساء القبائل، وحصل على عهد من قيصر الروم ليتوسّع بتجارته ومعاملاته. وقد نوّه القرآن بذلك في كلامه على « إيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » [1]. ومن هذه الفترة تسرّبت اللغة « الغربية » إلى قريش ومكة؛ ومع النبي، وفي فتوحات المسلمين كانت الغساسنة والمناذرة تجيد اللغة؛ بل هم أربابها ومصدّروها... وقد عادت إليهم مع الفتح إسلاميّة بعد أن كانت معهم نصرانيّة. وأصبح قلمها قلمَ الكوفة بعدما كان قلم الحيرة والأنبار...

---

(١) سورة قريش ١/١٠٦.

وهكذا أعطت اللغة الغربية أو العربيّة اسمها للشعوب والقبائل التي تكلّمت بها. في حين أن القاعدة هي أن تعطي الشعوب هويتها للغة التي يتكلمون بها.... وقد أكّد النبي ذلك في حديث له قال: « يا أيها الناس إن الرب واحد وإن الدين واحد. ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم. وإنما هي اللسان. فمن تكلّم العربية فهو عربي ». وروي أيضاً عن معاذ بن جبل عن الرسول: « ألا إن العربية اللسان. ألا إن العربية اللسان ».

فالعروبة، إذن، لغةً، وشعباً، وديناً، هي أساساً نصرانية، غربية فراتية، وشمالية. مطعّمة بحرف نبطي، وبمعاني سريانية غربية آرامية، ثم أصبحت في مكة حاملة لهجات من كل صوب، من الحبشية، ومن الرومية واليونانية والعبرية والسريانية والقبطية... وذلك لتلوّن السكان في مكّة، المدينة الكوسموبولتية التجارية العظمى في ذلك الزمان.

« إن لهجات الشمال كانت في العصور القريبة من ظهور الإسلام، ذات سلطان قوي ونفوذ واسع، فكانت تبتلع اللهجات الجنوبية ابتلاعاً، الواحدة منها تلو الأخرى. فاللهجات التي أصبحت سائدة في أغلب أقاليم الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام، إنما هي شمالية بعد أن التهمت أكثر اللهجات الجنوبية وتغذت بها » [٢].

« وقد أخذت اللهجات الشمالية، في القرون القريبة من ظهور الإسلام، تتمتع بقوة وعزّة واستقلال؛ فكانت تتدفّق في جميع نواحي الجزيرة بقوّة وفتوّة وروح يملؤه النشاط، حتى كوّنت لنفسها أدباً جديداً وشعراً فتياً » [٣].

---

(٢) أ. لوفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص ١٦٧.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٨.

الفَصْل السَادِس

أَعَرَبيٌّ هُوَ ؟

أولاً : العروبَة في اختلافْ معَانيهَا

ثانياً : النبيّ المستَعربْ

ثالثاً : مَوقفُ النبي من العروبَة

رابعاً : أعداء العروبة

خَاتمة الفَصْل السَادس

أولاً: العروبَة في اختلافْ معَانيهَا

العروبة، في حقيقتها، مضطربة المفاهيم، متنوّعة المعاني، متناقضة المداليل، تحمل في أصلها اللغوي أموراً عديدة مختلفة، وفي استعمالها التاريخي تبايناً واضحاً، وفي مداها الجغرافي مدّاً وجزراً... ولا بدّ، والحالة هذه، من استعراضها، واستخلاص العبر. ونودّ أن نوجز مجمل المعاني التي رأيناها لنتمكّن من معرفة مدى ارتباطها بالإسلام، ومدى علاقتها بالنبيّ محمّد، وصحّة انتساب الإسلام والنبي إليها.

١ ـ لقد رأينا، في النصوص الآرامية، أنّ العروبة تعني « الغرب » و « الغروب ». وقد أطلقها الآراميون سكان شرقي الفرات على القبائل والعشائر الساكنة « غربيّ الفرات ». فتكون اللفظة أطلقت، أوّل ما أطلقت، على هذه الشعوب بالنسبة إلى موقعها الجغرافي. ولمّا كانت هذه المواقع نفوداً وبوادي، أصبحت اللفظة إيّاها تعني الذين يعيشون في النفود والبوادي، وتدلّ، بالتالي، على الحياة البدويّة عندهم.

٢ ـ ومن نوعيّة الحياة البدويّة هذه، أطلق البابليون والكلدان والأشوريون والفرس هذه اللفظة على كل شعب يعيش عيشة بدويّة، « وبهذا المعنى استعملت عندهم » [١]. وامتدّت « العروبة » معهم إلى حيث وجدوا أناساً يمارسون هذا النوع

---

(١) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢٦/١.

من الحياة البدائيّة. فأصبح سكان الجزيرة المسمّاة فيما بعد، « عربية » نسبة إلى حياة البداوة فيها.

٣ ـ أمّا العبرانيّون فأطلقوا على هذه القبائل نفسها، المسمّاة عند الآراميين وغيرهم « غريبة »، اسم « أبناء المشرق »، وذلك لمواقعها شرقي أرض العبرانيين. ووُصِف « أبناء المشرق » بما وُصِفوا به عند شعوب شرقي الفرات، بالبداوة والحياة الرديئة.

٤ ـ ولمّا جاء اليونان والرومان أطلقوا على هذه القبائل البدويّة ما سمّاها به الآراميون والعبرانيون، أي « الغربيون » و « الشرقيّون » معاً. وتغلّب عند اليونان اسم « الغربيون »، واستعملوا اللفظة على جميع سكان الصحاري، ظانّين أنها عَلَمَاً لهم. واختلط على اليونانيين والرومانيين المعنى الأساسي لكلمة « غرب ». وراحوا يطلقونها على كل من سكنوا الصحراء والبادية ورعوا الإبل والأغنام، واتخذوا الخيامَ بيوتاً لهم.

٥ ـ وفي الحضارات العربية القديمة لم ترد لفظة « عروبة » ومشتقاتها إلاّ بمعنى البداوة والحياة البدائيّة. وليس بين أيدينا نصّ واحد من مناطق الجزيرة المسمّاة عربيّة يشير إلى أنّ « العرب » هم عرقٌ بشريٌّ متميّز، أو جنس يتعيّن بلغة خاصّة به، أو بدولة واحدة، لها حدودها الجغرافية، أو بحضارة محدّدة المعالم والمعارف، أو بوعي « قوميّ » يختلف عن قوميّة أخرى مجاورة لها أو بعيدة عنها.

٦ ـ وفي القرآن ليس من ذكر للعرب إطلاقاً. بل هناك آيات عن لغة القرآن العربيّة، وآيات عن « الأعراب » الموصوفين بالتخلّف والكفر والحياة البدائية. أمّا عن « العرب » كعرق أو جنس معيّن فليس في الكتاب من ذلك شيء، كما ليس فيه أية إشارة إلى هويّة النبيّ العربيّة.

٧ ـ اللغة المسمّاة « عربية »، والتي هي « لغة الوحي » في الإسلام، هي لغة الغربيّين من منطقة غربي الفرات، في بلاد الشام والعراق، في مملكتي المناذرة والغساسنة. انتقلت هذه اللغة إلى مكة والحجاز بواسطة تجّار قريش والمبشّرين السيّاح من مسيحيّي أرض الشام، ثم انتقلت من مكّة إلى سائر أقطار الجزيرة العربيّة بواسطة الفاتحين المسلمين. إلاّ أنّها في الأصل وفي المنشأ لغة « غربيّة » لسكّان « غربي الفرات ».

٨ ـ إذا كان اليونان والرومان أخذوا من « العروبة » مميّزاتها القبليّة البدويّة، وأطلقوا اسم « عرب » على كل من يعيش مثل هذه الحياة؛ فإنّ المسلمين أخذوا « العروبة » من اللغة العربية، لغة كتابهم، وأطلقوا اسم « عرب » على كل من اعتنق دينهم وتكلّم لغتهم. وهكذا تكون اللغة أعطت للمتكلّمين بها اسمها، بدل أن يكون اسمها أخذ من الناطقين بها.

٩ ـ ثمّ إن تقسيم « العرب » إلى قحطانيين وعدنانيين، أو إلى عرب عاربة وعرب مستعربة، هو تقسيم إسلاميّ متأخّر، لا نجد له ذكراً في عربيّة ما قبل الإسلام، ولا في المصادر اليونانيّة أو العبرانيّة أو غيرهما.... إنّه اختراع اسلامي، من عصر العباسيين؛ وهو لتبرير نفوذ قبيلة على أخرى، أو لتثبيت عصبيّة على عصبيّة.

١٠ ـ وفي العصور العبّاسيّة قامت « الشعوبيّة » تحارب « العَرَبين » معا. وتقف بوجه المدّ العربي، لتدعم التفرّس تارةً، والتتريك طوراً. وبعد تفكّك الدولة العباسية، انقرضت « العروبة » و « الشعوبية » معاً. وقامت، على انقراضها، دويلات في كل مكان من العالم الإسلامي. وأصبح الحكم فيها باسم الاثنيّات والأعراق، وباسم الطوائف الدينية المختلفة العقائد والمذاهب. وماتت العروبة طويلاً، حتى أواخر الدولة العثمانية.

١١ ـ وقبيل نزع الامبراطوريّة العثمانية، قام بعض رعاياها يقول بـ« القوميّة

العربيّة « كردّة فعل تجاه العثمانية: « إنّ تخلّف ألف عام في الدولة العثمانيّة أدّى إلى ظهور القوميّة الطورانيّة، والقوميّة الطورانيّة أرادت درأ خطر التخلّف العثماني بخطأ آخر، وهو القوميّة الطورانيّة. ثمّ جاءت القوميّة العربيّة كردّ فعل على القوميّة الطورانيّة لتصحيح الخطأين السابقين (أي القومية العثمانيّة والقوميّة الطورانيّة) بخطأ ثالث... القوميّة العربية إذن ردّ فعل تاريخي على ظروف تاريخية خالصة » [٢]. وكذلك أيضاً « إنّ دعوة الوهّابيّة إلى قرشيّة الخليفة، ومناهضة السنوسيّة لسلطة العثمانيين، وثورة المهديّة ضد الأتراك العثمانيين، يمثّل بالفعل ردّ فعل عربي ضد تسلّط الأتراك داخل الدولة الإسلامية » [٣]. وجاء المسيحيون اللبنانيون أيضا ليدعموا « القوميّة العربيّة » انفعالاً من الظلم العثماني اللاحق بهم. ثمّ أخذت « جامعة الدول العربيّة » تقيم صرح العروبة على عاتقها. وأخيراً تنادَى المسلمون الغيورون ليربطوا بين العروبة والإسلام ربطاً جذرياً محكماً، حتى « صار من المسلّم به ترادف اللفظتين: عربي ومسلم » [٤].

١٢ـ ولكن، قبل الوصول إلى ما نحن عليه اليوم، وقبل زواج الإسلام من العروبة زواجاً جذرياً، وقبل ربط العروبة بعالميّة الإسلام، نعود إلى جغرافييّ العصر العبّاسي ومؤرخيّه لنجد حدود العربيّة الشماليّة عندهم تقتصر على « خط وهمي بين خليج العقبة وخليج فارس ». ونسأل: كيف اتّسعت هذه الحدود، لتشمل، عند مسلمي اليوم، العالم الإسلامي برمّته، من الخليج إلى المحيط ؟ يبدو الأمر، عند هؤلاء، أنّهم رسموا حدوداً دينيّة إسلاميّة أكثر مما رسموا حدود العروبة نفسها.

---

(٢) د. حسن حنفي، في القومية العربية والإسلام، ص ٢٣٣.

(٣) د. عبد العزيز العاشوري، في القومية العربية والإسلام، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢. الوهابية مؤسسها محمد بن عبد الوهاب (+ ١٧٩٢) في السعودية؛ السنوسيّة مؤسسها محمد بن علي السنوسي (+ ١٨٥٩) في ليبيا والجزائر ومصر؛ المهدية مؤسسها محمد أحمد المهدي (+ ١٨٨٥) في السودان.

(٤) بولس الخوري، التراث والحداثة، ص ١٩.

١٣ ـ هذه العروبة، بنظر المعتدلين من المسلمين العروبيين، هي بمثابة « علمانيّة » الإسلام. فبدل أن يقيموا دولاً دينية إسلاميّة تقيم الشرع الإسلامي لها دستوراً ونظاماً، قالوا بدولة عربيّة، على أساس أنّ العروبة، عندهم، تمرّ، وتقابل بالتسامح والقبول، عند الأقليات غير المسلمة الموجودة في ما بين المحيط والخليج. واعتمد هؤلاء المعتدلون مقاييس اللغة، والثقافة، والتاريخ والوعي القومي، أساساً لهذه « العروبة ـ العلمنة » [٥]. واعتبروا الإسلام والعرق والنسب الاسماعيلي مقاييس باطلة لهذه « العلمنة ».... ومع هذا لم تمرّ « العروبة » عند المسيحيين اللبنانيين خاصّة بسلام وأمان، إلاّ عند « محاوري جنيف » درأ لكارثة وطنية دامت أربعين سنة حتى اليوم[٦].

* * * * *

وباختصار الكلام، لقد خرجت العروبة، بلغتها وحضارتها، من بلاد غربي الفرات، مع المناذرة والغساسنة، إلى مكّة والحجاز؛ ثمّ زحفت، باسلاميّتها، من مكة والحجاز إلى مختلف أنحاء الجزيرة العربيّة؛ ثمّ عادت، مع الفاتحين المسلمين، بجوعها العربي، وجدبها الصحراوي، ودينها الإسلامي، إلى بلاد الشام؛ وانتصرت، في بلاد الشام، على المسيحيين المتقاتلين بعقائدهم اللاهوتيّة؛ ولكنّها امتنعت عن بعض جيوب منيعة متحضّرة متمرّدة في قمم الجبال. وكان بينها وبين هؤلاء صدام دام طويلاً وقد يدوم.

---

(٥) MAXIME RODINSON, *Les Arabes, P.U.F.*, Paris, 1979, pp. 13-52.

(٦) انظر « المسيرة »، عدد ٢٠ في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٩٨٣، ملفّ العروبة.

ثانياً: النبيّ المستَعربْ

جميع سكّان العربيّة الصحراويّة، بنظر النسّابين وأهل الأخبار، من العرب المستعربة؛ أي من أناس انتموا إلى العروبة انتماءً، وانتسبوا إليها انتساباً، ولم يكونوا في الأصل منها. إنهم من أجناس مختلفة ومتنوعة، من الممالك اليمنيّة ومن فارس والروم والحبشة وبلدان إفريقيا ومصر والسودان واليهود والنصارى ومن مختلف أنحاء بلاد الشام.. كلّهم « تجمّعوا » في الصحاري لألف سبب وسبب، وترقّبوا لقمة العيش من القوافل التجاريّة العابرة الصحراء، وسكنوا على جوانب الطريق التجارية الممتدّة بين اليمن وبلاد الشام، والمارّة عبر مكة ويثرب وخيبر وفدك وتبّوك والبتراء حتى مختلف أنحاء الهلال الخصيب.

وكانت مكّة أهمّ تجمّع تجاري لهذه العشائر التي لا يجمعها جامع. وقد كانت ملتقى القوافل والعائدة من اليمن وبلاد الشام، ومحطّ الرجال المسافرين من كل صوب، ليرتاحوا قليلاً من عناء السفر والحرّ، وليلتقطوا أنفاسهم، ويكمّلوا رحيلهم إلى كل مكان. فمكة لا تصلح للاستقرار، إذ لا زرع فيها ولا ماء، ولا مورد رزق لها إلاّ من الخارج، كما ينوّه القرآن. فهي مدينة فقيرة جدباء، بل هي « أرض ميتة » [١] و « بلد ميتة » [٢]، « يأتيها الله رزقها رغداً من كل مكان » [٣]. يؤمّها البؤساء المحرومون ليُرزقوا منها طعاماً، ويحصّلوا فيها رزقهم ومعاشهم. ولهذا كثر

---

(١) انظر القرآن، سورة ٣٣/٣٦.
(٢) سور: ٤٩/٢٥، ١١/٤٣، ١١/٥٠.
(٣) سورة ١١٢/١٦.

فيها النهب والسلب والغزو والاقتتال. وذلك قبل أن يعمل « قصيّ » على ضبط الأمور فيها.

لمّا جاء « قصيّ »، الجدّ الرابع للرسول، جمع العشائر والقبائل في قبيلة واحدة، سمّاها « قريشاً ». وقريش تعني التجمّع. ولقّب قصيّ بـ« المجمّع ». وكانت قريش أوّل تنظيم عُرف في مكة. ومع هذا لم ينسجم أفراد قريش في جماعة واحدة، ممّا جعل قصياً يقسمها إلى قسمين: قريش البطاح وقريش الظواهر. ولم يكن بين القسمين، مع شدّة قصي وقسوته، اتّفاق وتفاهم، لتنوّع الأنساب والأعراق والدماء. ومع هذا، ولمصلحة الفريقين، وللعيش الأمين، استطاع أهل قريش الاتفاق على أمور تعود إليهم بالنفع، أمثال الامتناع عن القتال في البيت، والحفاظ على حرمة الأشهر الحرم، وإقامة العقود التجارية مع القبائل... وغير ذلك.

فسكّان مكّة إذن هم من كل لون ونوع. وبحق دعاها القرآن بـ« أم القرى » [٤]، أي بتعريفنا اليوم، بـ« المدينة الكوسموبوليتية »، التي، لموقعها التجاري، تضم أناساً مختلفي الأعراق والاثنيات، ومتنوّعي الحضارات، ومتعدّدي المذاهب والأديان، ومختلفي الهويّات والأهواء. وليس من ينكر، والحالة هذه، فساد الحالة الاجتماعية، من ربا وزنا وفجور، ومن نهب وسلب وغزو، ومن زواجات غير شرعيّة، ومن أولاد لقطاء وأمّهات بغير أزواج... كلّ هذه المفاسد كانت، وعظمت في أيّام النبيّ. وما ورد في القرآن منها صورة جليّة عنها.

أضف إلى ذلك ما يجمع عليه النّسابون والمسلمون جميعاً، وهو عدم معرفة حقيقة أنساب أهل مكّة. فلذلك أجمعوا علىالقول بأنّهم « عرب مستعربة ». ومن هؤلاء

---

(٤) الانعام ٩٢/٦، الشورى ٧/٤٢.

كان النبيّ، فهو، بحسب أهل السير والأخبار، « محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ... بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ». وكان النبيّ يمسك عمّا بعد عدنان، ويقول: « كذب النّسّابون، وذلك تفسيراً لقول القرآن: « وقروناً بين ذلك كثيراً » (٥).

وعروبة عدنان، بنظر القحطانيين، مطعون بها. وهي أقل شأناً وصراحةً من عروبتهم. بل هي عدوّة لدودة لعروبة بني قحطان. وقد استمرّت العداوة بينهما ردحاً من الزمن طويلاً، وحدثت بينهما وقائع دامية أنهكتها جميعاً... ولمّا كان النبيّ، جعل همّه في التوفيق بينهما، تارةً باللين واللطف، وطوراً بالشدّة والقساوة. وليس أدلّ على اختلافهما ممّا جرى، بعد وفاة النبي، بين المهاجرين والأنصار، على أنّ المهاجرين من قريش من المستعربة، والأنصار من أصل يمني قحطاني. إلاّ أن همّ النبي لم يلقَ بين الفريقين دعماً أو نجاحاً.

ثمّ، إذا كانت عروبة العدنانيين مطعوناً بها، فعروبة النبيّ هي أيضاً مطعون بها. وقد يكون صمت القرآن عن عروبة محمّد من هذا القبيل. ففي الاحدى وعشرين مرّة، حيث ترد كلمات « عربي » و « عربياً » و « الأعراب »، لا نجد مرّة واحدة في آية واحدة تشير إلى عروبته. وإذا كانت كتب الأحاديث والسير تستفيض في ذكر عروبته، فإنّنا لسنا نعلم لهذه الكتب جميعها سنداً صحيحاً نعتمد عليه.

وهل نقول، بعدئذ مع محمّد الغزالي: « ومن حسن حظّ العروبة إنّها جنس مفتوح، وإنّ الاستعراب ركن أصيل في دعم كيانها وامدادها بأسباب البقاء والنماء؛ ونحن نعلم أنّ صاحب الرسالة العظمى، صلى الله عليه وسلّم، من العرب المستعربة، وليس من العرب العاربة » (٦). ونفتخر بذلك على « أنّ الإسلام جعل

---

(٥) الفرقان: ٣٨/٢٥، انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى ٥٦/١، ابن هشام ٣/١.
(٦) محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية، ص ١٢٣.

منها (أي من العروبة المستعربة) دائرة عالمية فسيحة الأرجاء، وسعت شتّى الدماء والألوان، وانضوى تحت لوائها سيل موّار من المؤمنين الذين تركوا بني جلدتهم، وآثروا هذه الجنسية الجديدة، وأسدوا إليها من الخدمات العالمية والأدبيّة والسياسيّة والعسكريّة ما يعجز عنه قوم ترجع أرومتهم إلى عاد وثمود، أو عدنان وقحطان » (٧) ؟

أيّة عروبة هي هذه التي يفتخر بها العروبيون! والنبي نفسه تبرأ منها، ولم يتّصف بها، ولم ينتسب إليها؛ بل هجرها، وكان لها عدواً!!

والحقّ يقال: لا العروبة العاربة، ولا العروبة المستعربة، كان لها في زمن النبيّ ذكر ووجود. إنّها، في قسميها، اختراع اسلاميّ متأخّر، من عصر الدولة العباسيّة. ولنفترض وجودها قبل ذلك التاريخ، فإنّ وجودها لم يكن عزّاً للإسلام أو للنبي. بل جاء النبيّ ليحاربها ويقضي عليها. واعتبر « التعرّب »، بعد الإسلام، كفراً بالإسلام عينه، وردّة إلى الجاهليّة، وتخلّفاً عن الإيمان الجديد.

---

(٧) المرجع نفسه.

ثالثاً: مَوقفُ النبي من العروبَة

لقد وقف النبيّ من العروبة موقفا عدائيّاً، شدّد عزيمته فيه وعيه بعدم انتمائه إليها. فهو يعرف أنّه كان من سلالة عدنان من المستعربين طعنهم القحطانيّون في الصميم. ويعرف أيضاً أنّ بالعودة إلى عروبة الجاهليين طعنة في الإسلام الذي جاء ليحلّ محلّ أحلاف الجاهلية والقبائل العربية. الإسلام حضارة، فيما العروبة بداوة وجهالة. والصراع بين الحضارة والبداوة منذ البدء.

جاء الإسلام وحارب الأعراف والتقاليد العربية القبلية، وأقرّ بأن المجتمع الإسلامي خضع للشريعة الإلهية العامّة. لقد حارب محمّد إذن « الأحلاف » الجاهلية، وقال: « لا حلف في الإسلام بعد اليوم » [١]. ولا يمكن أن يقوم الإسلام على ما قد سلف.

لقد قضى على العصبية القائمة على القبيلة والعشيرة « والروابط الطبيعية القائمة على العرق أو الشبيهة بما يقوم على العرق، كتضامن القبيلة أو العشيرة (العصبية). وكان ما يجمع بين المسلمين في الأمة صلة روحية هي الطاعة المشتركة للشريعة، والقبول بالحقوق والواجبات المتبادلة المعينة فيها، والتعاضد والتناصح في تنفيذها » [٢].

لقد عوّض النبي بالإسلام عن أحلاف الجاهلية وعصبيتهم بأن ألغاها وقضى

(١) تفسير الطبري ٣٦/٥.
(٢) انظر حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ١٧.

عليها. وقد أسّس دينه على أنقاضها، ودعا إلى الأخوّة الشاملة، والمساواة بين جميع الناس، والطاعة لأحكام الله، والتسليم المطلق لإرادته. وبهذا المعنى قال: « ما كان حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام الاّ شدّة » [٣]، أي كان الإسلام عليه شديداً، قويّ البأس، دون أيّة رحمة به. وهذا أمر طبيعي، لأنّ النبي كان يعي تماماً مساوئ العروبة بما فيها من جهل وكفر وصراع واقتتال على المراعي وغدران المياه وتحصيل لقمة العيش، وتفاخر بالأنساب، وربا وقتل البنين خشية الفقر والجوع[٤]، وغير ذلك... كلّها من بقايات العروبة. وفي الرجوع إليها، بعد الإسلام، « كبيرة من الكبائر ».

وفي الأحاديث النبويّة أيضاً إشارة واضحة إلى عدم جدوى العودة إلى الوراء، إلى عهد الجاهلية، إلى البادية وتقاليدها. قال: « خير القرون القرن الذي أنتم فيه، ثمّ الذي يليه، ثم الذي يليه »... وقد عمّم المسلمون فيما بعد هذه القاعدة، واعتبروا أنّ كل رجوع في التاريخ، في تفكيرهم ووجدانهم، لا قيمة له، ولا منفعة فيه. بل العودة إلى التاريخ تعني انحداراً في الإيمان، و « هذه النظرة إلى الماضي تنطوي في جوهرها على فكرة الانحدار » [٥]، أي فكرة العودة إلى حياة البادية. ولهذا جاء في حديث منسوب إلى النبيّ: « الإسلام يهدم ما قبله ».

ومن الأحاديث النبويّة المتواترة أيضاً حديث « ما من نبي إلاّ أُرسل لقومه، وأنا أرسلت للناس جميعاً ». وبعض المسلمين فهم هذا الحديث على حقيقته، فراح يبشّر بعالمية الإسلام الذي يتخطّى الحدود والتخوم والعنصريّات والقوميّات. واعتبر، بالتالي، العروبة قيد الإسلام وسجنا. ويدعم هذا الحديث أحاديث أخرى أكثر وضوحاً وجلاءً في الانتقام من العروبة، وعداوة النبيّ لها. قال رسول الله: « يا أيّها

---

(٣) تفسير الطبري ٣٦/٥.
(٤) القرآن ١٥١/٦، ٣١/٢٧.
(٥) حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ١٩.

الناس، إن الله قد أذهب عنكم عَيبّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها » [٦]. وخطب في حجة الوداع فقال: « يا أيّها الناس ألا أنّ ربكم واحد، وأنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربيّ، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلاّ بالتقوى » [٧]. وقال أيضاً: « إنّ الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسادكم.. إنّما أنتم بنو آدم. وأحبّكم إليه أتقاكم » [٨].

هذه الأحاديث النبويّة تؤيدها آيات قرآنية يجب أن يفهمها العروبيّون على حقيقتها. جاء في القرآن: « يا أيها الناس انّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم » [٩]. فالإسلام يقوم، أوّلاً وآخراً، على التقوى والإيمان، ولا يقوم على الأنساب والعصبيّات والقوميّات والعودة إلى ما كان عليه الأعراب في بواديهم. فالإسلام، إذن، قيّد، بهذه الآية، عصبيّة العرب. بل « أزال عصبيّة العرب القوميّة » [١٠]، و « من أجل ذلك لا يمكن جعل العروبة قوميّة خالصة » [١١].

وفهم بعض المسلمين الأولين روح القرآن هذه، وعملوا بها، وقالوا: إن الخلاف على الخلافة بين المسلمين، مثلاً، سببه إمكانيّة انتخاب خليفة مسلم من أيّ عرق كان. أكان عربياً أو أعجمياً أو حبشياً أو عبداً أسود. لا فرق. المهم، أن يكون مسلماً. وانتصر أصحاب هذا الرأي على الذين يقولون أنّه يجب أن يكون من قريش، أو من الأنصار، أو عربيّاً، أو غير ذلك. ولذلك قصّر عليّ وأتباعه عن الخلافة لأنهم شدّدوا على عنصريّة الخليفة.

---

(٦) سنن الترمذي، وسنن أبي داود، باب الأدب ١١١.
(٧) انظر تفسير الطبري على سورة هود ٤٥/١١ ـ ٤٦.
(٨) المرجع نفسه.
(٩) سورة الحجرات ١٣/٤٩.
(١٠) حوراني، الفكر العربي...، ص ٣٦٠.
(١١) محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية، ص ١٢٣.

أضف إلى ذلك، إنّه لو كانت فكرة العروبة عند المسلمين الأولين ذات أهميّة لما أدخلوا في دينهم وفكرهم وأدبهم كلّ شيء من الخارج، ولما نقلوا مركز الخلافة الدينية والسياسيّة من مكّة ثم المدينة إلى دمشق الشام ثم بغداد، حيث الحضارة الآرامية والفارسيّة ثمّ التركيّة تتفاعل فيها في العمق.

* * *

أمّا قول القائلين بأن « الأمّة العربيّة » هي « خير أمّة أخرجت للناس » [١٢] فهو قول يردّه القرآن نفسه. اذ ليس في القرآن آية واحدة من الأربع والستّين آية الواردة فيها لفظة « أمّة » ما يشير إلى « الأمّة العربيّة ». لو تدبّر هؤلاء القائمون القرآن لفهموا ان حقيقة « الأمّة » في القرآن هي الأمّة الإسلاميّة. إنّها أمّة دينية صرفة لا أمّة عرقية أو قوميّة أو عصبيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة. إنّها « أمّة مسلمة » [١٣]، لها مناسكها[١٤] ورسلها[١٥] ونذرها[١٦] وشهداؤها[١٧] وكتبها[١٨] وآياتها[١٩]... فالقرآن لا يتكلّم البتة على أمّة اثنية لها جنسيّة معينة. هذه الأمة لا وجود لها في القرآن، بل إن القرآن حاربها وجاهد ضدها. وقد « هجر » النبي مكّة بسبب رفضه لها، وبسبب محاربتها له. ثمّ « خرج » الإسلام من الجزيرة العربية، ومدّ « فتوحاته » للانتصار عليها والتخلّص من ذلّها.

ومع هذا يطيب لمعظم المسلمين العروبيين أن يفهموا بآية « كنتم خير أمّة أخرجت للناس » على أنّها تعني « الأمّة العربيّة ». وليت هؤلاء وقفوا عند هذا الحدّ، بل راح

(١٢) سورة آل عمران ١١٠/٣.
(١٣) سورة ١٢٨/٢.
(١٤) ٣٤/٢٢ و٦٧.
(١٥) ٤٧/١٠، ٤٤/٢٣.
(١٦) ٢٤/٣٥.
(١٧) ٤٢/٤، ٨٤/١٦.
(١٨) ٤٨/٤٥.
(١٩) ١١٣/٣، ٨٣/٢٧.

بعضهم يفسّر آيات عديدة بما يطيب لهم. فعندما يقرأ صابر طعيمه، مثلاً، آية « الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس » [٢٠]، يفهم في تفسيرها ما جاء في قوله: « الناس هنا بهذا الشرف هم العرب، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى أنّ الأرض العربيّة... هي الأرض التي اختارها الله لتكون للدعوة الإلهية ولتجميع البشر عليها » [٢١]. فما أبعد الحقيقة والواقع ومفهوم القرآن والإسلام عن مثل هذه التفاسير الخاطئة!

وكم وكم أراد النبي بالعرب خيراً، فلم يستجيبوا لنداءاته المتكرّرة. فهم، لتخلّفهم كانوا ينبذون كلّ نداء، ويرفضون كل خير يأتي من يده، وينكرون دعوته. كم علّمهم الإيمان فكانوا يجيبونه « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » [٢٢]، وكم منعهم عن عباداتهم الباطلة، وكانوا يقولون له: « وجدنا آباءنا لها عابدون » [٢٣]، وكلّما أصرّ على اتّهامهم أصرّوا على رفضه: « أجئت لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا ؟ » [٢٤]. لم يكن النبي مع العرب والعروبة بخير. وهكذا كان أتباعه الأوّلون.

وأقوى دليل يصوّبه الإسلام إلى صدر العروبة هو أنّ التاريخ عند المسلمين يبدأ بـ« الهجرة »، الهجرة من مكة إلى يثرب، أي من البداوة إلى « المدينة »، من العروبة إلى الحضارة. وبحقّ أرخّ المسلمون للزمن ببدء « الهجرة » سنة ٦٢٢، بدل أن يكون تاريخهم يبدأ بالمولد النبوي سنة ٥٧٠، أو ببدء الرسالة سنة ٦١٠، أو عند موت الرسول سنة ٦٣٢. فـ« الهجرة » من العروبة إلى المدينة هي الزمن الفاصل

---

(٢٠) ٧٥/٢٢.
(٢١) تحدّيات أمام العروبة والإسلام، ص ١٩.
(٢٢) ١٠٤/٢.
(٢٣) ٥٣/٢١.
(٢٤) ٧٨/١٠.

والحاسم في تاريخ الكون والبشريّة عند المسلمين... ثم جاءت الهجرة الثانية من أنحاء الجزيرة العربيّة إلى بلاد الشام والعراق وفارس وانطاكيا والقدس والاسكندرية وبلاد الحضارات التاريخية العظيمة... ولو بقي الإسلام حيث نشأ لقضي حيث بقي. فتاريخ الإسلام إذن هو تاريخ « هجرة »، هو « خروج » من أرض العبودية إلى أرض الميعاد، وهو « فصح » و « عبور » من عالم البداوة والتخلّف إلى عالم الحضارة والرقيّ.

ونجح الإسلام في « هجرته »، واستطاع في نجاحه أن يحقّق جهاداً مقدّساً في سبيل الله الواحد، والدين الجديد، وأن ينال الجهاد « نصراً » و « فتحاً » على حضارات العالم المتمدّن آنذاك، والأرض الخصبة، والدول العظمى... فكانت الفتوحات تتوالى، والنصر يتعالى، والإسلام ينتشر، والبداوة تتراجع أمام « المهاجرين ». ولولا الهجرة من الجزيرة إلى الخارج لما تحقّقت وحدة القبائل والعشائر العربيّة البدوية الزاحفة. فالعرب، على ما يبدو، لا يتحدّون إلاّ في الهجرة. وقد عبّر شارل رزق عن ذلك بقوله: « إنّ وحدة القبائل لم يمكنها أن تتحقّق إلاّ في تدفّقها خارج الجزيرة » (٢٥). وقال أيضاً: « بالإسلام دخل العرب التاريخ. وبالإسلام استطاع الذين لم يكونوا، قبل محمّد، إلاّ عشائر متناحرة، أن يتوحّدوا بالفتح. وهكذا، لم تكن الهجرة بداية عهد إسلامي فحسب، بل هي بداية حضارة وسياسة وهويّة للعروبة » (٢٦).

هذا الموقف العدائيّ للنبي ولخلفائه الأوّلين من العروبة، شجّع كثيرين من المسلمين للاقتداء به. فكان للعروبة، عبر التاريخ الإسلامي، أعداء، ربّما كانوا للإسلام أكثر اخلاصاً، وأعمق إيماناً، وأصوب رأياً من المسلمين العروبيين الرابطين الإسلام بالعروبة ربطاً محكماً.

---

(٢٥) CHARLES RIZK, *Entre l'Islam et l'Arabisme*, p. 25.

(٢٦) المرجع نفسه، ص ١٩.

رابعاً: أعداء العروبة

أعداء العروبة والوحدة العربيّة عديدون، ومن كل نوع ولون. وهم المشككون بها، والمتخلّفون عنها، والانعزاليون فيها، والعاملون على هدمها من الداخل. هم الذين قالوا بوجه منها وعدلوا عن مجملها. هم الذين دعوا إليها في الظاهر، وعملوا على نقضها في الباطن. ومن الخارج هم المستعمرون، والمستغلّون، هم الصهاينة والامبرياليون. وهم خُمَيْنِيُّو إيران، وفينيقيو لبنان، ونصيريو سوريا، ودروز حوران ووادي التيم، وجماهيريو القذافي.. منهم من يدري شرّه على العروبة، ومنهم من لا يدري. ولكل منهم أسبابه ودوافعه. وعند كلهم ترى النيّة منعقدة عليها، ومتوجّهة إليها... والعروبة في كل حال هروب.

وإذا كان اليوم من خلل فيها فذاك يعود إلى « عوامل عديدة قد يمكن تلخيصها في أربعة: رواسب القبليّة، واختلاف الأعراق، والتخلّف الثقافي، ودسائس الأعداء » [1]. ويمكن تلخيص الأربعة في واحدة: « العصبيّة »، تلك التي تجمع فيها كل أسباب التخلّف والتمزّق والتحزّب والاقتتال ورواسب التاريخ. وقد تكون العصبية أقوى من الإسلام نفسه. فتلك تفرّق وهذا يجمع. وما يفرّق كان أشدّ. يقول هـ. هولما: « ومع الزمن، بدت طبائع العرب الفردية عاجزة عن تحمّل تعاليم محمّد العالمية. إنّ التناقضات أقوى ممّا ينبغي، وقوّة الخصائص العرقية أكثر رسوخاً من اللازم ولا تزول بسرعة » [2]. وفي رأي غولدزيهر « إنّ محمّداً لم يكن تعبيراً عن

---

(١) سلّوم سركيس، العروبة بين الانعزالية والوحدة، ص ٢٧.
(٢) هـ. هولمَا، محمد، نبي العرب (بالفرنسية)، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

نفسانية القومية العربية، بل نقيضها ». وقال: « عقب النزاع بين صحّة المبدأ الديني والفردية السائدة في القبائل، والمتأصلة بعمق، انهارت شموليّة السيطرة العربيّة » [٣].

والعصبيّة العرقيّة، بالإضافة إلى اختلاف في جغرافية الأقطار المنتمية إليها، واختلاف في التقاليد والأعراف ومستوى العيش والثقافة، كلّها تعمل في تشتّت العرب وتفرّقهم. ولم يكن الدين ليقدر عليها. بل إنّ الاسلام جاء فيما جاء إليه ليقضي على العصبيّة المتمكّنة بالعرب. يعني أنّه جاء ليشنّ على العروبة حرباً عنيفة. هذا ما أشار إليه مفكّرون من العرب أنفسهم، وبأسلوب واضح جداً.

لقد وصف الدكتور محمّد رشاد خليل القوميّة العربيّة بأنها « أعنف حرب على الإسلام والعروبة عرفها تاريخ الإسلام القديم والحديث » [٤]. والقوميّة عنده هي مظهر من مظاهر العصبيّة الجاهليّة. وفي رأي أبي الأعلى المودودي، « أنّه ليس لعنصر القوميّة حظّ في إيجاد دولة الإسلام الفكريّة وتركيبها » [٥]، وهو يرى « أنّ القوميّة تعني أن يحلّ الشعب منزلة الألوهيّة » [٦]، ويعتبر أنّ « القوميّة شرك بالله وكفر بالإسلام ».

وفي رأي سيّد قطب أن القوميّة، عامة، والقوميّة العربية، خاصّة، هي أحد الأصنام والطواغيت، مثلها في ذلك مثل الاشتراكية والوطنية، لا بدّ من تحطيمها،

(٣) عن جواد بولس، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، ص ٧٥..
(٤) يدعو إلى « مصر العربية »، في مقال بعنوان: « شخصية مصر التاريخية »، في مجلّة « الدعوة »، عدد مارس آذار سنة ١٩٧٨.
(٥) المودودي (+ ١٩٧٩) في مقال: « نظرية الإسلام السياسية » في مجموعة « نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور »، بيروت ١٩٦٩، ص ٧٥.
(٦) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، بيروت ١٩٧٥، ص ١٥٢.

حتـى نخلـص التوحيد والعبوديـة لله(٧). وعنـد أبـي الحسـن النـدوي أن القوميّـة نبت أوروبـي، لا ديني. وينكر أن يكون لها مكان في فكر الإسلام وعالمه. فـ« الإسلام قد قسم العالم البشري إلى قسمين فقط: أولياء الله، وأولياء الشيطان... ولا مكان فيه للقوميّة وروابطها » (٨). وعند سعيد حوّى، إنّ « القوميّة العربيّة مسؤولة عن تمزيق المجتمع، مفلسة في الفكر، تحارب الإسلام في مكر واصرار » (٩).

أمّا علي عبد الرزاق فقد كان شرّ أعداء العروبة والقوميّة العربية والوحدة بين العرب. وهو لا يؤمن كثيراً بعلاقة العروبة والإسلام، ولا بأنّ الإسلام جاء ليدعو إلى العروبة. بل يقول ويؤكد انّه « ما كان الإسلام دعوة عربية، ولا وحدة عربيّة، ولا ديناً عربياً. وما كان الإسلام ليعرف فضلاً لأمة على أمّة، ولا للغة على لغة، ولا لقطر على قطر، ولا لزمن على زمن، ولا لجيل على جيل، لإلاّ بالتقوى » (١٠).

والذين اعتبروا أنّ الوحدة العربيّة تقوم على اللغة العربية والدين الإسلامي، وقفوا تجاه كل تطوّر للغة العربية، وضدّ كل شمولية عالمية للإسلام. فأحمد لطفي السيّد كان أشدّ الدعاة إلى « تمصير اللغة العربية »، أي إلى اعتبار اللغة المحكية لغة مصر الرسمية. بها يتفاهم الشعب، وبها يؤدي فرائض العبادة. وزكي نجيب محمود يهزأ من العرب الرجعيين السلفيين ويقول بلسانهم ساخراً بهم: « إنّنا نطالب بالعودة إلى السلف في الراديو الذي لم يصنعه السلف » (١١). وهكذا.

* * *

(٧) سيد قطب (+ ١٩٦٥) انظر كتابه في « معالم الطريق ».
(٨) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، بيروت ١٩٦٥، ص ٢٠٤.
(٩) من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك، القاهرة ١٩٧٩، ص ٦٠ ـ ٦٥.
(١٠) الإسلام وأصول الحكم، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، القاهرة، مطبعة مصر، سنة ١٩٢٥، ص ٨١ ـ ١٠٣.
(١١) زكي محمود، في « العقل العربي يتدهور »، مجلّة روز اليوسف القاهرية ١١ نيسان/ابريل ١٩٧٧.

إلاّ أنّ مواقف بعض الحكومات وسياساتها كانت أشدّ على العروبة من مواقف المفكرين ونظرياتهم. فآية الله الخميني يهاجم صدّام حسين الذي يحارب إيران باسم القوميّة العربيّة. « قال الخميني في صباح ١٨ نيسان ١٩٨٠، عندما التقى بممثلي لجنة التعبئة الوطنية الإيرانيّة: « إن الحكومة العراقية ليست حكومة.. وإنّ على كافّة الشعوب المسلمة أن تعرف معنى هذا الكلام... (الذي قاله صدّام حسين) « نحن عرب ». أي أنّنا لا نريد الإسلام. والعرب أرادوا، في وقت ما، الوقوف في وجه الإسلام... إنّ هؤلاء يريدون أن يحيوا عهد بني أميّة، كما يريدون العودة إلى ذلك العهد الجاهلي لتكون القوّة عربيّة والنفوذ للعرب » [١٢]. والخميني يعني بذلك، مهاجمة صدام حسين العربي، ومهاجمة العروبة التي قضى الإسلام عليها. وهذا ما يفسر « أبرز نقاط الخلاف بين إيران والعراق.. (وهو) الحطّ من شأن القوميّة العربية ومهاجمتها والتنديد بمبادئها في حملات من الكراهية موسّعة » [١٣]. ولهذا السبب وقفت جميع الدول العربيّة إلى جانب العراق في حربها المندلعة منذ سنتين ولا تزال.

والذي وقف مع إيران وحده حافظ الأسد رئيس سوريَا. وهو بموقفه يعلن نفسه، هو الآخر، عدوّاً للعروبة. ولكنّه استطاع بدهائه المعهود اقناع العرب، كلّ العرب، بأنّه يحارب ضدّ العراق لأجل العروبة والإسلام معاً. إلاّ أنّه، كعَلَويّ نُصَيريّ، يستطيع إظهار شيء وإخفاء آخر. فهو مع العرب ضد إسرائيل، وضد العرب مع إيران. هو مع الفلسطينيين ضد اللبنانيين، وضد الفلسطينيين خدمة لإسرائيل. هو يضرب السنّيين في حماة وطرابلس، وهو في خدمة السنّيين مع ليبيا والسعودية. هو عدوّ لإسرائيل يتحمّل قضايا العروبة كلّها لأجل أن تكون إسرائيل عدوّة للعرب بأجمعهم. وحده العلوي يخدم إسرائيل في اذلال العرب. ولكنّ العرب يعظّمون صمود الأسد لأنّه يظهر اذلالهم ويحمل عارهم. ليس من عدوّ في

---

(١٢) انظر كتاب « الصراع العربي الفارسي » وبخاصة ص ٣٦.
(١٣) المرجع نفسه، ص ٣٣.

العالم يقدّم لعدوّه خدمة كمثل الخدمة التي تؤديها عداوة العلويين النصيريين لإسرائيل. وإسرائيل تعرف ذلك وتحافظ على حافظ أسد عدوّها الأحب. وإن ابتغت إسرائيل ألاّ تخرج من لبنان، رغم اتفاق الانسحاب، تدفع بالأسد ألاّ يخرج هو لكي لا تخرج هي. وهكذا يخدم الأسد مصلحة إسرائيل العليا لأجل مصلحة قومه وأهله المقهورين عبر التاريخ على أيدي العرب أنفسهم. وهو يردّ لهم اليوم الكيل أكيالاً.

ويوازي الأسدَ عداوةً للعروبة العقيدُ معمّر القذّافي الذي، إضافة إلى كونه من أمّ يهوديّة وينتسب إلى اليهوديّة، يخدم إسرائيل خدمة مجانيّة فضلى بدفاعه المستميت عن الإسلام. وإذا كان الأسد يحمل، عداوةً لإسرائيل، لواء العروبة، فالقذّافي يحمل، ضدّ إسرائيل، لواء الإسلام. وكلاهما في جبهة « الصمود والتصدّي ». وكلاهما يعلن عداوتهما لإسرائيل ولأميركا حليفتها. إلاّ أنّ الاثنين يقدّمان الذريعة كاملة لأن تتوسّع إسرائيل على حساب العرب والإسلام معاً. وأحسن ما تستطيع إسرائيل تقديمه للأسد وللقذافي هو أن تحافظ على مجنونيّ العروبة والإسلام. الأسد هو ذاك المجنون بالعروبة، والقذافي هو مجنون الإسلام. وليس أفضل على إسرائيل من أن تجسد عداوتها للعروبة وللإسلام في اثنين كهذين.

أمّا الدروز فعداوتهم للعرب والعروبة والإسلام والمسلمين لا تحتاج إلى دليل. فـ« رسائل الحكمة » المقدسة، مليئة بالشتم والسب بالعرب والإسلام. وهي تصفهم بالغدر والخيانة واللؤم السفاهة. وقد يكون، بنظر الدروز، سكّان « الشامين الأسفل والأعلا، ومَن بالصعيد، والحجاز، وأرض اليمن، ومن بالجزيرة، والعراقين الأبعد والأدنى... جهلة، غفلة، نوّام، تعاموا عن الحقّ.. (وهم) أخبث الأمم، أشباه البقر والغنم.. أجلاف، غلف القلوب، أولاد البغايا والعواهر.. أهل الخلاف، فراعنة العرب.. » [١٤].

---

(١٤) انظر رسالة العرب في مجموعة رسائل الحكمة رقم ٥٩ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٧. وأيضا: الرسائل ٥٦ و٥٧ و٥٠ و٦٨ و٦٠ و٦٢.. كلها مليئة بسب العرب.

وعداء الدروز للعروبة ظاهر اليوم للعيان، فهم يخدمون عدوّ العرب خدمة عظمى. ولكنّهم، لفرط درزيّتهم الباطنية، يظهرون غير ما يبطنون. ولكن ليس من ينكر تعاونهم مع إسرائيل واتّفاقاتهم السريّة التي بدت مكشوفة. لقد حملوا، في حياة كمال جنبلاط، لواء فلسطين، ليقدّموا الذريعة الفضلى لإسرائيل لكي تضرب عمق الفلسطينيين.. وبعد موت جنبلاط حمل جنونَ فلسطين الوزير مروان حماده، وقد كان على وليد ابن كمال جنبلاط أن يقوم بهذه المهمّة، ولكنّه لم يظهر مقدرة درزيّة على ذلك... وفي عجز حمادة جاء اثنا عشر شيخاً من مشايخ العقل من إسرائيل إلى خلوات البياضة وراحوا مع أخوانهم المشايخ كل مسؤولية...

بقي للعروبة عدوّ خارجي، وسمّاه العرب « الاستعمار »، وهو يتمثّل بالصهيونية والانعزاليّة، والامبرياليّة، والشيوعية، والعلمنة، وجمل بعض المفكرين أساليب الاستعمار هذا بالمحاولات « للفصل المفتعل » بين العرب بالأمور التالية:

١ ـ « محاولة إذابة وتمييع المنطقة العربية في كيان أكبر هو ما يسمّى عادة بالشرق الأوسط، والتشكيك في مفهوم القوميّة العربيّة.

٢ ـ محاولة الفصل المستمرة بين مشرق الأمة العربية ومغربها.

٣ ـ محاولة الفصل بين الشعوب العربية والشعوب الإسلامية الأخرى.

٤ ـ دعم وتوطيد الكيان الاستيطاني الصهيوني في فلسطين.

٥ ـ تشويه الحضارة الإسلامية والطابع القومي العربي » [١٥].

ومنذ القديم كان الاستعمار بشتى ألوانه يعمل في هدم القوميّة العربيّة، وفي تفسيخ الأمّة العربيّة. فمنذ « أهل الردّة »، إلى « المردة »، إلى « الحركات الشعوبيّة »،

---

(١٥) د. علي الدين هلال، في تعقيبه على مقال منير شفيق عن « موقف القوى الخارجية وتحركها في مواجهة العروبة والإسلام « في القومية العربية والإسلام »، ٧١٤.

والخرّميّة، إلى « الدرزية »، و« النصيرية »، إلى « القرامطة الإسماعيليّة »، إلى « الحروب الصليبية »، إلى « الحكم العثماني »، إلى « عهد الانتداب »، إلى ألوان الاستعمار الحديث... كلّها كانت، وما تزال، تحت ألف لون ولون، تعمل في تشتيت العروبة وتجزئتها... ولم تنهض القوميّة العربيّة إلاّ بعد أن « خاض المسيحيون العرب معركة القومية العربيّة.. وذلك لمقاومة التتريك من جهة، ومن جهة ثانية لمقاومة كل محاولة يقوم بها المرسلون الكاثوليك الغربيون لحملهم على تبنّي الطقوس والفرائض الدينيّة اللاتينية... وكان أكثر القائلين بالعروبة الأرثوذكس العرب، وذلك لتحكّم عائلات الفنار اليونانية بهم منذ القرن السابع عشر. وقد فرض اليونانيون سلطتهم الكهنوتية على الكنيسة جمعاء » [١٦].

وكان من روّاد هذه القوميّة العربيّة بطرس البستاني في محاضرة له قال فيها بكيان اسمه « العرب »، وبشيء ينتمي هو إليه اسمه « الثقافة العربية ». وجاء بعده ابراهيم اليازجي في قصيدة قال فيها إن على العرب أن يتذكروا عظمتهم الماضية وأن يستيقظوا. وله في « الجمعية السريّة » بيان بـ« العزّة العربية »، ثم جاء جرجي زيدان وكان من أكثر الذين عملوا على إحياء وعي العرب لماضيهم وحضارتهم. ثم جورج سمنه، وشكري غانم. واليوم قسطنطين زريق الذي كتب كتاباً عن « الوعي القومي » سنة ١٩٣٩، وادمون ربّاط القائل بـ« الوحدة السورية والمصير العربي »، ولكنّه يعتقد بأن ليس هناك أمّة سورية بل أمّة عربية... ثمّ كثيرون غيرهم.

إلاّ أنّ بعضهم يميّز بين القومية العربية والأمة العربية. في حين أن المسلمين يقولون بأمّة عربية واحدة من المحيط إلى الخليج، وبالتالي بإمكانية « الوحدة » فيما بين أجزائها، باعتبار أن كل قطر من أقطارها يكوّن جزءاً منها، وكل شعب من شعوبها هو « جزء من الأمة العربية ». فالمسلمون العروبيون إذن ينادون، ليس فقط بالقومية

---

(١٦) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ٣٢٦.

العربية، بل بالأمة العربية الواحدة، ومن ثم بـ« الوحدة العربية ». ولهذا يقولون بـ« العالم العربي » أو بـ« الوطن العربي الكبير ». وفي قولهم المتطرّف هذا يعوّضون عمّا في نفوسهم من ماضي التحزّب الذي سيطر في المجتمع الجاهلي وقبائله وعشائره وبطونه. وهم اليوم، لرفع ذلك التفرّق، يعملون بكل نشاط لتوحيد الصفوف.

* * *

خَاتمة الفَصْل السَادس

إنّ انتفاضة العروبة، من وقت لآخر، لهي دلالة على أنّ النبيّ لم تُعط له فرصة تخليص الإسلام من شوائبها الكثيرة. ولو أعطي للنبي ذلك الحظّ لكان حرّر الإسلام من عبوديّة تلاحقه منذ البدء. فالعروبة، بهذا المعنى، هي « خطيئة الإسلام الأصليّة »، ونير عاره المشين. فكيف يكون الإسلام عزيز الجانب والقيّمون عليه عرب! وكيف تكون الوحدة الإسلاميّة والداعون إليها عرب! بل كيف يرقى الإسلام ويتعمق الإيمان بمعتقداته والعرب يحملون لواءه! « قالت الأعراب: آمنّا. قل: لم تؤمنوا. ولكن قولوا: ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » [١].

العرب هم مطيّة المسلمين ومركبهم في الفتوحات. هم جوع المسلمين الفاغر فاه ليبتلع كلّ شيء. « الجوع هو الذي دفع بالعرب على طرق الفتح » [٢]. وقد عبّر المغيرة بن زرارة ليزدجرد ملك فارس بقوله: « وأمّا جوعنا فلم يكن يشبه الجوع؛ كنّا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيّات، فنرى ذلك طعامنا... دِينُنا أن يقتل بعضنا بعضاً، ويُغير بعضُنا على بعض. وإن كان أحدُنا ليدفن ابنته وهي حيّة كراهية أن تأكل من طعامنا » [٣]... فهل يبقى الإسلام يعتمد على « جوع العرب » لتتمّ له الفتوحات!! نخشى ذلك.

وهل ذلّ العرب، الذي حذّر منه النبيّ في قوله: « إذا ذلّ العرب ذلّ

---

(١) سورة الحجرات ١٤/٤٩.
(٢) مونتجومري وات، محمّد في مكّة، ص ٢٠.
(٣) تاريخ الطبري، ٤٩٩/٣، وأيضاً: ٤/ ١٤٢، ٥٧٤/٣.

الإسلام »، والذي لحق بهم في التاريخ، يعني حقّاً ذلّ الإسلام! نخشى ذلك أيضاً. ولكنّ أحداث التاريخ العربي لم تبدّد خشيتنا. لقد لحق بالعرب ذلّ ما بعده ذلّ. منذ استئثار الفرس والترك بدولة بني العبّاس، ومنذ نشاط الشعوبيّة والبابكية والخرميّة والمزدكية والزرادشتية والقرمطية والكردية واليزيدية والدرزية، حيث وضعت كتب في « مثالب العرب » [٤]، وحيث قيل « العربي بمنزلة الكلب، اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبّوس » [٥]، وحيث أنشد الشعراء يقولون:

ومن تميم! ومن عكل! ومن يمن! ليس الأعاريب عند الله من أحد[٦]

وقال أبو العتاهية متهجّماً على من يدّعي نسبه العربي:

أنت عندي عربيّ ليس في ذاك كلام
عربي عربيّ عربي والسلام
شعر أجفانك قيصوم وشيخ وثمام[٧].

منذ ذلك الحين أصبحت العروبة على الإسلام ذلاً ومهانة، تشدّ به إلى الوراء. وقد عجز المسلمون بالعرب من الالتحاق بركب الحضارات التي فتحت أمامهم، فاستغنوا عنهم بالسريان لنقل العلم والطب والفلسفة إلى لغتهم. وأظهر العرب عجزاً عن اللحاق بالإسلام.

ثم هل صار تحكم برقاب العرب كمثل الذي صار أيّام المماليك والمغول والتتار!

(٤) الجاحظ، كتاب الحيوان، ٤/٤٤٨ ـ ٤٤٩.
(٥) تاريخ الطبري، ١٠/٣٦٧.
(٦) أبو النوّاس يتهكّم بالعرب ويستفزّهم ويسخر بهم.
(٧) القيصوم والشيخ والثمام، نباتات برية يتداوى بها.

ومنهم من قام ليعلن أن «... العرب وقد كثر فيهم الغدر وقلّة الوفاء بالذمامات، وقد أذلوا جارهم بعد العزّ، وخانوا في الرفائق والأمانات. وأهل الديانة منهم أيضاً قليل » [٨]. وهل من يتجاهل فصولاً بكاملها عن ذلّ العرب في مقدّمة ابن خلدون التاريخية! وهل أيضاً من قهر لم يحصل لهم منذ عهود الفارسيين والأتراك والصليبيين والعثمانيين والفرنسيين والروس والأميركان والإسرائيليين!!! هل هذا كلّه يعني ذلّ الإسلام وقهر المسلمين ؟! معاذ الله! والحق يقال: إن العروبة، كما كانت من قبل، وكما وصلت إليه اليوم، لا تستطيع اللحاق بالإسلام بحال من الأحوال، ولا تستطيع استيعابه. « الإسلام يتخطّى أيّ حاجز قومي أو وطني أو دولي. والعروبة تيّار قومي سياسي لا يمكن أن « يستوعب » الإسلام (الأدنى لا يستوعب الأعلى) ويشمل جميع مسلمي العالم » [٩].

ثمّ ماذا يعني، اليوم، القول بـ« القوميّة العربيّة »، و « الوحدة العربيّة »، و « العالم العربي »، أو « الوطن العربي » ؟! هل هذا يعني وجود جنس عربي له هويّته واثنيته ولغته وعصبيته وكل ما يلزم لمقوّمات العرق والأصالة! وقد رأينا نفي ذلك بألف ألف دليل. أم يعني وحدة الدين والعقيدة المتمثّلة بالإسلام! وقد بيّنّا براءة الإسلام من أثواب العروبة وهجرته منها هجرة أبدية. أم يعني أيضا حيلة عند بعض المسلمين لاصطياد غير المسلمين إلى الإسلام بطريقة العروبة غير المباشرة! وقد انكشفت الحيلة ومكرها منذ أن دبّرت وحيكت خيوطها. أم يعني أخيراً حنيناً كامناً في النفس البشريّة هو كالحنين إلى مرحلة الطفولة، يرغب الإنسان أحياناً بالعودة إليها لما فيها من بساطة وبداوة وحياة بدائيّة تستفيق وتستيقظ بعد مدّة من الدهر فينعم بعض العائدين إليها ولو برهة من الزمن اليسير! ولكنّ مدّة هذا الزمن استطالت حتى باتت مرضاً شفاؤه عسير.

---

(٨) رسائل الحكمة، ٥٤٩/٦٨.
(٩) أمين ناجي، لن نعيش ذميّين...، ص ٩١.

ثمّ أيضاً ماذا يعني قول أحد العروبيين المصرّين على أنّ « القوميّة العربية تمتاز عن القوميات الأخرى بعلوّ مكانتها الروحية في تكوينها. ذلك لأن الأديان السماويّة السائدة اليوم ـ الإسلام والمسيحية ـ نزلت في بقاعها.. ولا أعدو الحقيقة إذا قلت: إنّ هذه القيم الروحيّة هي التي ستكفل النصر للقوميّة العربيّة في كل المبادئ » [١٠]! هل هذا يعني فعلاً وجود قوميّة عربيّة؟ أم يعني نداءً صارخاً لإنشاء مثل هذه القوميّة ؟ في الحقيقة إن مثل هذه القومية لم يكن يوماً موجوداً في التاريخ. والنداء إلى إنشائها يعني ما يلي:

انّه يعني قوقعة الإسلام، رغم عالميّته، في قوميّة ضيّقة، وفي بيئة خاصّة معيّنة، ويعني أيضاً تبريراً للاستعمار، الذي، بدل أن يكون إمبريالياً وصهيونياً وصليبياً، يصبح عربياً؛ ويعني أيضاً عدم احترام المساواة بين أمم الأرض وشعوبها، بتفضيل شعب على شعب، وأمّة على أمّة؛ ويعني أيضاً تبرئة اليهوديّة من انتسابها إلى الله كـ« شعب مختار »، خصّه الله، باختياره له، بما لم يخصّ شعباً آخر من شعوب الأرض، فيكون وحده بينها جميعها محظوظاً، وتكون هي من المرذولين المحتقرين؛ ويعني أخيراً العودة، ضمناً، إلى عهد الفتوحات، بما في الفتوحات من جهاد مقدّس، واقتلاع أمم وحضارات من مواقعها، واحتلال أرض باسم الله والدين، واستمراء أموال البشر بـ« أخذ المغانم »، واستمتاع الرجال المجاهدين بنساء الشعوب وفتياتهم، وأخذهنّ سبايا يتقاسموهنّ كاقتسامهم المغانم والأموال.. وما إلى ذلك.

وأخيراً نسأل، ونحن نجاري منطق القوميين العروبيين أنفسهم، لماذا تحارب الصهيونية، اليوم! أليست لأنها قامت بقومية يهوديّة على أرض عربيّة ؟ ولماذا حورب الاستعمار في الأمس القريب! أليس أيضاً لأنه يحتلّ أرضاً ليست له ؟ ولماذا

---

(١٠) محمد عبد الله العربي، ديمقراطية القومية العربية، ص ٢٦.

قامت قيامة اللبنانيين والسوريين بنوع خاص على الدولة العثمانيّة، بالأمس البعيد، أليس لأنّ تركيا ابتلعت أقواماً آخرين دون الاعتراف بحق وجودهم وحريّتهم ؟.. ألا يكون الشيء نفسه بالنسبة إلى القوميّة العربيّة التي تفرض على جماعات تأباها وترفضها إذ هي لا تنتمي إليها، ولا تقرّ بوجودها، في التاريخ، ولا تؤمن أيضا بإمكانيّة لهذا الوجود المصطنع.

إنّ أفضل حجة يقدّمها القوميّون العرب للقومية الصهيونيّة هو القول بالقوميّة العربيّة. وأفضل دليل على قيام القوميّة الصهيونيّة على أرض ليست لها هو القول بقيام القوميّة العربيّة على أراض وأوطان ليست لها. فكيف يجيز القوميون القول بالقوميّة العربيّة على أرض مصر والسودان والمغرب والجزائر وموريتانيا والصومال، وسوريا ولبنان والأردن والعراق وفلسطين، ولا يجيزون القول بالقوميّة الصهيونيّة على أرض يهوده والسامره وجبل صهيون وسواها!!

إنّ العرب، على ما يبدو، يقدّمون، بدون علم منهم، الحجة الدامغة لأعدائهم، ليكون أعداؤهم متحكّمين برقابهم، ومستحكمين بإذلالهم. فهل هذا كلّه يعني الإسلام في شيء!!! معاذ الله ألف ألف مرّة. والعروبة لا تعي ذاتها إلا بدافع من الخارج، ولا تنهض من كبوتها إلاّ بـ« ردّة فعل » وانفعال، ولا تستيقظ من سباتها إلاّ بصدمة من عدوّ أو هزيمة في معركة... فهل هذا يعني الإسلام في شيء! وهل نقول على الإسلام ما حلا للقوميّين قوله على عروبتهم من « يقظة عربيّة »، أو « وعي عربيّ »، أو « نهضة عربيّة » ! وهل نغتصب الناس للإسلام كما يغتصب العروبيّون عروبيّتهم فيلصقونها على كل شيء، حتى تبدو « الأفران عربيّة »، و « الإبل والخيل عربيّة »، و « الجماهير الغفيرة عربيّة »، و « القضية الإنسانيّة عربيّة »، و « الحرية عربيّة »، والقيم جميعها، بأمّها وأبيها، عربيّة... هل يجوز ذلك على الإسلام!! الله أعلم. وهو خير العالمين.

خَاتِمة البَحث

العروبَة ذبحَة في قَلب النبيّ

كانت العروبة حيث نشأت في « غربي الفرات »، مع الآراميين، ثمّ مع المناذرة والغساسنة، في الحيرة والأنبار، ثم في جبل حوران ومختلف بلاد الشام، تتّصف بـ« الحضارة »، وتدين بالعقيدة المسيحيّة، وتحمل معها العلم والفكر، وتتميّز بقلمها المشتقّ مباشرة من القلم السرياني، وتكوّن « لغة » سُمّيت « غربيّة »، أو « عربيّة »، باسم المواقع الجغرافية للناطقين بها...

ثمّ « زحفت » اللغة مع بعض هؤلاء الناطقين بها صوب الجنوب، إلى الجزيرة الصحراوية، حيث مكّة والحجاز، وتكلّمتها عشائر البادية، ودانوا بعقيدتها التي حملها أصحابها إليهم، وتطعّمت ببعض لهجاتهم الثموديّة واللحيانيّة والديدانيّة والصفويّة، وغيرها، فزادوا عليها معاني ومفردات كانت خاصّة بهم، وما زلنا نلمسها في آيات القرآن، وقد أشار إليها علماء مسلمون عديدون...

وفي البادية، مع البدو والأعراب، « تخلّفت » اللغة عمّا كانت عليه في منابعها الأصلية، و « توقفت » الحضارة التي كانت تحملها، و « تنوّعت » العقيدة الدينية بتنوّع أصول الناطقين بها وأعراقهم. فأصبحت « البداوة » تقف بوجه « الحضارة » ؛ و« الجهل » يقف بوجه « العلم » ؛ و« الفرق » الدينيّة، التي أشار القرآن إلى تعدّدها، تعمل في هدم الإيمان الحنيف؛ والتقاليد البدوية تصدّ الناس عن ممارسة شعائر « الدين القيّم » [(١)]، أو « دين القيّمة » [(٢)]...

وهكذا، وبعد أكثر من قرنين من دخول « العربيّة الحضاريّة » إلى نواحي

---

(١) انظر القرآن: ٣٠/٣٠، ٣٦/٩، ٤٠/١٢، ٤٣/٣٠.
(٢) انظر أيضاً: ٥/٩٨.

الصحراء، أصبحت « العروبة » تعني « البداوة » و « التخلّف » [٣]... وعند مجيء الإسلام، كانت « العروبة » في أوج بداوتها. فما كان على النبيّ إلاّ التصدي لها، ثم « هجرتها »، واعتبار العودة إليها، بعد الإسلام، كبيرة من الكبائر، وحكم العائد إليها كحكم المرتد عن الإسلام.

* * *

لقد كانت « العروبة » إذن في المسيحية « حضارة »، وعند مجيء الإسلام « بداوة ». فهل هذا يعني، اليوم، وجوب عودة المسيحيين إليها وتمسّكهم بها! ووجوب « هجرة » المسلمين منها ورفضهم لها!!! لقد عاد المسيحيّون إليها، فيما بعد الإسلام، ونهضوا بها من جديد، ونقلوا إلى لغتها جميع العلوم اليونانيّة، ورفعوا لواءَها انتقاماً من القوميّة العثمانيّة، وكتبوا تاريخها وأقاموا أدبها من الموت، مع جرجي زيدان، وبطرس البستاني، واليازجييْن، ونجيب عازوري، وسواهم.... ثمّ جاء المسلمون وربطوا بينها وبين الإسلام، في مدّة لا تزيد عن مائة سنة؛ وقد نسوا أو تناسوا أنّ الإسلام حاربها منذ نشأته، وقاومها بما يزيد عن ألف وأربع مائة سنة!

فما يكون القاسم المشترك إذن بين المسيحيين بالنسبة إلى العروبة ؟ هل تكون اللغة ؟ واللغة في أصلها ومصدرها ومعانيها وقلمها مسيحية ؟ وهل تكون القوميّة ؟ والقوميّة العربيّة لا تعتمد على اثنيّة واحدة ولا على عرق معيّن ؟ وهل تكون وحدة المصير ؟ والمصير العربي في مهب الريح وبين أيادي الأعداء ؟ وهل تكون الفتوحات ؟ والفتوحات كانت دينيّة إسلاميّة من جهة، ومن جهة ثانية كانت بسبب « الجوع » والبؤس وجدب الصحراء ؟ وهل يكون التاريخ ؟ والتاريخ تاريخ فرس وأترك ومغول وتتار ومماليك واستعمار وانتداب، وما إلى ذلك ؟

---

(٣) انظر أوصاف « الأعراب » في القرآن في مكانها من هذا البحث.

فأين هي العروبة اليوم ؟ أفي موريتانيا، والصومال، والجزائر، وتونس، والمغرب، ومصر، والسودان ؟ أم في لبنان، وسوريا، وفلسطين، والعراق، والأردن، أم في اليمن التي رفضت العروبة بعد أن تحضّرت منذ أقدم الأزمان ؟! وعلى أيّة عروبة يتكلّم العروبيّون ؟ أعلى عروبة سكان غربي الفرات المتحضّرة ؟ أم على عروبة الأعراب والبدو التي هجرها الإسلام ؟ أم على عروبة الجوع والتخلّف التي زحفت صوب الهلال الخصيب ؟ أم على تلك العروبة التي اصطدمت بجبال سنجار وجبال لبنان وطوروس، وحضارات ما بين النهرين... حيث امتنعت عن الأكراد والفينيقيين والمغول والآشوريين والسريان وسواهم!

اللّهم يبقى واحدة. إذا كانت العروبة حنيناً إلى البداوة وحياة الطفولة البدائيّة، فالعالم كلّه عرب. أمّا إذا كانت العروبة نمط حياة دائم، فليس من إنسان واحد يطيب له العيش في حماها. والذين استمرأوا الجوع والبؤس وجدب الصحراء يحقّ لهم وحدهم الافتخار بعروبتهم. والعودة بعد « الفتح » و « الهجرة » إلى زمن العروبة لهي طعنة في صدر الإسلام وذبحة في قلب النبيّ.

المصَادِر والمَراجِع

اقتصرنا على أهم المصادر والمراجع في موضوع العروبة التي تبلغ آلافاً مؤلفة من الكتب والمقالات. وتكاد المؤلفات التي تطلع بها المطابع كل سنة تقوم بعملية غسل دماغ شاملة. لقد تحمّلنا عنك عبء قراءتها، علّنا نحظى، بصبرنا وتحمّلنا، أجر حضارة لن تعود أو تحنّ إلى طفولتها وعروبتها، بعد اليوم. فهلا يكف العروبيّون عن إصدار الكتب، ويرتدعون عن إذلال الإسلام!

١) ابراهيم (سعد الدين)، اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت ١٩٨٠.
٢) أبو النجا (الدكتور السيد)، عروبتنا سنة ٢٠٠٠، دار الشروق، بيروت ١٩٨٣، ٩٦ ص.
٣) أركون (محمّد)، الفكر العربي، ترجمة الدكتور عادل العوّا، سلسلة زدني علماً، رقم ١٧٧، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس، ١٩٨٢. ١٨٤ ص.
٤) الألوسي (محمود شكري)، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣ مجلدات، تحقيق محمد بهجة الأثري، المطبعة الرحمانيّة بمصر، ١٩٢٥.
٥) الأهواني (أحمد فؤاد)، القومية العربية، المكتبة الثقافية، ١٩٦٠.
٦) أوليري (دي لاسي)، الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ترجمة الدكتور تمام حسان، القاهرة ١٩٦١. وهناك ترجمة ثانية لإسماعيل البيطار، بعنوان: « الفكر العربي ومركزه في التاريخ » ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٢. ٢٨٠ ص.
٧) باسيل (محمد أحمد)، العرب في الشام قبل الإسلام، دار الفكر، بيروت ١٩٧٣، ٢٣٢ ص.
٨) بروكلمان (كارل)، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٩، ١٩٨١، ٩٠٤ ص.
٩) ألبزّاز (عبد الرحمن)، الإسلام والقومية العربية، بغداد، ١٩٥٢.
١٠) ألبزّاز (عبد الرحمن)، من وحي العروبة، القاهرة، ١٩٦٠.
١١) بليابيف (ي. أ.) E.A. BELYAYEV العرب والإسلام والخلافة العربية، نقله الدكتور أنيس فريحه، راجعه وقدم له الدكتور محمود زايد، الدار المتحدة

للنشر، بيروت ١٩٧٣، ٣٤٨ ص.
١٢) البهي (دكتور محمد) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، القاهرة ١٩٧٦.
١٣) بولس (جواد)، التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عوّاد للطباعة والنشر، بيروت، بلا تاريخ، ٤٣٦ ص.
١٤) بيرجر (مورو)، العالم العربي اليوم، ترجمة محيي الدين محمّد، دار مجلة شعر، بيروت ١٩٦٣، ٣٦٤ ص.
١٥) توما (الدكتور اميل) العملية الثورية في الإسلام، دار الفارابي، بيروت ١٩٨١، ١١٢ ص.
١٦) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، الحنين إلى الأوطان، سلسلة اللغة والآداب، ١، دار الرائد العربي، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٨٢، ص ٤٨.
١٧) جب (هاملتون)، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة د. إحسان عباس، ود. محمد يوسف نجم، ود. محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤، ٤٦٠ ص.
١٨) حاطوم (نور الدين)، محاضرات عن حركة القومية العربية، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٧.
١٩) حتّي (الدكتور فيليب)، والدكتور أدوار جرجي، والدكتور جبرائيل جبّور، تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط ٥، ١٩٧٤.
٢٠) الحصري (ساطع)، آراء وأحاديث في القومية العربية، دار العلم للملايين، ١٩٥١.
٢١) الحصري (ساطع)، ما هي القومية، الدار نفسها، ١٩٥٩.
٢٢) الحصري (ساطع)، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، القاهرة، ١٩٥٤.
٢٣) الحصري (ساطع)، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، القاهرة، ١٩٥٥.
٢٤) الحصري (ساطع)، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت ١٩٦٠.

٢٥) الحصري (ساطع)، الدولة بين دعاتها ومعارضيها، بيروت ١٩٥٧.
٢٦) الحصري (ساطع)، أبحاث مختارة في القومية العربية، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤.
٢٧) حنا (جورج)، معنى القومية العربية، بيروت ١٩٥٩.
٢٨) الحوت (محمود سليم)، في طريق الميثولوجيا عند العرب، بحث مسهب في المعتقدات والأساطير العربية قبل الإسلام، دار النهار للنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩، ٣٠٨ ص.
٢٩) حوراني (ألبرت)، الأقليات في العالم العربي، مطبعة جامعة أوكسفورد، لندن ١٩٤٧.
٣٠) حوراني (ألبرت)، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩، دار النهار للنشر، ط ٣، بيروت ١٩٧٧، ترجمه إلى العربية كريم عزقول.
٣١) خاكي (أحمد) فلسفة القومية العربية، سلسلة اخترنا لك، الكتاب ٥٥، القاهرة.
٣٢) الخالدي (الدكتور طريف) دراسات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، دار الطليعة، بيروت ط ٢، ١٩٧٩، ١١٢ ص.
٣٣) خزعل (حسين خلف الشيخ)، تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مطابع دار الكتب بيروت ط ٣، ١٩٧٢، ٤٥٦ ص.
٣٤) خلف الله (محمد أحمد)، « عروبة الإسلام »، المستقبل العربي، سنة ٢ تموز ١٩٧٨، ص ٢٩ ـ ٣٩.
٣٥) خليفة (نبيل)، الكتائب و « عروبة » لبنان، بحث علمي في هوية لبنان من منظور كتائبي، جـ ١، ١٩٨٣، بيروت، ٢٢٤ ص.
٣٦) الخوري (الياس)، جورج خضر، طريف الخالدي، ادمون رباط، قسطنطين زريق، رضوان السيد، وجيه كوثراني، المسيحيون العرب، دراسات ومناقشات، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨١، ١٥٢ ص.

٣٧) الخوري (بولس)، التراث والحداثة، مراجع لدراسة الفكر العربي الحاضر، دراسات الفكر العربي، معهد الانماء العربي، بيروت ١٩٨٣، ٢٨٢ ص.
٣٨) داود (الاب جرجس داود)، أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي، السلسلة الأدبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨١، ٢٩٢ ص.
٣٩) دروزة (محمد عزّة)، تاريخ الجنس العربي، ٨ أجزاء، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت ١٩٨٣.
٤٠) دروزة (محمد عزّة)، الوحدة العربية، بيروت ١٩٥٧.
٤١) دروزة (محمد عزّة)، عصر النبيّ وبيئته قبل البعثة، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٤، ٨٤٨ ص.
٤٢) دروزة (محمد عزّة)، عروبة مصر قبل الإسلام وبعده، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت ط ٢، ١٩٦٣، ٢٠٠ ص.
٤٣) الدواليبي (معروف)، القومية العربية في حقيقتها، كتب قومية، عدد ٩، ١٩٥٩.
٤٤) الدوري (د. عبد العزيز)، الجذور التاريخية للشعوبية، دار الطليعة، ط ٣، ١٩٨١، ١٠٣ ص.
٤٥) الدودي (د. عبد العزيز)، الجذور التاريخية للقومية العربية، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.
٤٦) ديكسون (هـ. ر. ب.)، عرب الصحراء، آلن، لندن، ١٩٤٩.
٤٧) الرازق (علي عبد)، الإسلام وأصول الحكم، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٢٩.
٤٨) الرافعي (عبد الرحمن)، تاريخ الحركة القومية، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٢٩.
٤٩) الرزاز (منيف)، تطوّر معنى القوميّة، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.
٥٠) الرزاز (منيف)، معالم الحياة العربية الجديدة، الدار نفسها، ١٩٥٩.
٥١) رضوان (أبو الفتح)، القومية العربية، القاهرة، ١٩٦٥.

٥٢) الريماوي (عبد الله)، المنطق الثوري لحركات القومية العربية، القاهرة، ١٩٦١.
٥٣) رفلة (فيليب), وآخرون، جغرافية الوطن العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٣.
٥٤) زريق (د. قسطنطين)، مطالب المستقبل العربي، هموم وتساؤلات، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٣، ٢٧٢ ص.
٥٥) زيدان (جرجي)، العرب قبل الإسلام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٦، ٣٤٤ ص.
٥٦) زيدان (د. محمد مصطفى)، وابراهيم عبد الله آدم، القومية العربية بين التحدّي والاستجابة، دار مكتبة الأندلس، بنغازي، ليبيا ١٩٧٣، ٣٤٤ ص.
٥٧) زيدان (د. محمد مصطفى)، القومية العربية بين القوميات والمذاهب السياسية المعاصرة، منشأة المعارف بالاسكندرية، ١٩٦٦.
٥٨) سالم (السيد عبد العزيز)، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١.
٥٩) سالم (أحمد موسى)، العقل العربي ومنهج التفكير الإسلامي، دال الجيل بيروت ١٩٨٠، ٣٤٤ ص.
٦٠) سالم (أحمد موسى)، لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب ؟ دار الجيل بيروت ١٩٧٧، ٣٣٦ ص.
٦١) سركيس (سلّوم)، العروبة بين الانعزالية والوحدة، دار المتوسط للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٥، ١٦٤ ص.
٦٢) سركيس (سلّوم)، المآسي المعاصرة والمصير العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣.
٦٣) سعيد (أحمد)، القومية العربية. ثورة وبناء، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩، ٣٧٤ ص.

٦٤) سيديو، خلاصة تاريخ العرب العام، مطبعة محمد أفندي مصطفى بمصر ١٣٠٩ هـ.
٦٥) الشامي (صلاح الدين)، الوطن العربي، دراسة جغرافية، القاهرة ١٩٧٣.
٦٦) الشريف (أحمد ابراهيم)، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥، ٥٨٦ ص.
٦٧) الشهابي (مصطفى)، محاضرات عن القومية العربية، تاريخها، قوامها، مراميها، القاهرة ١٩٥٩.
٦٨) شوقي (عبد المنعم)، وعلي فؤاد أحمد، المجتمع العربي والقومية العربية، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٤.
٦٩) الشيباني (أحمد)، الأسس الثورية للقومية العربية، دمشق ١٩٥٨.
٧٠) الصائغ (نبيل الطواهرة)، الأحكام الدستورية للبلاد العربية، منشورات دار الجامعة بيروت بلا تاريخ، ٣٥٠ ص.
٧١) صايغ (د. أنيس)، الفكرة العربية في مصر، مطبعة هيكل الغريب، بيروت ١٩٥٩.
٧٢) صعب (د. حسن)، تحديث العقل العربي، دراسات حول الثورة الثقافية اللازمة للتقدم العربي في العصر الحديث، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٧٢، ٢٣٢ ص.
٧٣) الصلح (منح)، الإسلام وحركة التحرر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط ٤، ١٩٤٩، ١٠٤ ص.
٧٤) صليبا (جميل)، تيارات الفكر في سوريا ولبنان، هيئة الدراسات العربية العليا، الجامعة العربية، القاهرة ١٩٥٨.
٧٥) الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ١٠ أجزاء، سلسلة ذخائر العرب ٣٠، دار المعارف بمصر، ط ٤، ١٩٧٩، ملحق بـ « ذيول تاريخ الطبري... ».
٧٦) طربين (أحمد)، الوحدة العربية بين ١٩١٦ ـ ١٩٤٥، معهد الدراسات

العربية، القاهرة ١٩٥٩.
٧٧) طربين (أحمد)، الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر، دمشق ١٩٧٠.
٧٨) طعيمة (صابر)، تحدّيات أمام العروبة والإسلام، دار الجيل بيروت ١٩٧٦، ٢٩٢ ص.
٧٩) الطيباوي (د. عبد اللطيف)، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، دار الأندلس بيروت ط ٢، ١٩٧٩، ٣٥٢ ص.
٨٠) عبد المجيد (سعد زغلول)، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٦.
٨١) عبد الحي (عبد الله)، المجتمع العربي، أبعاده ومقوماته، الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٨.
٨٢) العدوى (ابراهيم أحمد)، حركات التسلل ضد القومية العربية، المكتبة الثقافية القاهرة ١٩٦٠.
٨٣) العربي (د. محمد عبد الله)، ديمقراطية القومية العربية، وزارة الثقافة والارشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، ١٩٦١، ٢٤٠ ص.
٨٤) العريني (السيد الباز)، وآخرون، المجتمع العربي، دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٩.
٨٥) عزّت (عبد العزيز)، الايديولوجية العربية والمجتمع العربي، القاهرة ١٩٦٠.
٨٦) عز الدين (نجلا)، العالم العربي، مترجمة، القاهرة، بلا تاريخ.
٨٧) عظم (نزيه الـ)، رحلة في بلاد العرب السعيدة، جزءان.
٨٨) علي (د. جواد)، تاريخ العرب في الإسلام، السيرة النبوية، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ٢١٨ ص.
٨٩) علي (د. جواد)، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠ أجزاء، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ١٩٦٨.
٩٠) علي (محمد كرد)، الإسلام والحضارة العربية، دار الكتب المصرية، القاهرة

١٩٣٤ ـ ١٩٣٦.
٩١) عمارة (محمد)، الإسلام والقومية العربية والعلمانية في قضايا عربية، سنة ٧ أيار ١٩٨٠، عدد ٥، ص ٦٧ ـ ٩٢ (انظر كتاب دراسات في الوعي بالتاريخ).
٩٢) عمارة (محمد)، الإسلام والعروبة والعلمانية، دار الوحدة، بيروت ١٩٨١، ١٨٠ ص.
٩٣) عمارة (محمد)، فجر اليقظة القومية، القاهرة ط ٢،١٩٧٥.
٩٤) عمارة (محمد)، العروبة في العصر الحديث، القاهرة ١٩٦٧.
٩٥) عمارة (محمد)، الأمة العربية وقضية التوحيد، القاهرة ١٩٦٦.
٩٦) عمارة (محمد)، العرب والتحدي، طبعة الكويت ١٩٨٠.
٩٧) عازوري (نجيب)، يقظة الأمة العربية، تعريب د. أحمد بو ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بلا تاريخ، ٢٣٠ ص.
٩٨) غانم (محمد حافظ)، محاضرات عن جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٠.
٩٩) غربال (محمد شفيق)، العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية، القاهرة ١٩٦١.
١٠٠) الغزالي (محمد)، حقيقة القومية العربية أو أسطورة البعث العربي، دار البيان، الكويت ط ٢، ١٩٦٩، ٢٨٤ ص.
١٠١) فارس (نبيه أمين)، من الزاوية العربية، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٣، ٧٢ ص.
١٠٢) فلهوزن (ي.)، تاريخ الدول العربية، من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأمويّة، ترجمة محمد عبد الهادي، مراجعة حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٨.
١٠٣) فودة (د. عزّ الدين)، المجتمع العربي. مقوّمات وحدته وقضاياه السياسية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٦.
١٠٤) كامل (د. محمود)، الإسلام والعروبة، تحليل لعوامل الوحدة بين عشرين

دولة عربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر ١٩٧٦، ٤٥٨ ص.
١٠٥) كامل (د. محمود)، الدولة العربية الكبرى، دار المعارف القاهرة، ط ٢، ١٩٦٦.
١٠٦) كامل (د. محمود)، القانون الدولي العربي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٦.
١٠٧) كامل (مصطفى)، المسألة الشرقية، القاهرة ١٨٩٨.
١٠٨) كاهن (ك.)، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة بيروت ١٩٥٧.
١٠٩) الكيلاني (مؤيد)، كيف انتشر الإسلام ؟ دار الكاتب العربي، بيروت، بلا تاريخ، ٢٨٨ ص.
١١٠) لامنس (الاب هنري)، النصارى في مكة قبيل الهجرة، المشرق مجلد ٣٥، ص ٠٠٩٢، ١٩٣٧.
١١١) لاندو (رمضان)، الإسلام والعرب، ترجمة منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢.
١١٢) لاندو (رمضان)، مصير القومية العربية، مكتبة الحياة بيروت، بلا تاريخ، ١٤٢ ص.
١١٣) لوبون (د. غوستاف)، حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩، ٧٨٦ ص.
١١٤) لوتسكي (ق. ب.)، تاريخ الأقطار العربية الحديثة، دار الفارابي بيروت ١٩٧١.
١١٥) لويس (برنارد)، العرب في التاريخ، هاربر كورش بوكس، نيويورك، ١٩٦٠.
١١٦) المجد (أحمد كمال أبو)، « بل الإسلام والعروبة معاً »، في مجلة العربي الكويت عدد ٢٦٣، تشرين أول ١٩٨٠، ص ٦ ـ ١١.
١١٧) المجد (أحمد كمال أبو)، دراسات في المجتمع العربي والوحدة العربية،

القاهرة ١٩٦١.
١١٨) مجلة شؤون عربيّة، شهرية فكرية تصدرها وحدة المجلات، عدد ١ آذار ١٩٨١، في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية تونس.
١١٩) مجموعة من أساتذة كلية الآداب والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، دراسات في المجتمع العربي، دار النهضة العربية، بالقاهرة ١٩٦٢.
١٢٠) مجموعة من المؤلفين، الصراع العربي الفارسي، مؤسسة منشورات العالم العربي، EMA باريس ١٩٨١، ٣١٠ ص.
١٢١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ أجزاء من مجلّدين، تحقيق يوسف أسعد داغر، دار الأندلس بيروت ط ٢، ١٩٧٣.
١٢٢) المسعودي، التنبيه والاشراف، دار صعب، بيروت، بلا تاريخ، ٣٥٢ ص.
١٢٣) معروف (د. ناجي)، أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة بيروت ط ٢، ١٩٧٥، ٥٢٠ ص.
١٢٤) معروف (د. ناجي)، الموجز في تاريخ الحضارة العربية، بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز الدوري، مطبعة النجاح، بغداد ١٩٤٩.
١٢٥) مغيزل (جوزيف)، العروبة والعلمانية، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٠، ١٩٦ ص.
١٢٦) المنجّد (صلاح الدين)، الحياة الجنسية عند العرب، دار الكتب بيروت ١٩٥٨.
١٢٧) ناصر الدين (علي)، قضية العرب، منشورات عويدات، بيروت ط ٣، ١٩٦٣، ٢١٨ ص.
١٢٨) النجار (حسين فوزي)، وحدة التاريخ العربي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، بلا تاريخ.
١٢٩) ندوة فكرية، القومية العربية والإسلام، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية

التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨١، ٧٨٠ ص.
١٣٠) نسيبه (حازم زكي)، القومية العربية، فكرتها، تطورها، نشأتها، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٩.
١٣١) نسيبه (حازم زكي)، تعاليم القومية العربية، مطبعة جامعة كورنيل، أتاكا، نيويورك، ١٩٥٦.
١٣٢) نصّار (د. ناصيف)، مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، دراسة في مدلول الأمة في التراث العربي الإسلامي، دار الطليعة، بيروت ط ٢، ١٩٨٠، ١٥٠ ص.
١٣٣) النقّاش (د. زكي)، دور العروبة في تراثنا اللبناني. دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت ط ٢، ١٩٧٤، ١٧٢ ص.
١٣٤) نوفل (سيّد)، العمل العربي المشترك في المجال الدولي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧١.
١٣٥) نيلسون (ديتلف)، التاريخ العربي القديم، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي، القاهرة ١٩٥٨.
١٣٦) الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد)، كتاب صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد عبد الله النجدي، القاهرة ١٩٥٣، وطبع أيضاً في بريل ليدن ١٨٨٤.
١٣٧) الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد)، الاكليل، بغداد ١٩٣١.
١٣٨) وات (مونتجومري)، محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، بلا تاريخ، ٢٧٦ ص.
١٣٩) الواقدي (أبو عبد الله بن عمر)، فتوح الشام، جزءان في مجلد واحد، دار الجيل بيروت، بلا تاريخ، ٦٢٤ ص.
١٤٠) وصفي (عاطف أمين)، المجتمع العربي، دار المعارف القاهرة ١٩٦٦.
١٤١) ولفنسون (أ. ذؤيب)، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت ١٩٨٠، ٢٩٦ ص.

١٤٢) وهبه (حافظ)، جزيرة العرب في القرن العشرين، القاهرة ١٩٥٦.
١٤٣) وهيبه (عبد الفتاح)، بالاشتراك مع محمد سعودي، معالم الوطن العربي، دار الفكر القاهرة ١٩٦٤.
١٤٤) يحيى (لطفي عبد الوهاب)، العرب في العصور القديمة. مدخل حضاري إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية بيروت ط ٢، ١٩٧٩.

١٤٥) ANTONIUS, GEORGES, *The Arab Awakening*, New York, Putmam's Sons, 1946.

١٤٦) BERGER, B. *l'Arabie avant Mahomet*, Paris 1952.

١٤٧) BERQUE, JACQUES, *Les Arabes d'hier à demain*, Ed: du Seuil, Paris, 3ème éd. 1976. Réédité sous titre: Les Arabes, 3ème éd. texte refondu et augmenté, Ed. Sandbad, Paris 1979; 192 p.

١٤٨) BERREBY, B. B., La Péninsule Arabique, Payot Paris 1958.

١٤٩) BLACHERE, R., M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES, *Grammaire de l'Arabe classique*, Ed. Maisonneuve et Larose, Paris 1975, p. 510.

١٥٠) CHELLI, MONCEF, *Le Parole Arabe*, La Bibliothèque arabe, Ed. Sindbad, Paris 1980, p. 326.

١٥١) DUSSAUD RENE, *La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam*, Lib. Orient, Paul Geuthner, Paris 1955, p. 236.

١٥٢) FLOY ET MANTRAN, *Les Régimes politiques des Pays Arabes*, P.U.F. 1968.

١٥٣) GARDET, LOUIS, *La Cité Musulmane*. Vrin. Paris 1969.

١٥٤) GUIDI, L., *L'Arabie antéislamique*. 4 conférences données à L'Université du Caire en 1909; Paris 1921.

١٥٥) HUART, CL., *Histoire des Arabes*, 2 vol. Paris 1912-1913.

١٥٦) ISSAWI, CHARLES, *The Bases of Arab Unity*, Le Caire. L'Egypte contemporaine 1958.

١٥٧) JUNG, EUGENE, *Les Puissances devant la Révolte Arabe*. Hachette 1906.

١٥٨) LAMMENS, HENRI, *La cité de Taïf à la veille d l'Hégire*, Beyrouth 1912. *L'Arabie occidentale avant l'Hégire*, Beyrouth 1928. *Le Berceau de l'Islam. Le Climat. Les Bédouins*, Rome 1914. *La Mècque avant l'Hégire*, Beyrouth 1930. *La République marchande de la Mècque vers l'an 600 de notre ère*, Bulletin de l'Institut Egyptien, t.IV., Alexandrie 1910. *Les Chrétiens à la Mècque à la veille de l'Hégire*, dans Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale, t. XIV, Le Caire 1918.

١٥٩) LEWIS, BERNARD, *The Arabs in History*, Revised edition, London 1958: notations intéressantes dans les chapitre premier, *Arabia before Islam*, p. 21 et s.

١٦٠) LUGOL, JEAN, *Le Panarabisme, Le Scribe Egyptien*, Le Caire, 1946.

١٦١) NODINOT, JEAN-FRANCOIS, *22 Etats Arabes Une Nation*, Ed. Du Sorbier, Paris 1980.

١٦٢) O'LEARY DE LACY, *Arabia before Muhammad*, London 1927; Réimpression en New York 1973.

١٦٣) PERCEVAL, CAUSSIN DE, *Essai l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mahomet et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane 1847*; Réimpression en Graz Autriche 1967.

١٦٤) RABATH, EDMOND, *L'Orient Chrétien à la veille de l'Islam*, vol. I. Publications de l'Univ. Libanaise, Beyrouth, 1980.

١٦٥) RIZK, CHARLES, *Entre l'Islam et l'Arabisme. Les Arabes jusqu'en 1945*. Coll. Présence du monde Arabe, Ed. Albin Michel. Paris 1983.

١٦٦) RODINSON, *L'Arabie avant l'Islam,* dans Encyc. de la Pléade, 1957. *Les Arabes*, P.U.F., Paris, 1979, p. 174.

١٦٧) THOMAS, BERTRAND, *Les Arabes*, Payot, Paris 1946.

١٦٨) WOLF, JEAN, *La Résurrection du Monde Arabe*, Bruxelles, 1959.

مواضيع البحث